الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ — ١٤ ذى الحجة سنة ١٣٥٦ — ١٥ فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

قتل

للكاتب الانجليزى أرنولد بنت

بقلم احمد حسن الزيات

فى عصر يوم من أيام الخريف كان رجلان أحدهما لوماكس هردر والآخر جون فرانتينج يمشيان جنباً إلى جنب فى ساحة البحرية «بكنجات». وكنجات شاطئ جميل من شواطئ الاستجمام، وثغر صغير من ثغور المانش. وكان كلا الرجلين حسن البزة موفور الصحة يهدف للخامسة والثلاثين من عمره؛ وذلك كل مابينهما من شبه. فأما لوماكس هردر فكان دقيق الملامح ضخم الجبهة أشقر الشعر وثيد المشية؛ وأما جون فرانتينج فكان أغم الجبين، بارز الذقن، تشعرك مخايل وجهه بالتحدى، ويدلك جفاء خلقه على العربدة

ترى على هردر شارة الشاعر إلا أنه حليق. وفى الواقع أن هردر شاعر رفيع الطبقة فى بيئته التى تجعل للشعر المكانة الأولى وللشاعر الدور الأول. ولكنك ترى على فرانتينج سيما الأفاق المغامر الذى يجعل من جسمه بطلاً فى اللاكمة، ومن قلبه دون جوان فى الحب

قال لوماكس هردر وهو يزر معطفه يسأل صاحبه فى لهجة تنم على الثبات والإصرار: أليس لديك ما تقوله؟ فوقف جون فرانتينج أمام حانوت كتب على واجهته: «جونتل — بائع أسلحة» ثم قال: إن مالدي لايعبر عنه الكلام، فأنا أدخل هنا. ثم اقتحم الحانوت، وتردد هردر قليلاً ثم دخل فى أثره

كان بائع الأسلحة رجلاً بين العمرين عليه سترة من القطيفة السوداء، فلما رأى فرانتينج بادره بالتحية على طريقة الأخصائى الذى طارت شهرته إلى لندن. فرد عليه جون التحية بصوت غليظ أجش، ثم طلب منه مسدساً. فقال له البائع وهو

يعرض عليه بعض الأنواع : لعلك خبير بأصناف المسدسات يا سيدى ! فقال : إن معرفتى بها قليلة . فقال له هل سمعت بطراز ويلى — ٣ ؟ إنه خير طراز للاستعمال المبتذل

وكانت عين السيد جونتل تطلب إلى فرانتينج أن يكفيه رأيه ويقيه اعتراضه . فأخذ يفحص المسدس (ويلى — ٣) ويستمع إلى البائع وهو يقول:

أنظر ! إن له خصيصة تميزه من غيره ، وهى أنك لا تستطيع استعماله وهو فارغ . لذلك تأمن أن ينطلق من ذات نفسه فيجرح أو يقتل مرشح الموت . ثم افتر جونتل عن ابتسامة رقيقة أتم بها هذه النكتة وهى إحدى نكاته القديمة . فسأله فرانتينج فى غضب : وماذا للانتحار ؟

فقال جونتل : آه : آه ! فطلب منه أن يريه كيف يحشى فأراه . ثم لاحظ الشارى خدشاً فى مؤخر المسدس ، فأخذ البائع يفحصه فى شئ من الألم ثم قال متأففاً : سأعطيك غيره مادمت صعب المراس شديد المماحكة . فقال له احشه إذا شئت . فحشا جونتل المسدس الثانى وناوله إياه ؛ فطلب إليه أن يجربه ، فقاده إلى قبو وراء الحانوت أعد لهذا الغرض

وبقى هردر وحده فى الحانوت ، فتردد طويلاً ثم تناول المسدس الذى رفضه فرانتينج وأخذ يَرُوزه فى يده ، ثم وضعه ، ثم عاد فأخذه ، وانفتح الباب الخافى بغتة فذهل هردر لهذه المفاجأة ، فوضع المسدس فى جيب معطفه من غير قصد ولا وعى . وسأل جونتل فرانتينج أيريد رصاصاً . فقال إن لديه خمساً ، لأنه لم يطلق إلا واحدة . وفى هذه الرصاصات الخمس كفاية الساعة . ثم دفع الثمن وخرج وفى يده المسدس فلم يدع لهردر وقتاً يقر فيه على قرار . وسأل جونتل الشاعر ماذا يريد . ففهم هردر من سؤاله أنه حسبه شارياً آخر اتفق دخوله الحانوت على أثر دخول فرانتينج . ورجّح هذا الحسبان فى نفسه أنه هو وفرانتينج لم يتبادلا الخطاب منذ دخلا . فطلب إليه نوعاً من السيوف لا شفرة له ؛ وهو طلب ورد على خاطره فألقاه كما جاء . فغض ذلك من كرامة جونتل وقدح فى اختصاصه . ثم تجاذبا الحديث هنيهة واعتذر هردر اعتذار الخاطئ ، ثم انصرف انصراف اللص ، وهو يقول لنفسه إرضاء لضميره : سأعود إلى البائع فأنقده ثمن المسدس ، أو أرسل إليه حوالة بريدية غفلاً من الإمضاء . ثم اجتاز الساحة فأبصر على بعد شبح فرانتينج يتسحب وحده على الرمل ، فخيل إليه أنه رآه يهز المسدس ، وأنه سمعه يطلقه ؛ ولكن المسافة كانت بينهما بعيدة فلم يستطع أن يجزم بالأمر . وقطع فرانتينج الساحل من زاوية إلى زاوية فغاب عن بصره . فظن هردر أن صاحبه انقلب إلى (المنظر الجميل) وهو الفندق الذى لقيه أمام بابه منذ ساعة . فأخذ سمته إلى هذا الفندق ؛ وكان فرانتينج قد أخذ المصعد الصغير ليرقى به الصخور العالية فكان يمشى أمامه . واطّلع هردر من إحدى النوافذ فرأى فرانتينج يدخل بهو الفندق ويجلس فى أحد المقاعد ؛ ثم بدا له فنهض وغاب فى الدهليز . فدخل هردر من الباب فى هيئة المجرم فلم يصادفه بواب ولم يقابله ساكن . حتى إذا بلغ آخر الدهليز وجد نفسه فى حجرة البليارد ، وكان الليل قد أقبل ، وموقد المصطلى تشتعل فيه نار خفيفة ، فلم تستطع أن تكسر من برد الحجرة . ومع ذلك ظلت النافذة مفتوحة جرياً على هوى الانجليز من حبهم الهواء البارد ، وتوخيهم جانب الخشونة من العيش . وكان فرانتينج قاعداً يتأمل وظهره إلى النار ، وبنيقة معطفه إلى فوق ، وسيكارة مطفأة فى زاوية فمه . فلما أبصر هردر رفع ذقنه إليه متحدياً وقال :

— أتتبعنى إلى كل مكان ؟

فأجابه هردر على الفور بلهجته الرقيقة الوديعة :

— نعم . ولقد جئت لأتحدث إليك ؛ ولولا أنك خرجت من الفندق ساعة دخلت لقلت لك مالدى ؛ ولم تكن فى طريقك على حال تسمح لى بمواضعتك الرأى . ولا بد لنا من بعض الحديث ، فإن عندى شؤوناً شتى أريد أن تقف عليها

وكان هردر هادئ النفس والصوت كدأبه ، فتقدم نحو البليارد فصده فرانتينج باشارة من يده ، وقال له فى لهجة يظهر فيها الحنق والفتور والروية :

إستمع إلىّ ! إنك لاتستطيع أن تقول لى مالا أعلمه . وإذا لم يكن من الكلام بد فأنا الذي أتكلم . فإذا فرغت من الكلام وجب عليك أن تخرج :

« إني أعلم أن زوجتى احتجزت محلها على الباخرة (هارويش) الذاهبة إلى كوبنهاجن ، وأنها مشغولة بجواز سفرها ومتاعها ؛ وأعلم كذلك أن لك منافع فى كوبنهاجن ، وأنك ستقضى بها نصف وقتك الثمين . وليس من همى أن أفكر فى الاقتراب منكما

« كل ذلك لا يعنينى ، فإن (إميلى) رأتك كثيراً ، وقد رأتك فى هذين الأسبوعين أكثر . لا تظن أنى أرى فى ذلك بأساً أو مضرة ، فإنى أعلم أن إميلى تشكو جفاء معاملتى وسوء سلوكى . ذلك صحيح ؛ ولكنها مسألة بينها وبينى ، لا تعنيك ولا تعنى أحداً من الناس . فإذا عجز عنها وُسْعُها لجأتْ إلى الطلاق ؛ ونجاحها فى الطلاق أمر مشكوك فيه . ولكن المرء لا يدرى ماذا تسفر عنه هذه القوانين . وعلى أية حال ستظل إميلى زوجتى حتى يقع الطلاق . وستبقى لى عليها واجبات الزوجية ولو كنت شر الأزواج جميعاً

« ذلك رأيى أفصحت عنه . وتلك لعبة طال عليها القدم فأصبحت لا تجوز على أحد

« لقد جاءنى منها كتاب منذ قليل . فهى إذن تعرف أين أنا ؛ وذلك يفسر لى وجودك هنا . فقال له هردر فى لهجته الهادئة : ذلك صحيح

وأخرج فرانتينج من جيبه الداخلى كتاباً ثم نشره وأخذ يقرأ بعض فقراته :

« لقد قطعت العزم على أن أفارقك . وأنا أعلم أنك تعرف الرجل الذي يبذل مايبذل فى مساعدتى . لقد أصبح من المحال أن أعاشرك . إنك عبدتنى وبالغت فى عبادتى كما تزعم ؛ ولكننى ضقت ذرعاً بطريقتك التى تعلن بها حبك إياى . إنها طريقة تذل النفس وترمض الفؤاد . لقد قلت لك ذلك مراراً وأنا أقوله لك الساعة لآخر مرة »

— وعلى هذا النحو من الترثرة والهذر كل الرسالة . ثم مزقها قطعتين رمى إحداهما وبرم الأخرى ، ثم التفت إلى النار فأشعلها وأشعل منها سيكارته وقال :

هاك صنيعي بهذه الرسالة . إنك تساعدها . أليس كذلك ؟ أنا لاأقول إنك تحبها أو إنها تحبك ، فليس من طبعي أن أجازف بالحكم القاسى ، وإنما أسألك إذا كنت لا تحبها فلماذا تجشم نفسك الأهوال فى سبيلها ؟ جُبْ أقطار الأرض واحمل معك المواساة للنسوة اللاتى يزعمن أنهن بائسات ، فذلك لايشغل بالى . وكل ماأبغيه أن تقرّ فى ذهنك أن إميلى لن تفارقنى ، فإن معها المال وليس معى شىء . فأنا أعيش حميلة على مالها كلاًّ عليها ، فإذا تركتنى نزلت بى النازلة التى يرفضُ لها صبر الصبور .

أليست هذه الحجة سديدة للاحتفاظ بها ؟ ولكن صدقنى أو لا تصدقنى ليست هذه هى حجتى . إنها لم تَعْدُ الصواب حين قالت إنى أعبدها ؛ وتلك حجة أخرى للاحتفاظ بها ؛ ولكن ليست هذه الحجة ولا تلك مما يدخل فى منطق . إن الزوجة فى رأيى هى الزوجة . ولا تستطيع هى بهذا الاعتبار أن تخون عهدها بحجة أن طريقها ليست كلها وردا ، وأن حياتها ليست جميعها غبطة . لقد سمعتها تقول إنى فاحش الخلق دنس العرض ، ولكنى لست فى الغاية من الفحش والدنس ، فلا أزال أحترم مايسمونه العلاقة الزوجية

ثم أخرج مسدسه من جيب معطفه وقال : إنك ترى هذا المسدس ، وقد رأيتنى أشتريه ، فلا بأس عليك منه . ليس فى منهجى أن أقتلك . وأعمالك لا تلفت نظرى ولا تشغل بالى . إنما يعنينى ما تعمل زوجتى . فإذا تركتنى واتبعتك أو اتبعت سواك ذهبت وراءها إلى كوبنهاجن ، أو إلى بنجكوك ، أو إلى القطب ، ثم أقتلها بمسدسى هذا .

الآن تستطيع أن تنصرف .

قال ذلك وأعاد المسدس إلى جيبه ، ثم جذب نفساً قوياً من سيكارته وسكت

وتفرس هردر فى وجه صاحبه الكالح الشتيم المنذر ففهم أنه يفعل ما يقول . ومثل هذا الرجل الجرئ القلب لا ينكص عن غاية ولا ينكل عن جريمة . فإذا تركته إميلى فكأنها أمضت قرار موتها بيدها

ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى فإن إميلى قررت السفر ولابد أن تسافر . ومن الشديد على نفس هردر أن يرى هذه المرأة التى وصل الحب بين قلبها وقلبه لا تبرح تعانى ما يسومها زوجها من العذاب والمهانة . فخطا بضع خطوات بجانب البليارد ، فنهض فرانتينج يلقاه ، فأخرج هردر المسدس الذى فى جيبه وسدده إليه ثم أطلقه . فترنح فرانتينج ثم خر صريعاً لديه على مائدة البليارد . ورنّت الطلقة فى أذن هردر رنين الوتر إذا انقطع فجأة ، ورأى ثقباً صغيراً أحمر فى صدغ فرانتينج البرنزى فقال لنفسه : كان لابد من أن يموت أحدهما ؛ والأولى أن يكون الميت فرانتينج لا إميلى . وشعر هردر أنه أتى أمراً مشروعاً ، ولكنه أحس مع ذلك بعض الأسف على الصريع . ثم ما لبث أن أدركه الخوف ... أدركه الخوف على نفسه ، لأنه لا يريد أن يموت ، ولا يحب أن يكون موته على المشنقة . وأدركه الخوف على إميلى ، لأنها ستصبح بعده من غير صديق ولا سند . وشق عليه أن يتصورها وحيدة فى هذا العالم عرضة للتهم الجريئة ، وغرضاً للمطاعن البذيئة ، فرأى أن ينصرف من فوره على عجل . أيخرج من الدهليز المؤدى إلى البهو ؟ كلا . إن ذلك آخر ما يفكر فيه . إن أمامه النافذة ! فنظر هردر إلى الجثة نظرة ، ثم لمح فى الظلام الغاشى سيكارة القتيل تبص على البساط الأخضر فالتقطها وألقاها فى النار . ثم هتك طرفاً من الستار المضروب على النافذة واطّلع فرأى النور فى الفناء أضوأ منه فى الحجرة . ثم لبس قفازه وألقى على الجثة النظرة الأخيرة ، وقفز من النافذة فكان فى الفناء المبلط بالفرميد . والتفت فإذا الستار قد عاد إلى حاله ؛ ونظر حواليه فلم يجد إنساناً يدب ولا نافذة تضىء ، فاتجه نحو باب من الأبواب ودفعه فانفتح مصراعه عن طريق غير نافذ ، فارتد عنه وجال حتى اهتدى بعد لأى إلى ساحة البحرية .

ثم أوحت إليه بديهته عفو الساعة أن يضلل مقتفى أثره ، فقرر أن يعود إلى الفندق من بابه العام ، فدخل الردهة على مهل وجرأة ، فرأى بواباً تلفع بالظلام فخيّاه وسأله عن غرفة خالية . فقال له : ياسيدى ، إن المدير قد سافر إلى لندن ، والوكيلة قد خرجت لبعض شأنها ولا تلبث أن تعود . فهل تتفضل بالجلوس ؟ ثم أنار البواب البهو فدخله هردر مخطوف البصر واستوى على أحد المقاعد ثم قال : هل أستطيع أن أشرب كأساً من الكوكتيل ريثما تجىء ؟ فأجابه البواب : تستطيع ياسيدى ولا شك . وسآتيك به أنا نفسى ، فإن الغلام المنوط بهذه الأمور لا يعمل اليوم . ثم ولى ، وخلا القاتل إلى نفسه فقال وهو يصوب نظره فى الدهليز الطويل : فندق عجيب ! أيستطيع هذا الخادم أن يديره وحده ؟ ولكن لا عجب فنحن فى فصل الكساد . ثم سأل نفسه : ليت شعرى ألم يسمع طلقة المسدس أحد ؟ ثم أخذته رغبة قوية فى الهرب ، ولكنه راجع حلمه واستعاد جأشه . ودخل البواب

بالسكوكتيل فتجرعه هردر ثم نقده فيه ثمانية عشر بنساً وشكره عليه . ثم قال له : أنا ذاهب الآن في بعض أمري وسأعود عما قليل . ثم انصرف وئيد الخطو رابط الجأش حتى غاب في الظلام .

واتكأ لوماكس هردر على حاجز الرصيف وكل ماحوله جماد وصمت ، فلا عين تراه ، ولا أذن تسمعه . ومع ذلك أجال بصره حواليه فلم يجد إلا نجوم الليل تلمع في الفضاء ، وأضواء السفن تسطع على وجه الماء . فأخرج المسدس من جيبه وألقاه في اليم . ثم التفت فرأى من وراء المرفأ الصغير ذلك المدرج العجيب الذي تتألف منه المدينة الزاهرة . وسمع دقات الساعات ترن في قباب العمائر والكنائس .

إنه قاتل ، فلماذا لا ينجو بنفسه من المطاردة ؟ هل كان لقاتل آخر أن يظل على حاله الطبيعية من ثبات القلب وراحة الضمير ؟ لقد كان كل شيء على خير ما يريد أن يكون : لم يره البواب لدى دخوله الفندق أول مرة ، ولم يره عند خروجه منه بعد الجريمة . كذلك لم يترك من ورائه أثراً يدل عليه ، لا في حجرة البليارد ، ولا على متكأ النافذة ، ولا فوق بلاط الفناء . ولكن هناك فرضاً واحداً ، هو أن يكون أحد الناس رآه وهو يتسلق النافذة . ذلك فرض بعيد ، ولكنه على أية حال ممكن . ولم لا يكون بعض من يعرفون فرانتينج قد رآه وهو يسير معه في الطريق فيخبر بذلك الشرطة ؟ كذلك هذا الفرض لا يؤدي إلى نتيجة ؛ فان منظر هردر ليس فيه مايسترعي الملاحظة العرضية إلا جبهته الضخمة وهي مستورة بقبعته . إن القاتل يرتكب في العادة أمراً لا يخلو من إنكار العقل ، ولكن هردر لا يجد فيما ارتكب مخالفة لعقله ولا إساءة إلى ضميره . وكل ماشعر به بعد أن قتل فرانتينج أنه آسف على أن دفعته الظروف إلى هذه الغاية

كان من المقضي على أحدهما أن يموت . فهل يرفض العقل السليم أن يموت رجل غليظ القلب فظ الطباع ، وتحيا امرأة لطيفة الروح رقيقة الشمائل ؟ لقد شغف قلبه الحب الخالص لإميلي ، فهو لا ينكل عن قتل مائة رجل إذا كدروا عليها صفو الحياة . وهو جميل النية فلا يبغي على إخلاصه لها ودفاعه عنها جزاء ولا شكراً . ولماتذكر ماصنع فرانتينج بكتابها حين مزقه وأحرقه وأشمل من ناره سيكارته ، ثار الدم في وجهه من الغضب

ودقت إحدى الساعات دقة الربع فاتجه مسرعاً إلى الرصيف واستقل سيارة إلى المحطة . ووسوس إليه الخوف أن رجال الشرطة يراقبون المسافرين ، ولعلهم يكشفون الجريمة . وخيل إليه أن السائق ينظر إليه نظرات غريبة مريبة ، ولكنه صرف عن نفسه هذه الوساوس وتقدم إلى مراقب التذاكر فأراه تذكرة الاياب ؛ ثم صعد في عربة بولمان وتحرك القطار . فلما بلغ محطة فكتوريا ساوره شيء من الخوف والقلق ، فقد وقع في حسبانه أن البوليس السري ربما تلقى خبر الجريمة عن طريق البرق فهو يترقبه

كان القطار القائم من (فكتوريا ستريت) إلى (هرويش ماريتيم) غاصاً بالناس من كل طبقة ، فعلم هردر من سقاط الأحاديث أن مؤتمراً دولياً سيعقد في كوبنهاجن ، فمن العبث البحث عن إميلي في هرج القطار وفوضى الركب . وظل القاتل في أثناء الساعتين اللتين قضاهما في القطار مثاراً للخواطر السود والوساوس القاتلة . وقد ذكر أنه نسي قطعة من الرسالة على مائدة البليارد فعجب من غفلته

كان رصيف الباخرة في المرفأ يمور بالناس موران البحر في يوم عاصف . وكان هردر من شدة الزحام لا يمشي ، وإنما يسير محمولا مدفوعاً حتى بلغ الباخرة على شيء من هدوء النفس ، لأن زحمة المرفأ على هذا النحو تجعل رقابة البوليس السري مستحيلة

صفرت الباخرة ، وفصلت عن الرصيف ، ومخرت العباب في بحر الشمال ، وغدت انجلترا صفاً من النور

على طول الساحل ، فطفق هردر يبحث عن إميلى في المركب من المقدمة إلى المؤخرة فلم يجدها . فظل نهاره متلدداً يتحسر من الهم ويتضور من القلق . وأخيراً تلاقيا . فقد كانت هى أيضاً تبحث عنه . وكان هذا اللقاء المرجو برداً على فؤاده وسلاماً لنفسه . لقد كان لها كل شئ فى الحياة . فأخذ يدها اليمنى وجعلها فى يديه ، ثم جعل يتأملها في ضوء النجوم وفى نور القمر وفي لألاء المصابيح . وكانت إميلى واحدة النساء فى السذاجة والرزانة والأمانة والعفة ؛ حُسْنها الرائع قَيْدُ النواظر ، ووجهها الحزين السعيد بهجة الخواطر ، وشبابها الغض متعة الأنفس . قصت على هردر مافعلت ، وقص عليها هردر مافعل ، ثم قالت : وبعد ؟ فقال لها : لم أستطع الذهاب إلى هناك ، فقدظننت أن هذا أفضل . وأعتقد أن ذلك لم يكن فيه غناء ولا نفع

لم يكن فى نية هردر أن يكذبها الخبر . ولكن ماذا عسى أن يقول غير ذلك فى مثل هذا الموقف ؟ لقد كذب مرة لئلا يكذب عشرين ، وآثر أن يخدعها بالباطل على أن يفجعها بالحقيقة ؛ فوافقته على قوله ، وشايعته على رأيه ، وقالت وهى تفتر عن ابتسامة ملائكية : الحق معك ، ونِعِمَّا فعلت !

* * *

كان مدير الشرطة ورجل من رجال الخفية واقفين فى حجرة البليارد فى فندق (المنظر الجميل) ، وكانت أضواء المصابيح القوية تنير البساط الأخضر وتسطع على جثة فرانتينج الهامدة ؛ وكانت امرأة من خادمات البيت تنصرف بعد أن سألها رجلا الشرطة ؛ وكان يدخل الحجرة ساعة انصرافها رجل ضخم الجثة ، فحيا الشرطيين وأغلق الباب ثم قال :

أنا نازل على صديق الدكتور فورنيقال ، وقد طلبتموه بالتليفون وهو يعالج حالة من الحالات الدقيقة المخطرة ، فأردت أن أحل محله فيما تريدون . ولعلى رأيتك ياسيدى المأمور فى (اسكتلنديارد) . فقال المأمور : الدكتور أوستن بوند ؟ أهلاً وسهلاً !

وتصافح المأمور والدكتور مصافحة الاحترام والود . وسمع رجل الخفية اسم رجل البوليس السرى الهاوى فارتعد إجلالاً ورهبة ، لأنه يعلم أن عبقريته نادرة فى كشف الجرائم وتحقيق الحوادث ، وقد استفاضت شهرته بعد أن حل رموز « القبعة الصفراء » ، واللعقة الذهبية الخ

قال الدكتور أوستن بوند بعد فحص سريع : أجل . إن المسكين قتل منذ تسعين دقيقة ؛ فمن الذى اكتشفه ؟ — هذه المرأة التى خرجت منذهنيهة . — ومتى كان هذا ؟ — منذ ساعة — هل وجدتم الرصاصة ؟ — ها هى ذى ...

فأخذها الدكتور وفحصها ثم قال : آه ! آه ! إنها ناتئة ... مسطحة .. كالعادة

وقال المأمور للشرطى : ادع من ينقل الجثة فقد فرغ من فحصها الدكتور

وكان الدكتور حينئذ أمام المدفأة فقال : إن القتيل كان يدخن سيكارة . فقال له المأمور : هو أو القاتل ؟ فقال : هل اقتفيتم الأثر ؟ فقال المأمور فى شئ من الزهو : نعم . وطلب من البوليس السرى مصباح الجيب ، ثم دنا من النافذة وأرى الدكتور بصمات الأصابع على الزجاج ، وآثار الأقدام على الحافة ، ومزقاً صغيرة من نسيج غليظ أزرق . فأخرج الدكتور مجهراً جميلا وأخذ يفحص هذه المخلفات بعناية ودقة . وقال المأمور بلهجة التأكيد : إن القاتل لابد أن يكون طويل القامة : يظهر ذلك من زاوية الإطلاق ؛ وقد كان يرتدى حلةً كاملةً فيها فتق صغير ؛ وكانت نعل حذائه الأيسر مثقوبة ، ويده اليسرى ذات ثلاث أصابع . ولا بد أن يكون قد دخل الغرفة من النافذة ثم خرج منها ما دام البواب يؤكد أن أحداً لم يدخل الفندق غير القتيل فى الساعة التى حدث فيها القتل .

ومضى المأمور يثرثر بمثل هذه التفاصيل حتى قال إنه أعطى المختصين صورة القاتل كاملة . فعقب الدكتور على رأيه بقوله : إن من أغرب الأمور أن رجلاً كجون فرانتينج يترك رجلا يقتحم عليه الحجرة من النافذة ، وعلى الأخص إذا كان هذا الرجل رث الثياب . فقال له المأمور : إنك إذاً تعرف القتيل حق المعرفة . فقال الدكتور : كلا . وانما علمت أن اسمه جون فرانتينج ...

أمر المأمور الجندى باستدعاء البواب ، وأخذ الدكتور يفحص الحجرة : يبحث فى كل زاوية ، ويتفرس فى كل شيء ، فوقع بصره على قصاصة ورق فى بعض الحنايا فالتقطها ونظر فيها بعين فارغة ثم ألقاها . وجيء بالبواب فسأله المأمور : كيف تؤكد أن إنساناً لم يدخل هذه الحجرة بعد الظهر ؟ فقال له البواب : لأننى لم أترك مكانى لحظة . وكان البواب كاذباً ، لأن الإدارة آخذته بغيابه البارحة من غير إذن ، فهو يدافع بالكذب عن نفسه

— وهل تستطيع وأنت فى مكانك أن ترى البهو كله ؟ فقال الدكتور بوند : كان يستطيع أن يكون هنا قبلا . فاعترض المأمور قائلا : إن الخادمة جاءت هنا مرتين إحداها قبل أن يجيء فرانتينج ، وكانت النار توشك أن تخبو ؛ فلما عادت بالوقود راعها منظر فرانتينج فانكفأت عنه مولية . فرغب الدكتور أن يكلم هذه المرأة كلتين . فتردد المأمور ، وساءه أن يدخل بوليس هاو فيما لا يعنيه . ولكنه على الرغم من ذلك دعا المرأة . فسألها الدكتور : هل غسلت اليوم هذه النافذة ؟ فأجابته : نعم . فقال أريني يدك اليسرى . فأرته إياها . فسألها فى أى حادث فقدت هاتين الإصبعين ؟ فأجابته فى حادث اصطدام . فأمرها أن تدنو من النافذة وأن تضع كفيها على الزجاج بعد أن تخلع حذاءها الأيسر . فشهقت المرأة بالبكاء . فطمأنها الدكتور وسألها هل فى بعض ثيابها فتوق ؟ فأجابت نعم . ثم انصرفت وفى يدها حذاؤها . وأقبل الدكتور على المأمور يقول له : لقد لاحظت وأنا داخل أن يدها مبتورة الإصبعين . ويحزننى أن يحبط عملك ، ولكنى علمت علم اليقين أن القاتل لم يدخل من النافذة ولم يخرج منها . فسأله المأمور وكيف كان ذلك ؟ فقال إن القاتل لم يغادر الحجرة . فدارت عيون الشرطيين فى الحجرة يبحثان عنه . ولكن الدكتور أشار بيده إلى الجثة وقال : إن القتيل هو القاتل . فقال المأمور وأين أخفى المسدس إذا كان انتحر ؟ فقال الدكتور ذلك ما أبحث عنه . ومن أخطر الأمور أن يلمس أحد جثة المقتول قبل أن يحضر رجال الفن . أنظر إلى جيب المعطف الأيسر ! ألا تراه منتفخاً كأن به شيئاً غير عادى ؟ ابحث فيه . فبحث المأمور فأخرج منه المسدس . فزُهي الدكتور وقال : هذا هو ! ثلاث رصاصات أطلقت . فليت شعرى أين أطلق الأخريين ؟ أين الرصاصة التي وجدناها ؟ أنظر ! إنه أطلق النار فاسترخت ذراعه فسقط المسدس فجأة فى جيبه

فقال المأمور متهكماً : وهل أطلق بيده اليسرى ؟ فقال له ولم لا ؟ لقد ظل فرانتينج اثنتى عشرة سنة وهو بطل انجلترا الهاوى فى الوزن الخفيف . ومرجع فوزه إلى أنه كان يضلل خصمه لأنه أعسر . وقد رأيته يعيني رأسى مراراً وهو يلاكم . قال الدكتور ذلك واتجه إلى المنصة فالتقط قصاصة الورق وقال : إنها كانت ولا بد عند المدفأة ، فلما فتح الباب أطارها الهواء إلى هذا الموضع . إنها شطر من رسالة ، ولا بد أن يكون الشطر الآخر محروقاً فى الموقد . لقد أشعل به سيكارته . أنظر ! إنها ثرثرة المحتضر ... هى هذيانه الأخير ! إقرأ : فقرأ المأمور « ... أكرر أنى على يقين من حبك إياى ، ولكنك قتلت فى قلبى محبتى إياك . وغداً سأترك المنزل ؛ وذلك فراق الأبد » (!)

وبعد أن أثبت الدكتور أوستن بوند بطريقته

من روائع الأدب الواقعي الإسلامي

كيد معاوية

يفسده الحسين بن علي

للأستاذ ذريني خشبه

— ١ —

(في قصر يزيد بن معاوية ليلا)

يزيد — وبعدُ يا رقيق ؟

رقيق — وبعدُ ماذا يا مولاي ؟

يزيد — في أمر أبي معاوية أمير المؤمنين ؟ !

رقيق — أحسن أمر يا مولاي ! أبوك كاتب الرسول ، وأمير المؤمنين ، و ... و ... لا ...

يزيد — و ... لا ... ماذا يا رقيق ؟ أتخفي عليّ شيئاً وأنت وصيفي المخلص ... ؟

رقيق — وقد أخذ لك العهد من بعده ، والسيوف مسلولة على رأس الحسين بن علي وعلى من معه !

يزيد — ما هذا قصدت !

رقيق — فما قصدت ؟ !

يزيد — قد كنت أعرف من جميل رأيه وحسن نظره في جميع الأشياء ، ما الثقة في ذلك ، والتوكل عليه ، مَنْعي من البوح بما جَمْجمت في صدري له وطلابه إليه ، فأضاع وترك من النظر في شأني ... فالله يجزيه عني بإحسانه ، ويغفر له ما اجترح من عهده ونسيانه

رقيق — وماذا لك جُعلت فداك ؟ !

يزيد — ... ؟ ...

رقيق — ألا لا تَلم على تضييعه إياك فانك تعرف تفضيله لك ، وحرصه عليك ، وما يخامره من حبك ، وأن ليس شيء أحب إليه منك لديه ، فاذكر بلاءه واشكر حياءه ، فانك لا تبلغ من شكره إلا بعون من الله !

يزيد — ... هذا حق يا رقيق ... هذا حق ... وا أسفاه على ما فرط مني !

— ٢ —

(في قصر الخلافة)

حاجب — رقيق ، وصيف سيدي يزيد يا مولاي

رقيق — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا رقيق ، ماذا جاء بك ؟

رقيق — رسالة من سيدي يزيد !

معاوية — ماذا قال لك ؟

رقيق — إنه شكا إليّ فقال ، ولم أدر ما عني

الخاصة وأدلته القاطعة أن رجال البوليس السري لا يعلون في الذكاء على الحمير ، ألقى التحية على المأمور ، وأومأ برأسه إلى الشرطي ، وخرج منصوراً فخورا !

* * *

كانت إميلي جالسة صباح ذلك اليوم في ردهة (البلاس أوتيل) في كوبنهاجن حين أقبل عليها لوماكس هردر وفي يده صحيفة إنجليزية ، فقرأ عليها تفاصيل التحقيق وقرار المحكمين بأن فرانتينج قضى منتحراً . فنال من المرأة الشابة هذا الخبر فبكت زوجها أحر بكاء . ونظر إليها هردر نظر الحنان والعطف وقال في نفسه : إن الزمن بلسم الفؤاد الجريح . أما أنا فقد أُكرهت على ما فعلت . وسيكون هذا السر بيني وبين نفسي حتى ألقى الله

« مجلة مرسيليا ٢ فبراير »

الزيات

معاوية — ويحك ! انطلق فادعه إلى ، والله ما أضعنا منه إلا رحمة له وكراهية لما شجاه وخالف هواه

(يخرج وتدخل ميسون زوج معاوية)

ميسون — لأمر ما كان رقيق هنا الساعة ؟ أمن عند يزيد أقبل ؟

معاوية — من عنده أقبل ، ولست أدرى لماذا ؟

ميسون — أيكون به مرض ؟

معاوية — ما به هذا ، ولكنى أعرف ما به ، إنه داؤه القديم عاوده !

ميسون — داؤه القديم ؟ ! وما داؤه القديم يا معاوية ؟

معاوية — أُرَينب ابنة اسحاق !

ميسون — وما فى الدنيا من هى خير من أرينب فتشغله عنها ؟

معاوية — لكنه الحب يا ميسون ! أما والله ما رأيت فى بنات العرب من لها لفتتها وإشراقها وحسن مبسمها وهضيم كشحها وأريج رياها !

ميسون — لكنها تزوجت ، وعليها الآن عبد الله بن سلام [1] عاملك على العراق !

معاوية — يا لك ؟ ! أيضيق بهذا معاوية وما ضاق بابن أبى طالب من قبل ؟ !

ميسون — إذن ! ...

معاوية — إذن ... تسكتى !

— ٣ —

(تخرج ميسون ويدخل يزيد)

يزيد — السلام على أمير المؤمنين

معاوية — وعليك السلام يا يزيد من أب ساءه ما قلت ! ماذا أضعنا من أمرك وتركنا من الحيطة عليك وحسن النظر لك حيث قلت ما قلت لرقيق ؟! قد تعرف رحمتى بك ، ونظرى فى الأشياء التى تصلحك قبل أن تخطر على وهمك . وكنت أظنك على تلك النعماء شاكراً ، فأصبحت بها كافراً ، إذ فرطت من قولك ما ألزمتنى فيه إضاعتى إياك ، وأوجبت على منه بالتقصير ؛ لم يزجرك عن ذلك تخوف سخطى ، ولم يحجزك دون ذكره سالف نعمتى ، ولم يردعك عنه حق أبوتى ! فأى ولد أعق منك وأكيد ، وقد علمت أنى تخطأت الناس كلهم فى تقديمك ، ونزلتهم لتوليتى إياك ، ونصبتك إماماً على أصحاب رسول الله عليه وسلم ، وفيهم من عرفت وحاولت منهم ما علمت ! [1]

يزيد — (وقد أخذته الرجفة ، وأخذ ينفصد من العرق) أبى يا أمير المؤمنين ! لا تلزمنى كفر نعمتك ولا تُنزل بى عقابك ، وقد عرفت نعمة مواصلتك ببرّك ، وخطوتى إلى كل مايسرك فى سرى وجهرى فليكن سخطك ، فإن الذي أرثى من أعباء حمله وثقله ، أكثر مما أرثى لنفسى من أليم مابها وشدته ؛ وسوف أعلمك أمرى ... كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله بقاءه ، نظراً فى خيار الأمور لى ، وحرصاً على سياقها إلىّ ... وأفضل ما عسيت أستعدُّه بعد إسلامى المرأة الصالحة ... وقد كان ما تحدث به من فضل جمال أرينب بنت إسحاق ، وكمال أدبها ما قد سطع وشاع فى الناس ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، والرغبة فى زواجها ، فرجوت ألا تدع حسن النظر لى فى أمرها فتركت ذلك حتى استنكحها زوجها ، فلم يزل ما وقع فى خلدى ينمو ويعظم فى صدرى حتى عيل صبرى ، فبحتُ بسرى . فكان مما ذكرت تقصيرك فى أمرى ، فالله يجزيك أفضل من سؤالى وذكرى !!

معاوية (وقد آله بكاء يزيد) — مهلاً مهلاً يا يزيد

(١) ابن قتيبه ، ولم يذكره الطبرى

(١) يشير معاوية إلى ما صنع مع الحسين فى أخذ العهد ليزيد فقد أوقف فوق رأسه وفوق كل من رؤوس أصحابه رجلين شاكي السلاح بحيث لو احتج أحدهم لقتلاه !

يزيد — علام تأمرنى بالمهل ، وقد انقطع منها الأمل ؟

معاوية — فأين حِجاك ومروءتك وتُقاك ؟!

يزيد — قد يغلب الهوى على الصبر والحجا ، ولو كان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى بتُقاه ، أو يدفع ما أقصده بحجاه ، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام ، وقد خبرك القرآن بأمره

معاوية — فما منعك قبل الفَوْت من ذكر ما بَتَلك ؟

يزيد — ما منعنى ؟ منعنى ما كنت أعرفه وأثق به من جميل نظرك

معاوية — صدقت يايزيد ! ولكن اكتم يابنى أمرك بحلمك ، واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن

— ٤ —

(معاوية وميسون)

معاوية — ألم أقل إنه الهوى وحُرَق الحب ؟

ميسون — أرجو ألا تكون قد لِنت له ولا أن تكون قد قسوت عليه فيجن جنونه فى الحالين !

معاوية — بل أخذته بهما معاً ، وإنى مُزوّجه من أُرينب حتى لا يعاوده هواه فيُفسد عليه أمر الخلافة .

ميسون — تزوجه من أرينب وهى تحت رجل من عمالك يا معاوية ؟

معاوية — ولم لا ؟ أهي أعقد من نصر حصلنا عليه من هزيمة مؤكدة ؟

ميسون — وزوجها ؟ ! إنه يهواها ، ولايزن الدنيا كلها بها ... ثم هى ... إنها تهواه وتخلص له الحب ...

معاوية — سترين يا ميسون كيف أملك من شيطان الهوى ما ملكت من شياطين العرب قبل

(وينادى) يا غلام ! (يدخل غلام حدث)

معاوية — قرطاساً ويراعةً يا غلام !

(يخرج الغلام فيغيب لحظة)

ميسون — هذا أمر له ماوراءه ، وإن ألسنة العرب ما تزال إلباً عليك ، والرأي أن نشغل ابننا برومية أو شآمية تخلبه ...

معاوية — أية رومية وأية شآمية يا ميسون ؟ إنها أُرينب ... وإنه الحب !

(يدخل الغلام بالقرطاس والقلم)

معاوية — (يكتب لحظة) أنقرأين يا ميسون ؟

ميسون — (تقرأ) ... وأى حظ لابن سلام يا ترى فى أن يُقبل ؟

معاوية — ستعرفين فصبراً يا ميسون ؟

— ٥ —

(فى قصر ابن سلام بالعراق)

ابن سلام — يا لها من رؤيا يا أرينب !

أرينب — أية رؤيا يا عبد الله !

ابن سلام — ليل ينجاب ولكن لا يطلع صبحه !

أرينب — أكان فيه قمر يا عبد الله ؟ !

ابن سلام — ولم يكن فيه إلا نجم واحد يلمع ، تُقبل عليه أنجم ضئيلة تدخل وتطلع ...

أرينب — أجل هذه رؤيا ، وإنى صاحبتها ..

(يدخل رسول)

الرسول — السلام على عامل أمير المؤمنين

ابن سلام — وعلى رسول أمير المؤمنين السلام

(ويتسلم الرسالة) (يخرج الرسول)

ابن سلام — (بعد أن يقرأ الرسالة) أرينب ، جعل الله رؤياى حقاً ... خذى فاقرأى

أرينب — بل اقرأ أنت ، فقد أزعجتنى رؤياك

ابن سلام — (يقرأ) أقْبِلْ حين تنظر فى كتابى هـذا ، لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه ، فأغِذّ المسير والاقبال (ينظر إلى أرينب)

أرينب — إى والله ! إنى صاحبة رؤياك ، وإن

الله جاعلها حقاً ...

ابن سلام — ماذا يا أرينب ؟ ! أمير المؤمنين يدعوني لأمرٍ حظي فيه كامل

أرينب — وحظي فيه عاثر يا عبد الله !

ابن سلام — وكيف ؟

أرينب — أما وكيف ... قد ... عساك لم تكن تعلم بما أبدى يزيد من الرغبة في زواجي ، وما كان من تفضيلنا إياك ، لحب تبادلناه وجاهٍ رغبناعنه ...

ابن سلام — أرينب ماهذه الوساوس ؟ اطمئني يامنية القلب . إن أكبر ظني أنها ولاية جديدة أعظم من العراق ... لابد أن أسافر وأن أغذّ المسير كما أمر مولاي أمير المؤمنين ... أرينب (وينهض إلى خزانة من حديد) إليك جل مالي ، وخيرة ما ادخرت للمستقبل (يقدم إليها بدرات)

أرينب — بل دعها حيث كانت يا عبد الله ... واضرع إلى الله أن يرعاك وأن يجنبك كيد ابن أبي سفيان

— ٦ —

(في قصر الخلافة بدمشق)

معاوية — مرحباً بكما يا حبيبيّ ، وصاحبيْ رسول الله ...

أبو هريرة — مرحباً بك يا أمير المؤمنين

أبو الدرداء — مرحباً بك يا صفيّ رسول الله وكاتبه الأمين !

معاوية — أما والله لقد دعوتكما لتمحضانيَ النصيحة ، وإني لأعلم أنكما من أحب الناس إلى رسول الله

أبو هريرة — صلى الله عليه وسلم يا أمير المؤمنين

معاوية — إن الله قسم بين عباده قِسَماً ، ووهبهم نعما ، أوجب عليهم شكرها ، وحتم عليهم حفظها ، وأمرهم برعاية حقها ... وقد حباني عزّ وجل بأعز الشرف ، وسمو السلف ، وأفضل الذكر وأغدق اليسر ، وأوسع عليّ في رزقه ، وجعلني راعيَ خلقه ، وأمينه في بلاده ، والحاكم في أمر عباده ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ... وأول ما ينبغي للمرء أن يتفقده ، وينظر فيه فيمن استرعاه الله أمره من أهله ، ومن لا غنى به عنه ... وقد بلغت لي ابنة أردت إنكاحها ، والنظر في تبعّل من يريد أن يباعلها ... وقد رضيت لها عبد الله بن سلام ، لدينه وفضله ، ومروءته وأدبه ... فماذا تقولان أثابكما الله ؟

أبو الدرداء — إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيها ، فيما خصه به منها ، أنت يا صاحب رسول الله وكاتبه

أبو هريرة — وإن عبد الله بن سلام خير من يصهر إلى أمير المؤمنين

معاوية — إذن ، فاذكرا له ذلك عني ... وقد كنت جعلت لها في نفسها شورى غير أني أرجو أنها لا تخرج عن رأيي إن شاء الله

— ٧ —

(معاوية في مخدع ابنته)

معاوية — أيْ بُنيّة !

عاتكة — أبي أمير المؤمنين !

معاوية — جئتك في تدبير فلا تفسديه ، وإنك لأنت الأديبة الأريبة !

عاتكة — لك أن تأمر يا أبي

معاوية — سيطرق بابك صاحبا رسول الله أبو هريرة وأبو الدرداء ، فإذا عرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وإنكاحي إياك منه ، ودَعواكِ إلى مباعلته ، وحضاك على ملاءمة رأيي ، والمسارعة إلى هواي ، فقولي لهما : عبد الله كفء كريم وقريب حميم ، غير أن تحته أرينب ابنة إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذبني عليه ، فأفارق الرجاء وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلةٍ حتى يفارقها

(يطرق الباب رسول)

الرسول — مولاى أمير المؤمنين ، لقد وصل عبد الله بن سلام من العراق

معاوية — لينزل على الرحب والسعة فى أحد منازل الخلافة ، وليكرم الجميع عنى مثواه

— ٨ —

(فى منزل ضيافة عبد الله)

أبو الدرداء — أبشر ياعبد الله ! أمير المؤمنين يؤثرك على العالمين !

ابن سلام — وما ذاك جعلت فداك !

أبو هريرة — لقد تخير لعاتكة بعلاً فاختارك لها ، فيا للبشرى !

ابن سلام — أمير المؤمنين يمنحنى هذا الشرف؟

أبو الدرداء — ولهذا أرسل إليك !

أبو هريرة — وهو يحبك حبه يزيد ... أو يزيد !

ابن سلام — أما والله لقد والى علىّ نعَمَه ، وأسدى ، وأسدى على من مننه ... ثم هو يريد إخلاطى بنفسه ، وإلحاقى بأهله ، إتماماً لنعمته ، وإكمالاً لإحسانه ، فالله أستعين على شكره ، وبه أعوذ من كيده ومكره ! اذهبا يا صاحبىْ رسول الله فاخطباها إليه علىّ ، وبالله توفيق

— ٩ —

(فى منزل الخلافة)

أبو الدرداء — السلام عليك يا أمير المؤمنين

معاوية — وعليكما السلام ياصاحبى رسول الله ما وراءكما من عند عبد الله ؟ !

أبو هريرة — لقد أبدى من الجذل ما ألهج لسانه بشكرك والثناء عليك ، وقد جئنا خاطبين عاتكة عليه !

معاوية — يا لله ! لقد كنت أخبرتكما بالذى جعلت لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها واعرضا عليها الذي رأيت لها ، تم الله لها بخير !

— ١٠ —

(فى منزل ضيافة عبد الله)

أبو الدرداء — ويحك ياعبد الله ! إن عاتكة تغار ممن تحتك !

ابن سلام — عاتكة بنت أمير المؤمنين تغار من أرينب ابنة إسحاق ؟ !

أبو هريرة — هو ذاك ... ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم !

ابن سلام — وماذا تشترط عاتكة ؟

أبو الدرداء — أن تطلق صاحبتك فيعوضك الله وأمير المؤمنين خيراً منها !

ابن سلام — إذن أشهدكما على طلاق أرينب ، فانطلقا إلى أمير المؤمنين فاخطبا إليه عاتكة !

— ١١ —

(فى منزل الخلافة)

معاوية — ما وراءكما يا صاحبَىْ رسول الله ؟

أبو الدرداء — طلّق عبد الله امرأته ونحن عليه شاهدان !

معاوية — ولِمَهْ ؟ !

أبو هريرة — أبت عاتكة إلا أن يفعل ذلك إذا أرادها زوجة له . وأرى أنها كانت تحسبه لا يطيق فراق أرينب فاشترطت ذلك للتخلص منه ، لكنه فعل ، ونحن خاطباها إليك عليه إن شاء الله !

معاوية — ولِمَ لم أعلم بهذه الخطوة قبل أن تذهبا إليه وقبل أن يقع ما وقع ؟

أبو الدرداء — تالله لقد حسبنا أن هذا يسرك ، فأما وأنت عن هذا غير راض فليت ما كان لم يكن

معاوية — تالله ما أستحسن له طلاق امرأته ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فان كون ما هو كائن لا بد منه ولا محيص عنه ، ولاخيرة للعباد فيه ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله لابد جار ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا !

(يسلمان وينصرفان)

— ١٢ —

(فى مخدع عاتكة)

معاوية — الآن يا ابنتى أوشك أن ينتهى دورك، فإذا جاءك صاحبا رسول الله يعرضان خطبة عبد الله عليك، فلا تنسى أنه ليس لك بأهل ، فامدحيه لهما وردّيهما

عاتكة — رحم الله ابن الخطاب يا أبتاه !

معاوية — وما ذاك يا بُنيّة ! ؟

عاتكة — إذ قال لقوم من المسلمين معجبين بدهاء كسرى وحسن سياسته : « لا تذكروا كسرى وفيكم معاوية[1] »

معاوية (متضاحكا) — والله ياعاتكة لقد أنسيته !!

— ١٣ —

(فى مخدع عاتكة)

أبو هريرة — لقد رضيك عبد الله يا بنت أمير المؤمنين وطلق ابنة إسحاق !

عاتكة — علمت من قبل ، وليته ما فعل !

أبو الدرداء — ولم يا عاتكة !

عاتكة — ذلك أنى كنت أرجو أن أكون له لما سمعت من حسن أحدوثة الناس عنه ، وعلو قدره فى قريش ، وجميل بلائه فى الاسلام ؛ بيد أنى حينما استبرأت أمره ، وسألت عنه ، وجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى ، مع اختلاف من استشرته فيه ... ألا وقد نزل الرجل من اعتبارى حين رأيته ينزل بهذه السهولة عن أربنب التى هى خير منى ، وأوفر جمالاً ومحبة ، بعد طول العشرة ، وصفو المودة ... أما والله إنه ما يستأهل منها ظفراً ولا قلامته ! وتالله إنه ما تهالك علىّ إلا وله مآرب عند أبى ، وفى نفسه أطماع من زخارف الحياة. فاذهبا مأجورين أثابكما الله !

— ١٤ —

(عراقيون وشاميون يتسامرون)

عراقى — أرأيت يا أخا العرب كيف خدع صاحبكم عبد الله ؟

شآمى — ومنذ الذى نجا من كيد ابن أبى سفيان ؟ ألم يخدع ابن العاص وهو ثعلبة العرب !

عراقى آخر — وَىْ ! خدعه ابن أبى سفيان حتى طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، فبئس ما استرعاه الله أمر عباده ، ومكنه فى بلاده ، وأشركه فى سلطانه

شآمى ثان — المغفل عبد الله يا صاح ! كيف نزل عن صاحبته قبل أن يتمكن من عاتكة ؟

عراقى ثالث — لقد دعاه معاوية من العراق لهذا الأمر

عراقى رابع — فانظر كيف خدعه !

عراقى خامس — وما صنع عبد الله يا صاح ؟ !

شآمى ثالث — حبسه أمير المؤمنين فى جنة ما كان يحلم بها !

شآمى رابع — بل هو فى لوعة وشجن ! لقد والله براه الحزن ، وأوهاه الكمد ، ولقد رأيته فما عرفته لولا أن دلنى عليه ماضيه الذى يترقرق دموعاً من عينيه ، ويصعّد آهاتٍ من صدره ! وبلغنى أنه أذهب ما كان معه من المال فى الهدايا والرشا ليخلص مما هو فيه ، ولينطلق إلى العراق ، وهو ما يستطيع !

— ١٥ —

(فى حضرة معاوية)

معاوية — ماذا يقول الناس يا أبا الدرداء ؟ أتشهد علىّ أننى خدعت ابن سلام ، وإنما والله أنا الذى لعاتكة خطبته ؟ !

أبو الدرداء — والله ما شهدت بهذا أبداً ... فأنا أعرف من هذا الأمر ما لم يعرفه غيرى وغير أبى هريرة !

معاوية — إذن ، فلم لا تتكلمان فى الناس بهذا ؟

أبو الدرداء — وما يهمك من الناس يا أمير المؤمنين ما دمت براء مما يهرفون ؟ !

(١) الطبرى ج ٦

معاوية — تالله إن فى نفسى لشيئاً يا صاحب رسول الله ! أو لم تَنْتَه أقراء[1] بنت اسحاق ، فتذهب أنت إلى العراق لتخطبها على ولدى يزيد ؟ !

أبو الدرداء — نِعِم ونِعما يا أمير المؤمنين ! والله إنه لرأى ! وإنك لتعوّض أرينب كفءاً بكفء

معاوية — إذن فاذهب ، وافرش لها الطريق من العراق إلى الشام ذهباً !

— ١٦ —

« فى منزل الحسين بالعراق »

أبو الدرداء — السلام عليك يا ابن بنت رسول الله يا سيد شباب أهل الجنة !

الحسين — مرحباً مرحباً بك يا أبا الدرداء يا صاحب رسول الله وجليسه ! والله يا أبا الدرداء لقد أحدثت لى رؤيتك شوقاً إلى رسول الله ، وأوقدت مطلق أحزاني عليه ، فانى ما رأيت منذ فارقته أحداً كان له جليساً وإليه حبيباً إلا هملت عيناى وأحرقت كبدى أسى عليه وصبابة إليه ! (ويبكي أحر البكاء)

أبو الدرداء — (وهو يبكى مستخرطاً فى البكاء) جزى الله لُبانة أقْدَمَتْنا عليك وجَمَعَتنا بك خيراً يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — والله إنى لذو حرص عليك ، ولقد كنت بالاشتياق إليك !

أبو الدرداء — أرسلنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب ابنة إسحاق ، فرأيت ألا أبدأ بشيء قبل إحداث العهد بك ، والتسليم عليك ، لأنك الآن سيد أهل العراق

الحسين — والله يا أبا الدرداء لقد هالنى ما نال ابنة إسحاق فَرَقٌ لها قلبى ، وأردت نكاحها لأخفف عنها ، لكنى قلت : أرسل لأبى الدرداء حبيب جدى رسول الله أستشيره . وها قد أتى الله بك ، وهى صدفة خير من ميعاد . فهلم رحمك الله فاخطب علىّ وعليه ، ولتختر هى من اختاره الله لها ، وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه

أبو الدرداء — أفعل إن شاء الله يا ابن بنت رسول الله !

— ١٧ —

(فى منزل عبد الله بن سلام)

أبو الدرداء — والله يا أرينب لقد جزعنا لك ، وأهمنا أمرك ، وها قد عوّضك الله خيراً من صاحبك . يزيد بن معاوية أمير المؤمنين وخليفته من بعده ... أو ... الحسين بن على ابن بنت رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة .. وقد بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطباً عليهما ، فاختارى أيهما شئت ، وقد وكلانى !

أرينب — (بعد صمت طويل) : يا أبا الدرداء ! لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى ، لأشخصت فيه الرسل إليك ، واتبعت فيه رأيك ، ولم أقطعه دونك ، على بعد مكانك ، ونأى دارك ، فأما إذا كنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله إليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، والله شهيد عليك ، واقض فيه قضاء ذى التحرى المتقى ، ولا يصدّنك عن ذلك اتباع هوى ، فليس أمرهما عليك خفيًّا ، وما أنت عما طوقتك عميًا ... أما ابن سلام ! فوا أسفاه مع ما فرط منه عليه !!

أبو الدرداء — أيتها المرأة ! إنما علىّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك !

أرينب — عفا الله عنك يا أبا الدرداء ! إنما أنا بنت أخيك ، ومن لا غنى بها عنك ، ووالله لأقطع

(١) الأقراء جمع قرء بفتح القاف عدة مرات الحيض ويقصد بها هنا عدة مرات الحيض المشروعة بعد الطلاق لتحل المرأة لغير مطلقها واختلفوا فى اللفظ ، وبعضهم يجمعه على قروء بالضم ، والعلماء على أن قروء جمع قرء للطهارة

فى هذا الأمر إلا بما تشير به علىّ ، ولا أصدر فيه إلا عن رأيك !

أبو الدرداء — أىْ بُنيّة ! ابن بنت رسول الله أحبهما إلىّ ، وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما لك ! وقد كنت أرى رسول الله يضع شفتيه على شفتىْ الحسين يقبلهما ، فضمى شفتيك حيث وضع شفتيه رسول الله !

أرينب — قد اخترته إذن ورضيته ، وأنعم بابن بنت رسول الله وحبيب رسول الله !

— ١٨ —

(فى منزل الحسين بالعراق)

الحسين — انظر يا غلام من الطارق !

الغلام (بعد برهة) — رجل أغبر أشعث يا مولاى ، يبدو أنه يطلب سؤلا !

الحسين — ولم لا تعطيه يا غلام ؟

الغلام — خشيت يامولاى ، لأنه يلح فى لقائك

الحسين — وماذا يحبسنا عن الناس؟ أدعه فليدخل

(يدخل الرجل) من ؟! مرحباً مرحباً يا أخى عبد الله !

عبد الله (والعبرات تترقرق فى عينيه) السلام عليك يا ابن بنت رسول الله !

الحسين — وعليك سلام الله يا ابن سلام ! أمحزون أنت ؟

ابن سلام — إى والله ! ولكنى جئتك فى مسألة حبذا لو قضيتها لى ... لقد أصفرت [1] بعد هذه النكبة التى اجتاحت يدى وقلبى معاً ، وقد كنت استودعت أرينب بدرات من الدر والجوهر هى جل مالى ، فلو كلمتها فيها لترد علىّ شيئاً منها أستعين به على حالى ...

الحسين — حباً وكرامة يا ابن سلام ، فانتظر

(يخرج الحسين فيغيب لحظة ثم يدخل) هل من حرج فى أن تقدمها إليك أرينب بيدها يا ابن سلام ؟

ابن سلام — هذا تفضل يا ابن بنت رسول الله !

الحسين (ينادى) — هلمى يا أرينب

(تدخل مسربلة فى سواد)

أرينب — السلام عليك يا عبد الله ! هاك بدراتك ، والله ما امتدت إليها يد ، وما عرفت ما بداخلها إلا منك !

ابن سلام — شكراً لك يا ابنة إسحاق (يحل رباط واحدة ويقدم لها ما فيها) لشد ما يسعدنى أن تقبلى هذه منى ! (ويبكى بكاء شديداً)

أرينب — لا والله ما أمد إليها يدى ، وإنى لفى سعة من فضل الحسين !

الحسين — يا ابن سلام ! أيسرك أن تكون أرينب لك ؟

ابن سلام — حسين ؟ ماذا تقول ؟ !

(تتحدر دموعه على خديه)

الحسين — وأنت يا أرينب ! والله ما صنعت الذى صنعت إلا لأحتفظ بك لرجلك ، لأنى عرفت أنها خدعة من معاوية ، فقلت أفسدها عليه !

ابن سلام — (يأخذ يد الحسين فيقبلها ، وكذلك تفعل أرينب)

الحسين — بارك الله لكما ... يا أرينب ! أنت طالق ... وأنا الذى سوف أعقد لكما ...

ابن سلام — إذن ليُرَدّ إلى ابن بنت رسول ما دفعه من مهر أرينب

الحسين — ولا ذاك يا ابن سلام ، بل هو هدية خالصة منى لها ولك ...

— ١٩ —

(فى منزل الخلافة بدمشق)

معاوية — والله يا ميسون لقد كنت أشد بأساً من أبى الدرداء إذ أرسلته فى مثل هذا الأمر !

ميسون — الحمد لله الذى أفسد عليك ما حاولت ! قلت لك نشغله برومية أو شآمية فما رضيت !

(١) أصفر : افتقر

جنون لحظة

ترجمها عن الانكليزية

الأستاذ عبد اللطيف النشار

لم تَعفُ « مابيل دروهام » فى لحظة من اللحظات عن « جيم بنيت » لأنه تركها وتزوج من « فيث »

وقد كانت « مابيل » تحب « جيم » فى عهدٍ ما وهو العهد الوحيد الذى عرفت فيه معنى الحب . وكان « جيم » قوى الجسم ذا بسطة فيه تتبين المرأة فى مخايله كل معانى الرجولة

وبعد فترة من تعارفهما تزوجت « مابيل » من تاجر اسمه « مارتين سميث » فى الستين من العمر ، وتزوج جيم من « فيث وستون »

وبعد عهد قصير مات المستر سميث وقررت مابيل أن تذهب إلى مدينة « بنتود » وتقيم مع أبويها ؛ ولم يكن يبدو على وجهها فى هذا الدور شئ من الحزن الذى يبدو عادة على وجوه الأرامل . واعتادت وهى فى بيت أبيها أن تجلس أمام النافذة وتطل منها

ورأت « جيم » قبل أن يراها . ولما رآها تردد لحظة ثم تعارفا فمد إليها يده مصافحاً ، وكان قد عفا عنها لأنه كان قد وجد عوضاً عنها فى زوجته . فردت تحيته بقولها : « لقد مضى وقت طويل على لقائنا للمرة الأخيرة ، فإنى لم أرك منذ تزوجت من فيث وستون » ثم ابتسمت وقالت : « هل تذكر تلك الأيام التى كنت أنتظر فيها عودتك بالقرب من باب المحطة ؟ »

وكان صوتها فى خطابه صوت الود ونظراتها إليه كأنها نوع من المداعبة . أما نظراته إليها فكانت تخلوها من المعنى كأنها نظرات الأطفال . وقد أدركت ذلك وأصرت على أن تعاقبه على هذه الجفوة فتريه أنها وقد مضى عهدها معه لا تزال تستطيع أن تؤثر فى قلبه أكثر من « فيث » على الرغم من رابطة الزوجية ومن علاقة الأبناء . ولذلك شفعت نظرتها الأولى بنظرة تستثير كامن الحب من كل القلوب ، وسايرته قليلاً ثم ودعته دون أن تأخذ موعداً منه

ولما ذهب « جيم » إلى منزله كانت « فيث » قد أنامت رضيعيها التوأمين بعد أن خرجت بهما من الحمام . ولم يكن فى نساء الحى سيدة أكثر عناية بمنزلها من « فيث » فكان الكل يدعون منزلها بالمنزل الأنيق . وكانت تنتهى من خدمة المنزل كل يوم قبل مجئ زوجها لتتفرغ إليه . وعند عودته فى هذا اليوم ، تلقته بما اعتادت أن تتلقاه به من البشاشة والود ، وجلسا إلى العشاء . وفى أثنائه قال جيم عرضاً إنه قابل اليوم « مابيل سميث » فانصرفت عينا « فيث » إلى المرآة وقالت ببطء : « إن ، مابيل جميلة ، يا جيم »

نظر جيم إلى زوجته وقال : أتظنين ذلك ؟ إنني لا أعجب بهذا الطراز »

قالت وقد أرادت مشاغبته : « أتقول ذلك الآن ؟ لقد كنت شديد التعلق بها يا جيم »

فكان جوابه أن وضع ذراعه حول عنقها وقال : « كان ذلك فى عهد الصغر والحماقة قبل أن أعرفك وأعرف بك كيف يكون الحب »

فالتفتت إليه فجأة وقبلت فمه

* * *

وبعد يوم أو يومين ذهبت مابيل لتزور « فيث » ورأت توأميها فقالت : « ما أبدع هذين التوأمين ! »

لكن لهجتها لم تكن دالة على الإخلاص . وجرى الحديث متنوع الضروب . وعند انصرافها قالت : « إنني لم آت إلا لأرى طفليك ، ولكني تذكرت الآن أن فى فندق المدينة حفلة راقصة ، فهل تأتين مع « جيم » لنتعشى هناك ونحضر هذه الحفلة ؟ »

قالت فيث : « أشكر لك هذه الرقة ، ولكني لا أستطيع أن أترك الطفلين خصوصاً وإن أمى متغيبة عن المدينة . ولكنى أثق بأن « جيم » يسر من حضور هذه الحفلة »

وعاد « جيم » فأخبرته زوجته بهذه الزيارة ولم تعترض على ذهابه وحده إلى الحفلة . فكانت نجوى « جيم » بينه وبين نفسه أن زوجته لا بد أن تكون بلهاء إذ سمحت له بالذهاب وحده مع جميلة مثل « مابيل » ، أم لعل حبها قليل عكس ما يبدو عليها من مظاهر الحب فهى لذلك قليلة الغيرة

وتشبث هذا الخاطر بذهنه ونما فمكر مزاجه . وكأن كل من ينتظر الحب لابد أن ينتظر معه الغيرة. فذهب « جيم » إلى الحفلة وهو مغتم ، ولأجل تفريج غمه أطال السهرة مع « مابيل » وأكثر من التودد إليها رغبة فى التسلية ...

وعاد إلى منزله فى ساعة متأخرة فلم تبد زوجته أقل اعتراض

وبعد ذلك مرض التوأمان فاشتدت عناية الأم بهما واشتغلت عن الالتفات إلى حضور زوجها وانصرافه . واستمر هو يقابل خليلته كل ليلة . وكان فى كل يوم يزداد تأثراً من زوجته لانصرافها عنه ، ولعدم محاسبتها إياه على موعد حضوره .

وفى إحدى الليالى كان « جيم » جالساً بغرفة فى الفندق مع « مابيل » فسألته تلك : « أخبرني هل زوجتك عمياء ؟ لماذا تتركك وحدك كل ليلة ؟ » فقال وهو يظن زوجته تنظر إليه وتسمعه فى هذه اللحظات من وراء ستار : « الحق أننى أعجب من ذلك يا مابيل . وقد بدأت أشك فى حبها » فطوقت مابيل عنقه بذراعيها وهمت أن تقبله لولا أن دخلت « فيث » فى هذه اللحظة فنظرت نظرة حادة إلى وجه زوجها ثم إلى وجه مابيل

وخارت قوى الأخيرة فلم تملك غير أذراف الدموع وخرجت متسللة إلى الطريق ، وهى تقول

فى نفسها : « إن هـذه اللحظة هى التى انتصرت فيها علىّ « فيث » ولـكنها مع شعورها بالانتصار قد شعرت بالذل أيضاً

وجلس الزوج وجلست الزوجة وظل كلاهما صامتاً . وأخيراً تمالك « جيم » قواه وقال بلهجة البائس : « ماذا تريدينى أن أقول يا فيث ؟ » فقالت: « وهل هناك شىء يقال ؟ »

قال : « نعم » ثم ارتمى عنـد قدميها وقال : « لماذا تتركينى إلى مثل هذه المرأة دون أن تشعرى بشىء من الغيرة ؟ » فقالت : « وهل عدم التكلم يدل على عدم المبالاة ؟ لقد كادت الغيرة أن تمزقنى ، ولـكن العزة كانت تمنعنى عن الـكلام . ولقد كدت أجن كلمـا ذكرت أنك تنتظر غيرتى ، ولا يخطر ببالك أن تراعى عزتى

فنهض « جيم » لما سمع اعترافها بالغيرة وقبلها وقال : « اغفرى لى لحظة جنون . وثق بأنى لم أنسك فى وقت من الأوقات . فقالت : « لقد غفرت لك هذه وطويت الماضى كله . وإذا كنا قبل الآن زوجين متحابين ، فسوف نكون بعد اليوم أكثر تبادلاً للحب . وثق أن الغيرة كامنة وراء الحب ولن تستطيع إظهارها من دون أن تجرح الـكرامة »

عبد اللطيف النشار

شركة مصر لنسـج الحـرير

تزود بمنسوجاتها الجميـلة

وألوانهـا المفرحة البهيجة

وأثمانها المعتـدلة الرخيصة

الوجيـه الـكبير . والموظف البسيط . والعامل الصغير

وهى فى متنـاول الجميع

الموعظة الأخيرة

لإدوار كاترمير

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

من لم يعرف الأب أرمان جيميه ، واعظ كنيسة شاريتيه بشارع بواساك ، بحي بيراش ، أغنى أحياء ليون وأجملها وأهدئها لم يعرف أعظم وعاظها وأبلغهم ، وأنفذهم إلى أعماق النفوس ... كانت خطبه المنبرية تفوق العد والحصر ، منوعة ، لم يطرق أثناء حياته الدينية موضوعاً واحداً مرتين ، لأن حياة الروح لديه أغنى من أية حياة سواها ، فابتلعت عالم المادة وهضمته ، واحتوت الكون وطوت الدنيا طي السجل للكتاب ، ثم أخذت تجلو الحقائق بعقل جبار ومعان خلابة ، وجمل محبوكة ، وألفاظ براقة ؛ فيسحر أنفس مستمعيه ، ويستميل قلوبهم بعد أن يسكرهم برحيق وعظه ، فيستل من حنايا ضلوعهم عوامل الشر الكامنة ، كما تستل العجوز الخبيرة الشعرة السوداء من العجين الأبيض ...

كان خطيب الكنيسة ، قصيراً لا هزيلاً ولا بديناً ، أصفر اللون من طول ما احترق دمه بالتفكير والعبادة ، دميم الوجه في تقاطيعه ، خفيف الظل في مجموعه خفة ظاهرة الأثر في طاعة أتباعه ومريديه من كل طبقة في المجتمع . كان يشوى الأغنياء شيًّا على السفود ويفرى جلودهم ويؤنبهم لجشعهم وأثرتهم وطمعهم فيما ليس لهم على قلته ، وعدم قناعتهم بما بين أيديهم على كثرته . ولكنهم كانوا يحبونه ويوقرونه لا خوفاً ولا رهبة ، ولكن لخفة ظله وحسن تعبيره . ثم ينحى على العشاق باللائمة ، فيرسم لهم عاطفة الغرام في صورة الأفاعي اللاذعة ، ويبغض إليهم الغزل والرقص والخلوة والمعاقرة ، وينذرهم بعذاب النار الذي أصاب ياولو وفرنشيسكا ؛ ولكنهم كانوا يؤلهونه ، ويهمسون فيما بينهم أن جهله بالغرام ، وحرمانه ملذات العشق المحرم أو المحلل يوحيان إليه تلك الحملات المنكرة على رعايا الزهرة وأهداف كوبيد ! ! فياله من تعليل ! !

تعريف بالقصة

في الأدب العالمي سوابق نادرة : « تاييس » لأناطول فرانس ، و « الأب سرج » لتولستوى و « مطر » لسومرست موغام . وفي كل واحدة منها يحاول البطل اصلاح امرأة مذنبة فتسحبه إلى الهاوية وقد تنجو هي فتصير قديسة أو تفوز بعمرها . وفي هذه القصة الصغيرة يصف المؤلف بيئة معينة ويضرب على نغمة جديدة ، وهي حيرة المصلح حيال فساد المجتمع . وتغلب الرذيلة أحياناً على الخير ولو في ظاهر الأمور . وفي الأدب العربي الصوفي قصة ذي النون المصري ورابعة العدوية ولكنها مبهمة ، ولم توحد حوادثها في نسق واحد ، وقد رووا أنه جذبها في مصر والتقى بها في مكة فلم يعرفها لشدة ما غمرها من حالة الرضى . ولا عجب إذا تشابه الموضوع فان النفس الانسانية واحدة في كل العصور والأمكنة ، وكما قيل إن تاييس علم على محظية عاشت فعلا في مصر ، فان للسيدة العدوية أشعاراً كثيرة في تمجيد الاله تجمع بينها وبين القديسة تعبيرا في التفاني والمحبة البالغة ...

وحتى الفقراء والأجراء والموزين من الطبقات النازلة ، لم ينجوا من سهامه الصائبة . فها هم فريق الناقمين الساخطين الصاخبين الذين يعترضون ويتعرضون ، ويغضبون كالأطفال على ما قسمته العناية لهم ، أتراهم يحاربون الأقدار ، أو يثورون على القوة الخالقة ؟ أواثقون أنتم بسعادة المحسودين حتى تنسوا عاطفة الرضى وفضيلة القناعة ؟ ليس فى الامكان أبدع مما كان ! أيها الثائرون النوكى ، ولو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع . إن الأغنياء يسرفون على أنفسهم فى شهواتهم ، ويبذرون أموالهم فى مغريات النفوس من طعام وشراب وقمار ، وإن « محدثى النعم »[1] (نوفوريش) ليشعرون بالأسف على أيام فقرهم ، فمتى تهيأ الفرصة لأنسال آدم أن يستلوا من نفوسهم الطمع وحب الذات ليعيشوا كما عاش أجدادهم فى عصر الذهب ، عصر الرخاء والقناعة والحب المطلق ؟ . وكانت جريدة « نوفيل دى رون » لسان حال الفاتيكان ، تنشر خطب الأب جيميه وتذيعها فى أنحاء الولاية الوسطى[2] فترد عليها « ليون ريبيلكان » صدى صوت الأحرار والمتطرفين والاشتراكيين والملاحدة ، ويشير رئيس تحريرها موسيو توزيه من طرف خفى إلى « نفاق الاكليروس » وتدخلهم فيما لا يعنيهم ، وسخطهم على سائر الطبقات والمعتقدات ، حتى لا يرضيهم إلا « الكثلكة المنمنمة » التى تريد أن تحكم العالم ومن ورائها « السلطة الرمادية » المبهمة ... ويقرأ الأب جيميه أقوال خصومه ، ويلقى عليها نظرة سخرية ويبتسم ...

وكانت مدينة ليون تزخر بمئات الألوف من الرجال والنساء ، فى مقتبل العمر ، وفى ريعان الجمال ، وتموج بألوان الهوى والفتون .. وقد اشتهرت فتياتها برشاقة القدود وجاذبية الروح ، ووحى العيون . وكانت كنيسة « لاشاريتيه » مفتوحة الأبواب ، مطروقة من كل قاصد وقاصدة ، مُعَدة الهياكل والأعراف لكل عابد وعابدة ... وقد وقع اختيار الأسقف كايير دى لوزانج (وهو أحد النبلاء الذين فضلوا مسوح الرهبان على معاطف الأغنياء من أجداده) على الأب جيميه ليتلقى اعتراف المذنبين والمذنبات ، ولاسيما العذارى اللواتى رزقن بثمرات العشق المحرم ، وألقت بهم أيدى الأقدار على سُرر مستشفى لاشاريتيه الملحق بالكنيسة ، وكبار الجناة من طبقة المتمولين الذى زوروا ودلسوا واحتالوا واختلسوا وسلبوا أموالاً لا طاقة لهم بادخارها ، أواعتدوا على أعراض لاذنب لذويها إلا ما حَبَتْهم به الطبيعة من جمال وفتنة ، وما سلبتهم إياه من قوة لدفع الأذى عن كنوز المحاسن وودائع الفضيلة ، فسلحتهم بالمفاتن ونزعت منهم قدرة المقاومة

وكان الأب جيميه يعانى الأمرين من عيشة الجفاف فى صومعته ، ولكنه مدرع النفس بالجلال والكمال واحتقار الدنيا وشهواتها ، وقد أنضجت قلبه تجارب الحياة التى رأى أثرها فى آلام الآخرين وهمومهم ..

وأحرقت نزوات نفسه نار العبادة الدائمة ، فغدا يسير بين الخلوة والمعبد ، والملجأ والسجن والمستشفى ،

(١) هؤلاء النوفوريش نشأوا بعد الحرب وكونوا الثروات الطائلة وهم مضرب الأمثال فى اليسر وسوء الخلق واسمهم واحد فى كل اللغات

(٢) مقاطعة الرون عاصمتها ليون الشهيرة بغناها وجمالها وسلطة الكهنوت ومعامل الحرير

وله تنهدات تشق الصخر ، ولا يسمع لها صوت ، وبكاء بدموع حارة بغير نشيج ، وقد آلى على نفسه ألا يفتح قلبه للفهم بالحسرات والفجائع والآلام ، إلا لمعبوده وربه ، فيشعر وهو يسمع الاعتراف تلوَ الاعتراف ، كأنه مسؤول بذاته عن ذنوب الناس جميعاً ، لأنه أمسى وسيلتهم الوحيدة للغفران ...

كان الأب جيميه فى نهاية العقد الرابع ، وما عرف النساء قط ، ولعله لا يذكر أمَّه التى ولدته ، فقد انتزع منها انتزاعاً ، ليتلقى دروس البلاغة واللاهوت ، قبل أن يحذق التاريخ والرياضيات ، لأن أباه وهبه للرب ، وسرعان ما وفّى بنذره ، وسلمه لعشيرة الرهبان ، فى تلك البعثة الأفريقية ، التى أطلق عليها اسم القارة السوداء لكثرة من هاجر من بنيها ورسلها في سبيل هدى الوثنيين إلى الطريق القويم

فكان الأب جيميه يعيش فى سجن صومعته ، وفى سجن أضيق من وصايا الدين والخلق ، ولكنه سجين يقظ للدهر ، يحصى كل لحظة ، ويحسب كل ثانية ، ويعد على نفسه الأنفاس . فعرف في يقظته المحتومة قيمة الخير والشر فى خلق الرجال ، وأن المنافقين يفوزون فى هذه الدنيا باسم الفضائل ، وأن معظم الجرائم تقترف وراء صور وتهاويل من الأخلاق . فكان يقول : « لا يدخل فى واجبى أن أصلح العالم ، وما علىّ إلا أن أخفف من ويلاته مااستطعت » ومذ حكمت عليه رسالته العليا أن يتصل بالنساء ، صمم على ألا يخوض فى حديث يتصل بالحب . ونفسه تحدثه بعد أن رأى من تعذيب الجسد أنه قد بغضت إليه ملذات الجسد بغضاً لا رجوع بعده ، وكفر بحب الجنس كفراً لا إيمان وراءه ، وهو الذى لم يتذوقه وإن تذوّق الآلام التى تتركها آثاره ، وكان بعد أن يختم مطافه على المذارى الوالدات ويتلقى من قلوبهن الجريحة وأفواههن المعذبة أحاديث الهوى والهجر والقطيعة ، بعد الغواية والوصل ، يخرج مُبلبل الفكر ، فريسة للهواجس يتلقفه سوء الظن ، وتعبث به السوداء ، ولكن أحداً لم يتخيل ولم يَهِمْ أن ثقة الواعظ المتين الخلق القوى الإرادة تزعزعت فى نفسه أو فى رسالته القدسية ، فقد عهدوه كالطود الراسخ

* * *

فى صبيحة ليلة مطيرة غاب فيها القمر وتوارت النجوم وراء السحب المتكاثفة ، عثر عمال النظافة بجثة عارية لرجل فى حدود الكهولة ، وكانت رائحة الخمر تفوح من شدقيه المفتوحين ولسانه البارز ، وكانت عيناه جاحظتين كأنه يرى ، فى البرهة القصيرة التى هى بين الحياة والموت ، منظراً بشعاً أو شبحاً مخيفاً ، وإحدى يديه قابضة على سُرّته ، وقد تقلصت عضلات اليد الأخرى والتوت أناملها ، فهل تشير إلى نصير يدنو من الفريسة فى اللحظة الأخيرة أو تهمّ باشتباك الأصابع لتدفع الخطر الداهم ؟

بُهت عمال النظافة ، ووقفوا يتأملون ذلك الوضع الأليم لتلك الجثة المنطرحة على الرخام ، وكأن الروح غادرتها فى تردد وألم وخجل ... ولم يعلموا لمن كان هذا الوعاء الأرضى الذى أبى نازعوه أن يواروا سوأته ، وقبلوا أن يجعلوها عرضة للأنظار : ليس فى العالم شىء أدعى للحسرة والروعة من جثة منطرحة على مقروعة الطريق فى وضع غريب . إنها لا تثير الضحك ولا البكاء ، ولا تبعث السلوى أو اللوعة ولا تؤدى الموعظة الأليمة ، حتى ولو كانت

جثة أبلغ الواعظين ! بل تثير الدهشة ثم الروعة فالاشمئزاز فالغيظ ، ليس أدعى إلى الحنق من صورة الإنسان الجسدية معروضة للإنظار فى حالة العجز المطلق عن النطق والحركة ، ولذا يسرع الأحياء إلى دفن الموتى لئلا يفقدوا ثقتهم بأنفسهم ، وتهبط حرارة شجاعتهم إلى درك الجليد الذى لا صعود بعده

جاء الشرط ، وستروا وجه الرجل الطريح ، ولكن بعد أن وقعت عليه الأبصار ووطأه النظارة بأعينهم وهى أقسى فى بعض الأحيان من وطء الأقدام والنعال ... الحى الذى فقد الحياء ولم يفقد الحياة ينظر إلى الميت نظرة وقحة فاجرة ، يعجز عن وصفها أفصح الألسنة ، كبرياء يمازجها شعور الفرح بالنجاة ! كان خيراً للرحمة والفضيلة والكرامة الانسانية أن تحمل الجثة بأقصى سرعة إلى أقصى مكان ، ولكن رأى المحققون والشرط والأطباء أنه خير للحقيقة والعدل أن تبقى أطول فترة مستطاعة بأدنى موضع من مرقدها فلعله مصرعها والمكان الذى لقى صاحبها فيه حتفه حقيقة أو حكما . فليس من المستحيل أن يكون روح القتيل قد فارق جسده فى أقصى المدينة شرقاً أو غرباً ، وإن القاتل الماكر اصطنع حيلة النقل تضليلاً للباحثين ؛ وأن شوارع ليون فى الليل لتنطوين على أسرار أغرب وخفايا أروع من أسرار باريس وخفاياها ، لأنها مدينة مقفلة الأبواب والنوافذ مكتمة القلوب والأفواه أيضاً ، مدينة مسكونة بالرهبان ، كما تسكن القصور العتيقة بالأرواح ، ومأهولة بالجناة وحملة الغموض والخفاء أكثر مما أهلت بالعمال فى كل صنعة وفن . نساؤها على أكبر جانب من الجمال ، والخلاعة والفتنة ، والدهاء والملاينة ، والسهولة التى تسبقها مداهنة ومخاتلة ، نفوسهن كالقدور التى تهدر بالغليان ، ووجوههن كالبساتين النضرة النامية على فوهة البركان ...

* * *

كانت الساعة التاسعة إلا بضع دقائق ، عندما بلغ القاضى جيرار پوتليفان موضع الجثة وهو « مكان الواقعة » بتعبير المختصين ، يتبعه كاتب التحقيق لوسيان . وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، مجدوع الأنف من الولادة ، أحمر الوجه ، شديد الطاعة لرئيسه من طول ما تلقى أوامره ونواهيه ، حتى لقد أمسى كالطيعة الذلول ، وكان هادىء الطبع موفور الكرامة فى ظاهره . أما القاضى پوتليفان فشديد الذكاء ، طويل التجربة ، عميق التفكير ، لا يترك شيئاً قل أو جل لحكم المصادفات ، ولا يعرض عن افتراض ، ولا يستهين ببارقة أمل وإن ضؤلت في رفع القناع عن وجه الحقيقة ، التى قد تتبرقع أحياناً ، وتسفر حيناً !

عند ما رفع الشرطى (جروبونوم) رئيس الخدمة الليلية فى مقر بوليس ساحة بلكور ، ذيل الرداء الذى كان يستر وجه القتيل ، وأطل القاضي وكاتبه عليه وأطالا النظر ، رفع لوسيان بذراعيه إلى أذنيه ، ومال برأسه من اليمين إلى اليسار ، ثم صرخ من أعماق صدره « آ ..... غ ! » أما القاضى فقد صوب النظر ، ثم التفت إلى لوسيان وقال له :

— هل عرفته أنت ، كما لم أعرفه أنا ؟

فسكت لوسيان سكوتاً عميقاً ، فهز القاضى ذراعيه ، حتى أزلهما جميعاً من وراء أذنيه ، وأعاد السؤال على كاتبه فأجاب :

— كلا ! كلا ! ياسيدى القاضى لم أعرفه ألبتة !

— ولِمَ صرخت إذن صرخة الرعب والفزع؟

— لأن الصورة مرعبة مفزعة ، ولم أرَ قط قتيلاً يخفي عورته بيده ويشير إشارة الخطيب باليد الأخرى ! فنظر القاضي إلى كاتبه نظرة شزرة ، ثم عاد إلى صمته ، ودعا الطبيب الشرعي روسينيول وكلفه أن يدون الوصف التشريحي حسب أصول الجراحة

* * *

في تلك اللحظة وصل مندوب الأسقف : الأب المحترم كليمان جوزيه الشهير بعلمه في التاريخ والحقوق واللاهوت والفلسفة وقال إنه باسم الكنيسة المقدسة وباسم البابا المثلث الرحمات يمانع في تشريح الجثة ، لأنه وصل إلى مسامع الأسقف أن الجثة قد تكون لرجل تناول أسرار الكهنوت ، ولا تبيح الكنيسة إهراق الدماء مرتين ، لأن في الإهراق الثاني إبطالاً لحرمة الموتى ! فدهش القاضي ولكن أدبه وكرامة محدثه ألزماه الصمت ، ولأنه لم يسبق في سجل التحقيق الجنائي أن أحوجه الأمر إلى تشريح جثة تلقن صاحبها « سر الكهنوت »

وبعد هنيهة أمر كاتبه لوسيان أن يفتح محضراً ليثبت أقوال الأب كليمان جوزيه ثم أملى عليه :

« نحن چيرار بوتليفان قاضي التحقيق لدى المحكمة العليا بمدينة ليون عاصمة مقاطعة نهر الرون نثبت ما يأتي :

حضر الأب كليمان جوزيه واحتج على تشريح جثة لرجل مجهول فسألناه :

س — (من القاضي) ألديكم في قانون الكنيسة نص صريح يحرم التشريح أو يجعله مكروهاً ؟

ج — (من مندوب الأسقف) إن للميت حرمة كحرمة الحي بل أشد ؛ ولذا وجب الكف عن شق جثته

س — حتى في حالة الوفاة الجنائية كالقتل أو الانتحار أو التسميم ؟

ج — لا يوجد نص صريح ، ولكن أمر الكنيسة يعدل النص الصريح

س — (من قاضي التحقيق) في شروح سانتندريه التولوزي قاعدة ثابتة ، وهي أنه إذا ظهرت مصلحة راجحة في تشريح الجثة كإثبات حق القتيل قِبَل المتهم أو تبرئة متهم من تبعة الجريمة بالسم فيجوز التشريح ، وفي زمن سانتندريه التولوزي (وهو القرن الخامس عشر) لم تكن صناعة الجراحة تقدمت كزمننا هذا

ج — هناك حالة السم ، أو ابتلاع القتيل قبيل موته جوهرة ثمينة ، وهما حالتان نص عليهما سانتندريه المشار إليه في سؤالكم وليست هذه منهما

وهنا كتب لوسيان كلمات في بطاقة ، وعرضها النظر القاضي ، فنظر إليه شزراً مرة أخرى ، ورفع بيده إلى جبينه وطوى الورقة ودسها في جيبه ، ثم التفت إلى الأب كليمان جوزيه وقال له :

س — إن أمر الكنيسة محترم كالنص الصريح وإن كان قانون الفصل بينها وبين الدولة الصادر في ١٤ يونيو سنة ١٩٠٣ قد حظر عليها التدخل في أعمال السلطات الثلاث ، وأنتم لم تثبتوا حتى الساعة أن القتيل كان تابعاً لكم من قريب أو بعيد وإلى أن تثبتوا تلك التبعية المدعاة ، فللسلطة القضائية أن تتناول التحقيق بمذافيره ومنها الأمر بتشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة

ج — (مندوب الكنيسة) إنكم تحرجون

مندوب الأسقف ، ومن يحرجه فقد أحرج الكنيسة والبابوية معاً

قاضى التحقيق — ولذا أمرنا نحن قاضى التحقيق جيرارو تليفان حضرة الطبيب روسنيول باجراء الصفة التشريحية بغير شرط ولا قيد ما عدا الأمر بنقلها إلى مكان آخر قبل أن يؤمن مع النقل إخفاء معالم الجريمة أو تغييرها أو محو الآثار التى يكون من شأنها الاهتداء إلى الحقيقة . فاعترض الطبيب قائلاً :

أظن فى هذا الأمر مخالفة للنظم المتبعة ، لأن فى محافظة البوليس مكاناً خاصاً بالتشريح وإن على مرمر المورج [1] متسعاً لجميع الجثث من قتلى ومنتحرين .

فقال القاضى : إلى أن يحضر الدكتور لوكار ، فهو وحده يسمح بنقل الجثة إلى حظيرة المورج ، بعد ضربها الضرب الكافى [2] ، فاقتنع الطبيب ورضى بالفحص الظاهر . حتى حضر الدكتور لوكار وأعوانه ، وكانوا مصورين ماهرين وكيمائيين ومحللين وحملة حقائب عازلة ، وأحماضٍ وقنانٍ ، وألواح معدنية وزجاجية وأكياس من المطّاط ، وأخرى من جلود الثيران ، فأخذوا قلامة من أظافر الجثة وآثاراً من صماخ الأذنين ، وإفراز الأنف ، ولعاب الفم ، وشعر الرأس والصدر فى أوعية خاصة ثم وضعوا الجثة فى كيس كبير من الجلد السميك ، وتناول بعض الأعوان قضبانا من المطاط وأخذوا يجلدونها جلداً عنيفاً فى حضرة مندوب الكنيسة الذى بلغ احتجاجه عنان السماء ، فتقدم إليه لوكار رئيس المحققين العلماء وقال له :

— سيدى الأب المحترم ، إنا لانوقع على الجثة عقاباً ولا نحاول تعذيباً ولا انتقاما كما ظننت وظهر من غضبك ، ولكننا ننفض عن الجثة ماعلق بها من ذرات الشوائب التى لا تدرك بالحس ، ولا ترى بالعين المجردة . فسأل الأب جوزيه .

— وهذا الطبيب المشرح ما عمله ؟ لقد تكاثر الأطباء على جثة ولا ندرى ما يُراد بميت ..

— إنه يبحث فى أسباب القتل التى لها اتصال مباشر بالبدن ، ليحدد علة توقف الحياة ، وتعطيل أداتها ، أما نحن فنبحث أسباب القتل المستقلة عن الجسد ، أى ما صدر عن قوة خارجة مما لا بد يترك أثراً واضحاً لنا مهما خفى على سوانا

ووصف قاضى التحقيق فى محضره المكان والزمان وأمر بالتصوير الضوئى من أعلى وأسفل ، ومن بعض الزوايا الحادة والمنفرجة وختم محضره ، ثم أجّل التحقيق إلى الساعة الثالثة بعد الظهر حتى يُقدمَ إليه الخبراء تقاريرهم ، وحتى يتمكن رجال الخفية ، وأفراد الشرطة السرية ، « والباحث » المتنقلة ، والحرس الجمهورى من جمع بعض الأدلة أو القرائن التى تساعد فى كشف الغطاء عن الحقيقة . وعند ما غادر القاضى مكانه كان فى رأسه فكرتان الأولى أن كاتبه لوسيان يعلم أكثر مما دوّن فى محضره ، والثانية أن الكنيسة تدعى أمومة القتيل وهيهات أن تدعى باطلاً فى هذا الحادث الرهيب

* * *

كان شارع جيراف الذى وجدت به الجثة فى منعرج من شارع بوالو المؤدى إلى « بلاس دى تورو » من اليمين وإلى ميدان « جراند تياتر » من الشمال

(١) قاعة لعرض الجثث المجهولة

(٢) هذه الطريقة الحديثة لاستنفاض بعض آثار الجناة المادية متبعة فى فرنسا

وقد سمى شارعاً مجازاً لاختناقه بين الشوارع الكبرى ، ولكنه فى الحقيقة زقاق ضيق منحدر أسفله حلقة من سلسلة المصاعد الوعرة التى عبدت فى تلال عالية شيدت عليها مدينة ليون كما بنيت رومة على سبعة تلال ولا تزال آكامها ظاهرة فى « فورفيير » و« كرواروس » و« راميارديئيه » . وكان زقاق « جيراف » يشبه عنق الزرافة ولذا أطلق عليه اسمها ، فهو كالسطر المطموس فى صفحة مكتظة بالأحرف والكلمات ، ولكن على الرغم من ضيقه وانحداره اجتمعت لديه عشرات من النظارة الذين تهيج استطلاعهم أنباء الجرائم ، وكانت على جانبيه بيوت مغلقة [1] يطرقها رواد الملاهى فى مختلف الأوقات من الليل والنهار تعرفها الشرطة وتسجلها دفاتر « بوليس الأخلاق » ؛ ولكنها أغمضت أعينها وصمت آذانها عنها ، إذ كانت كل واردة من بنات الهوى سجل العناء والرجس وراء نوافذها المغلقة ، قد تسلمت من إدارة الأمن العام ، تذكرة صفراء تبيح لها مخالطة « الحرفاء » ، وتحتم عليها فحص الطبيب ، وتحذرها من الاحتماء برجل يعيش من جهودها المخزية الأليمة ، ومن الاشتراك فى جريمة سرقة العشراء (بالانتولاج) [2] وأن تبلغ بما تعلمه عنها فكان أول ما يدر إلى ذهن رئيس « البحوث الجنائية » وأعوانه أن يهاجموا تلك البيوت وأن يفتشوها ، لعلهم يعثرون بدليل فى إحدى الغرف السوداء التي تخفى وراء جدرانها البؤس والشقاء وبعض معالم الجنايات الخفية

وأبى قاضى التحقيق فى فترة التأجيل أن يتغدى فى داره أو فى مطعم ، وبقى بمكتبه فى « پاليه دى جوستيس [1] » ينتظر الحوادث ويرقب المفاجآت . فأول ما صنع كان أن أوعز إلى « جرينشار » أمهر البصاصين أن يقتفى أثر كاتبه لوسيان ، بعيد خروجه فى تمام ساعة الظهيرة ليتغدى ، فهبت الجاسوس القضائى وحدق بالقاضى قائلاً :

— أمتحقق يا سيدى القاضى من ضرورة هذا الاقتفاء ؟ إن لوسيان يعرفنى ، وقد نثير شكوكه بغير داع ، ولذا يقتضى الأمر أن أمعن فى التنكر

فلم يكن من القاضى إلا أن قال له : أسرع ! أيها المغفل قبل أن تفوت الفرصة !

فلم ينتظر جرينشار مسبة أخرى ، وكان رجلاً حقوداً بالفطرة ، ولا سيما أن ساعة الظهر ترحم الشوارع بالمنصرفين من أعمالهم فيختلط الحابل بالنابل ، وقد تفوته الفرصة حقاً فينطبق عليه الوصف الذى خلعه عليه موسيو چيرار بوتليفان قاضى التحقيق

واتصل القاضى بالأسقفية ، عن طريق التليفون ، وطلب أن يخاطب الأسقف مخاطبة شخصية ، ودهن ألفاظه بألوان التبجيل والاحترام ، وأبدى معاذيره عن مسلكه الذى لم يكن منه بد ، عند ما جبه المندوب في الصباح ، فقال له الأسقف :

— ان الأسقفية تدرك جيداً وجوب قيامك بعملك الذى وراءه سلامة المجتمع ، ولكنها لا تقبل أن تتصدى ارادة الكنيسة ، وتعمل على نشر فضيحة لا تشفى غليل أحد ، وتسىء الى ذكرى القتيل الذى كان لا ريب فريسة لغواية الشيطان ، أو ضحية لمؤامرة أعداء الفضيلة .

(١) Maisons closes إسم له فى فرنسا معناه الرهيب

(٢) نوع خبيث من اختلاس المال من الرجال أثناء سكرهم

(١) قصر العدل ويقولون فى مصر سراى المحكمة ولا سيما المختلطة

فقال القاضى متلطفاً :

— ولكن يا سيدى الأسقف هل يمكن التنازل بأخبارنا عن هويته ، لنحصر جهودنا فى البحث عن الجناة ، فإننا قبل أن نبذل جهدنا فى هذه السبيل ، لا بد لنا أن نقف على شخصية القتيل .

ألو ! ألو ! ألو !

— سنترال !

— هنا مكتب قاضى التحقيق . كنا على اتصال بالأسقفة رقم ١٣٠٣٣ ك . مدنية

— الرقم لا يجيب ... انتظر ! لقد علقوا السماعة بعد المحادثة

فابتسم قاضى التحقيق وقال :

— سكوت هو الاعتراف بنفسه !

* * *

فى تلك اللحظة دخل صبى صغير من أتباع جرينشار بحرز مختوم فتسلمه القاضى يداً بيد ، وحيا الصبى وانصرف ، وأسرع القاضى إلى فض غلاف الحرز فإذا به كناشة صغيرة فى حجم الكف تحمل تاريخ سنة ١٩٠٨ ، ولكن الكتابة المدونة فيها لا تتبع التواريخ ، خط دقيق وصفحات ملأى ، ألوان شتى من المداد ... الأسود والأحمر والأزرق أحياناً ... نبذ لاتينية . وأشعار يونانية ، وآيات من العهدين القديم والجديد ، أسماء حديثة وأخرى بائدة

— ١ —

ياويلتا من بني آدم وبنات حواء ! إنهم يشغلون ذهنى دائماً بصورهم التى لا عداد لها . إن أخلاقى هى الحجاب الحاجز الذى يحول بينى وبينهم ، حتى عييت وأعيا العقل مجهودى ... بسكال . النبى دانيال ٣ : ١٤ : ٣٤ « ويل لك يا ابن آدم من نفسك ، واحتكاكها بما وراء الوجود الظاهر والقوالب والأشخاص » بسكال : العدل ...

— ٢ —

يطيب لى أن أراقب المرضى والمجانين والمساجين وأشبع عينى ونفسى من ألوانهم وأنواعهم . إن أحاديثهم ألذ وأنفع من حديث الأصحاء والعقلاء ، والأحرار ... الأحرار ... هذا الأبله فوجيرار صاحب معامل الحديد فى حى بوتيو . بسكال : العدل موجود لأن العناية قررته (أفكار ١٣٤) ولكن هل هو موجود فى الحقيقة ؟ ...

— ٣ —

دعانى فوجيرار لزيارته . وقدم إلىّ زوجته وبناته . وطلب إلىّ أن أباركهن !! وسألنى رأيى فى راسبوتين وعلاقته بالقيصرة ! ياله من وقح جسور ! إنه أعمى يظن نفسه بصيراً ! ومقهور يحسبه قاهراً ، ومستعبد يعتقد أنه طليق ! مستعبد لماله وأهله وشهواته !! أنا وحدى الطليق ، لأننى تحررت من قيود المال والشهوات ! ولكن من يدرى ؟؟

— ٤ —

مدام لابات . شارع جارنت نمرة ٢٩ . جميلة فصيحة متدينة . تناديني « يا أبتاه أنقذنى من مخالب الذنوب التى تكتنفنى ، منذ فقدت زوجى ، إن حياتى محفوفة بالمكاره ... وأقاربي من الرجال ، حتى المحارم ، يغازلوننى وينصبون لى الشباك ... أتظن أن ... متعلق بى حتى أغرى خادمتى العجوز مدام « بوليبه » بالمال فأدخلته إلى مضجعى خفية ... ليفاجئنى نائمة عارية . وكيف أستغيث ؟ لا وسيلة إلا التسليم ! الطعام والغرام مشكلة الحياة وشغل الناس الشاغل » وأنا وحدي قنوع فى الأول ،

عزوف عن الثانى ، ولذا ترانى حراً كالطير ، أغرد على المنابر أيام الأحد والأعياد ، وأتنقل بين مواطن الآلام وهى أغصانى وأفنانى ثم آوى إلى عُشى وهو صومعتى . وإن لم يكن فيها أنثى ولا صغار الطير فهى تحمينى من عبث الحياة ...

— ٥ —

الأسقف ... ذلك البهيم البهم ! إنه لا يعلم شيئاً ، لقد ضحى بي على مذبح مطامعه . هل أصلح لمعاشرة المجرمين والمذنبين والمجانين والمرضى ؟ رجل مثلى طيب القلب عذب اللسان قوى الحجة لا يصلح إلا للوعظ .. ولكنه يريد أن يسحب منى وظيفتى بلباقة كهنوتية . لقد أشار في حديثه معى إلى طغيان ساڤونارولا[1] فقد همسوا فى أذنه أن تقريراً وصل إلى مونسنيور « ميرى ديلفال » نفسه جاء فيه (راقب جيميه عن كثب) كلام ملتوٍ غامض . لأننى أثرت الجدل حول مسألة الخلق القويم . إنها مسألة شائكة ، استجرت فيها رؤوس الأقلام من قديم وتبلبلت بسببها الألسنة ، من عهد رينان . آه رينان ! من لى بثقافته واعتداله ! هل كان مؤمناً ؟ هل كان ملحداً ؟ أم إنه ودع العالم وقد ازداد جهلاً ؟

ألم يُصلِّ لنيرفا فى الاكروبول ؟ بهتان وضلال!

ألم يزر موضع الميلاد والصلب والقبر المقدس ؟ بماذا عاد إلينا ؟ إنه عاد بالشكوك القاتلة التى صحبته إلى آخر حياته ! وخسر أخته هنريت فى الصفقة !

أما أنا فلا أخت لى أفقدها ، حتى ولا امرأة بعيدة أحبتنى يوماً . كلهن يظهرن لى الاحترام الذى يقتلنى فى الصميم ! إن من الإعجاب اكراماً ، وقناطير مقنطرة ! أما الحب فلا دانق ولا ذرة

— ٦ —

الآن عرفت سبب الاضطهاد فقد قلت فى موعظتى التى تلاها تقرير « المراقبة عن كثب » : إن المنافقين ينجحون باسم الفضيلة ؛ وباسم الفضيلة تقترف الآثام . مدام رولان : آه أيتها الحرية ! كم جريمة تقترف باسمك ؟ آه أيها العدل كم بريء يظلم باسمك ! ان الثائرين على الأخلاق كالساخطين على المعتقدات . أحب أن أحارب الشياطين المستترة وراء النفاق ... بل شيطاناً واحداً كامناً فى نفسى لم تخرجه الصلاة ولا المواعظ إلى ...

* * *

كان قاضى التحقيق يقرأ مذهلاً ، لقد أمسى من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى . . بل هذه هى الحقيقة نفسها بين يديه . ولكن لوسيان كاتبه ماشأنه فى هذه المعمعة ؟ فى هذه اللحظة دق التليفون :

— ألو ! ألو ! سيدى القاضى بوتليفان .. أنا جرينشار اتكلم ! المفكرة التى وصلت إليك كانت فى حوزة لوسيان . نعم لوسيان كاتب التحقيق كان يحاول إلقاءها فى نهر السين ، فألقى بأشياء أخرى ، وسقطت المفكرة على الأرض لفرط ارتباكه ثم سار فى طريقه كالمجنون ، فالتقطت المفكرة . أنا الآن فى شارع لاجيوتبير ، لوسيان فى حانة يحادث إمرأة جميلة ، وفتية ، هل أقبض عليهما ؟

— إننا نعرف مسكنه ولا نعرف مسكنها . من الحكمة أن تقبض عليها فى بيتها ، إنهما لا يلبثان أن يفترقا ، فاتركه واتبعها ..

(١) كاهن دومنيكى عاش فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر وثار على فساد المجتمع فأمرت الكنيسة باعدامه وحرقه وتذرية رماده في نهر ارنو

ألقى القاضي بسماعة التليفون باهتاً .. ومنتصراً فقد تحققت ظنونه

ودخل دكتور لوكار يحمل تقريره وهو ثمرة التحقيق الدقيق

كان صاحب الجثة فى أحضان امرأة قبيل وفاته ، وفى إحدى قلامات أظافره ذرات من مساحيق بيضاء وحمراء معطرة ، آثار زينة المرأة ، ويدل تقلص أنامل اليد اليسرى على أنه شرع فى خنقها ، واستمساك اليد اليمنى بأسفل البطن قرينة ما أصابه بين الحصر عند ما أخفق فى حبه

النتيجة : حالة عجز مصحوبة بجنون الشيخوخة المبكرة . أما سبب الوفاة فيكشف عنه تشريح الجثة الذى يقوم زميلى الدكتور روسنيول

الطبيب — إمضاء

* * *

عاد القاضى إلى المفكرة :

— ٧ —

كانت فتاة ريانة ، يجرى فى عروقها دم حار غزير . لقيتنى باكية بعد خطبة الأحد ، وطلبت إليها أن تدلنى على بيتها لتبوح لى بحقيقة حالها قبل أن أبدى لها النصيحة . بيتها . يا أسفاه ! إنه « طُقيسى » (١) . خن للحمام ضيق . مظلم فى أعلى منزل بشارع جيراف اسمها جانيت ديلابيه جرانسير (من ورثة ألقاب النبلاء !) الكنيسة وذرية الأشراف تلتقيان فى عَلية بظاهر السطوح ! دخلت على جانيت فى الليلة الأولى ، وكان المطر ينهمر ، بعد أن صعدت سبع طبقات ؛ فمدت يديها الرخصتين لتأخذ بيدى على درج السلم ، فارتجفت وكدت أقع لأننى شعرت كأن أسلاكا ذهبية من نور الحب تجذبنى إلى الطقيسى »

وكان الظلام حالكاً . فأشعلت الفتاة عقب شمعة وأجلستنى على السرير ، فما لديها سواه يصلح مجلساً . وكانت باهتة ، فسألتنى : هل معك يا أبتاه نقود ، فيضاً من فضل الصدقات ؟ فإننى كما ترى أحق الناس بها . فتصنعت الصمم والتعب لأرى كيف تفعل تلك الأنامل الرقاق بعد أن جذبتنى إلى سريرها ؟! فكانت برهة سحرية لم أعرف لذتها من قبل ، فأخرجت كيس النقود — جذع اليتامى والأرامل — وحللت خيوطه وأفرغته فى حجرها فقبلت يدى ، وانهمرت دموعها . معصية . معصية الفرار ! الفرار ... ! وقد نجوت فعلاً من حبالة الشيطان ...

* * *

أنا دنيس بتى جان روسنيول جراح وطبيب بقسم الطب الشرعى التابع للنائب العام بمحكمة استئناف ليون العليا أثبت الآتى :

بفحص الجثة ، وجدت الكهل فى العقد الخامس صحيح الأبصار ، سليم الأحشاء ما عدا القلب فقد وجد متضخماً . وسبب الوفاة سكتة قلبية أثناء مجهود لم يتعوده المتوفى وهو فى حالة عجز جنسي تام لم تسبقه ممارسة

* * *

« نحن قاضى التحقيق أمرنا بحفظ القضية لعدم الجريمة »

وهكذا عاش ومات الأب أرمان چيميه واعظ كنيسة شارتييه .

محمد لطفى جمعة

(١) بالفرنسية mansarde علية فى قمة البيوت تؤجر للفقراء

آلات الموت الثلاث

للكاتب الانجليزى تشسترتن

« تشسترتن شاعر وقصصى وروائى يمتاز بدعابته المرحة ونكتته اللاذعة كما تمتاز قصصه البوليسية عن قصص سير ارثر كونان دويل بروحها الأدبى وأسلوبها الأخاذ ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه عن برنارد شو وهو كتاب ينتزع من الانسان نفسه ويأخذ على القارىء كل تفكيره ، وسيلمس القارىء جانباً من مهارة هذا الكاتب فى فن القصة وتهيئة الجو لها وخلق المشاكل الكثيرة حول أبطالها فى هذه القصة التي أنقلها اليوم والتى تعتبر بحق من أروع القصص البوليسية دقة وتركيباً »

عرف الأب « براون » عن طريق الوعظ والايمان أن الانسان يطهر بالموت وأن روحه تسمو بانفصالها عن الجسد ، ولكنه لم يكد يعلم بقتل سير « أرون امسترونج » حتى أحس بالألم يحز فى قلبه والحزن يعمل فى فؤاده . واستولى على الناس كثير من الحيرة والدهشة لاعتقادهم أن سير أرمسترونج شخصية مرحة لا يتطرق إليها اليأس ولا تبتئس لدواهم الخطوب ، فقد كان سليم الجسم صحيح العقل منبسط المزاج ، تأخذ أحاديثه السياسية والاجتماعية بعقول الناس بأسلوبه الفكه ونكتته البارعة . ولا غرابة فى هذا فقد انصرف عن تعاليم الكنيسة الاسكتلندية إلى خمور أدنبره وقضى فيها زهرة شبابه . ثم ودع الحياتين « حياة الدين وحياة الشراب » وسلك فى الحياة طريقاً خاصاً لا يدرى الانسان إن كان فيه من اتباع كانفن أو من رواد الحانات ، وإن كان وجهه المستدير ولحيته البيضاء وعيناته اللامعة تبعث فى نفوس الناس شعوراً مزيجاً من الرزانة والمرح

عاش فى بيت ريفى جميل قد شاده على نمط القلاع القديمة قريباً من طريق السكة الحديدية ، إلا أن أعصاب هذا السيد لم تكن لتتأذى من دوي القطر أو جلجلة العربات

لم يكد القطار يدنو من المنزل حتى اندفع إليه رجل لا يكاد المرء يفرق بين سواد وجهه وسواد ثوبه ؛ وأخذ يلوح بقفازه الأسود ويصيح فى صوت حادٍ مدو: قتيل! قتيل! لم يكن هذا الرجل الأسود إلا خادم السيد أرمسترونج، فوقف القطار وأسرع الناس إلى المنزل فرأوا شيخاً ملقى على الأرض فى ثوب أصفر قد لُف حول ساقه حبل طويل . وأغلب الظن أن الشخص الذى لف هذا الحبل قد لقى كثيراً من المقاومة والصراع من القتيل . كان ذلك الشيخ الملقى على الأرض هو السيد أرمسترونج

وفى تلك الساعة الرهيبة برز سكرتير القتيل « باتريك رويس » وهو رجل معروف من رجال الفن وأصحاب الحانات ؛ ثم جاءت فى أثره ابنة الشيخ المتوفى «أليس» ترتجف وتلهث . ثم أرسل فى طلب الأب براون فلبي على عجل . فلما جاء إلى المنزل رأى رجلاً من البوليس السرى يدعى « مرتون » فانتحى به جانباً من الحقل المجاور للمنزل وأخذا يتحادثان فى أمر هذا القتيل :

فقال مرتون : الواقع أنى لا أرى شخصاً تحوم

عليه الشبهة ، فمجنوس رجل غبي أبعد الناس عن أن يكون سفاكاً للدماء ؛ ورووليس صديق حميم للقتيل منذ عهد بعيد ، ثم إنه معبود ابنته (أليس) فلا يمكن أن يرتكب مثل هذا الجرم ويهدم سعادة هذا البيت المرح

— فأجابه براون : أجل ! لقد كان بيتاً مرحاً قبل أن يموت صاحبه . أفتظن أنه سيبقى كذلك بعد غياب سيده ؟

— أجل . لقد مات ! !

فمضى الأب براون يقول : لقد كان مرحاً حقاً ، ولكن هل كان هذا المرح شائعاً فى نفوس الآخرين الذين كانوا يقاسمونه العيش ؟ !

فأثار هذا الكلام شكوك مرتون وأخذ يفكر فى حياة ذلك الشيخ

لقد كان المنزل قابضاً للنفس ، وكانت غرفه عالية ضيقة باردة يسري فيها بصيص من الضوء الباهت كضوء القمر بل أشد شحوباً ؛ وكان كل شيء فى المنزل يبعث فى النفس الكآبة والضيق والنفور . كذلك كان الأشخاص الذين يقيمون فيه : فالخادم مجنوس كان يلوح في قفازه الأسود الكبير كأنه طاغوت ثقيل ؛ والسكرتير رويس كان يُرَى فى لحيته المستديرة الكثة ، وجبهته التى ارتسمت عليها التجاعيد قبل الأوان ، مثقل القلب محطوم الفؤاد مصدوم الأمانى . أما أليس فلم يكن فيها من صفات والدها شيء ، فقد كانت شديدة الحساسية مرهفة الأعصاب حتى أن مرتون طالما أشفق عليها وعجب كيف تنام تلك المخلوقة الحساسة على صفير القطر وجلجلة العربات ؟ !

ثم استطرد الأب براون قائلاً : إني واثق من أن المرح الذى كان فيه سير ارمسترونج لم يغمر المنزل كله . قد تقول إنه ليس هناك من يفكر فى قتل هذا الشيخ ، ولكنى لست متأكداً من هذا

فصاح مرتون قائلاً : « وهل تظن أن الناس لا يحبون المرح ؟ »

فأجابه براون : إن الناس يحبون الضحك المتواصل ، ولكنى لا أظنهم يحبون الابتسام الدائم . فالمرح الخالى من الدعابة هو من أثقل الأشياء على نفوسهم

ثم مضيا صامتين فى ذلك الطريق المخضر لا يسمعان إلا صفير الرياح وهسيس النبات حتى أتيا رابية صغيرة تشرف على المنزل فوقفا هناك ، وأخذ الأب براون يتحدث كمن يريد أن يزيح شيئاً ثقيلاً عن نفسه فقال :

« إن الشراب ليس خيراً ولا شراً فى ذاته ، ولكنى أشعر أحياناً أن كثيرين من الناس يطلبون الكأس من وقت إلى آخر لتسكن ثائرتهم وتهدأ أعصابهم . ثم التفت حوله فرأى رئيس البوليس السرى قادماً إليه ، فبادره مرتون بالسؤال :

— هل كشفت سر الجريمة ؟

— فأجابه « جليدر » وقد أخذ النوم بأهداب عينيه : « ما من سر هناك » فابتسم مرتون وقال « حسن ، ولكنى أراه سراً »

فرد عليه الرئيس وهو يمشط لحيته بأصابعه : لم يمض على ذهابك إلى الأب براون دقائق حتى وقفت على الحقيقة كلها . أنك تعرف ذلك الخادم ذا القفاز الأسود الذى أوقف القطار

— أوه . يجب أن أعرفه . فقد أفزعنى

— ثم استطرد جليدر قائلاً : حسن . فلما مضى القطار مضى معه ذلك الأسود

يالله من مجرم ثابت ! يريد أن يهرب بنفس القطار

الذى ذهب لاحضار البوليس

— وهل أنت واثق تماماً من أنه هو القاتل ؟

— نعم يابني إنى متأكد من هذا ؛ فقد هرب حاملاً معه العشرين ألف جنيه من الورق ؛ ولكن المهم الآن هو أن نعرف كيف قتله . فقد وجدنا الجمجمة مكسورة كما لو كانت مشجوجة بآلة ضخمة ، ولكنا لم نجد شيئاً حوله ألبتة . وليس من المعقول أن يحمل القاتل تلك الآلة ما لم تكن صغيرة جداً بدرجة لا تلحظ

فقال القس : ولكن ربما كان الموت بآلة أكبر من أن تلحظ .

فعجب جليدر لتلك الملاحظة الغريبة ونظر إليه يستوضح قصده

فأجابه الأب براون . إن سير أرمسترونج المسكين قد قتل بآلة مارد جبار

آلة أكبر من أن ترى هي التى نسميها الأرض . لقد ألقى به فى هذه البقعة الخضراء التى نقف عليها الآن .

— ماذا تعنى ؟

فصوب الأب براون بصره إلى المنزل فرأى نافذة مفتوحة قرب قمته فقال وهو يشير إلى تلك الفتحة الصغيرة : « ألا ترى ! لقد ألقى به من هناك ! »

فنظر جليدر إلى النافذة وقال : من المحتمل جداً أن يكون هذا ، ولكني لا أدرى علة ترجيحك هذا !

فحملق الأب براون بعينيه الواسعتين وقال : لماذا ؟ ألم تر الحبل حول ساق الرجل ؟ ألم تر قطعة أخرى من الحبل مثبتة في النافذة ؟

— إنك مصيب فى هذا يا سيدى . إنى أسجل ذلك .

وفى هذه الأثناء كان القطار قد وصل حاملا نفراً من الجند ومعهم مجنوس فصاح جليدر ، وهو يقفز إليهم فى خفة وسرعة : لقد أتوا به !

فدنا منه مجنوس وقال : أين المفتش ؟ فلما سمع الناس صوته عرفوا كيف استطاع أن يقف القطار . لقد كان زرى الهيئة دميم الصورة لم يتق دمه بعد من لوثته القديمة ، ولكن صوته كان نافذاً قوياً قدر ما كان وجهه شاحباً ميتاً . ثم صاح بصوت مدو رنان : كنت أتوقع هذا ! ثم لوح بقفازه فى الهواء فنظر إليه جليدر بعين غاضبة ونادى الجاويش وقال : ألا تنوى أن تغل يدى ذلك المخلوق ؟ يبدو لى أنه خطر

— حسن ياسيدي . ولكنى لا أظن أننا سننفذ هذا

— ماذا تعنى بهذا ؟ ألم تقبضوا عليه ؟

— أجل لقد قبضنا عليه وهو خارج من نقطة البوليس حيث أودع أموال سيده لدى المفتش « روبنسون »

فنظر جليدر إلى الرجل دهشاً وقال : لماذا فعلت هذا ؟

— لأن من بها يد المجرم

— إن أموال السيد ارمسترونج يجب أن تترك سليمة لأسرته

وفى هذه اللحظة علا صفير القطار واشتد قرع الأجراس فغاب فيه صوت الرجل الأسود ولم يسمع منه المفتش إلا هذه الجملة :

« ليس لدىّ ما يجعلنى أثق فى أسرة ارمسترونج »

— فأجابه رويس في صوت خافت : عليك أن

تفكر فيما تقول ، فإنك تزعج مس ارمسترونج بهذا الكلام !

— إنى أود هذا . فقد طالما رأيتها ترتجف ، تارة من البرد ، وتارة من الخوف . ولكنى واثق من أنها كانت ترتجف من الغيظ والحنق . لقد كانت تود أن تفر اليوم مع حبيبها حاملة معها كل المال ، لأن سيدى المسكين قد رفض أن يزوجها من ذلك الحارس

فقاطعه جليدر قائلاً : صه ! فلا يعنينا اليوم شكوكك عن أسرتك مالم تدعم هـذه الشكوك بالشواهد العملية

— سأقدم لك أدلة قاطعـة على صحة ما أقول « فقد أسرعت إلى الرجل وهو مربوط فى النافذة فرأيت ابنته تترنح فى مشيتها ممسكة خنجراً فى يدها . أرجو أن تسمح لى أن أقدم هذا إلى الجهات المختصة ؛ ثم أخرج من جيبه سكيناً طويلاً وقدمها إلى الجاويش . فازداد حنق مرتون عليه وطاب من جليدر أن يسمع أقوال مس ارمسترونج ، فصرخت الفتاة وهي واقفة كأنما أصابها شلل ، ولم يبق فيها من علائم الحياة إلا عيناها اللتان تلمعان تحت جبين شاحب مغضن قد تهدل عليـه شعر أسود قاتم . فالتفت إليها جليدر وقال :

— إن هذا الرجل يقول إنه رآك ممسكة سكيناً وأنت لا تكادين تشعرين بنفسك بعد القتل

فأجابته (أليس) قائلة : إنه صادق

وعندئذ اندفع باتريك رويس بين الجند وهوى على مجنوس بقضيب كبير من الحديد ؛ فأسرع الجند إليه وألقوا القبض عليه وصاح فيه جليدر قائلاً :

— سأقبض عليك من أجل هذا العمل

— لا بل اقبض على بتهمة القتل

— ماذا تعنى ؟

— إن ما يقول هذا الرجل صحيح ، فإن مس ارمسترونج كانت ترتجف وهى ممسكة السكينة فى يدها ، ولكنها لم تختطف السكينة لتقتل أباها بل لتدافع عنه

— تدافع عنه ! ! ضد من ؟

فأجابه السكرتير : ضدى

فنظرت إليه أليس بوجه معقد غامض ثم قالت فى صوت خافت :

— إنى أشعر بالرغم من هذا بالفرح لشجاعتك

فقال رويس : هيا اصعدوا معى فسأريكم كيف حدثت تلك المأساة . ففى تلك الغرفة العالية حيث كان ينام السكرتير كان موطن السر لتلك الجريمة المروعة ؛ فعلى الأرض أنقى مسدس حديث الطلق ، وبالقرب منه زجاجة من الخمر مفتوحة غير أنها لم تكن فارغة تماماً . ثم إن غطاء المائدة كان مطويًّا وقد وجد عليها حبل طويل شبيه بذلك الذى كان حول ساق القتيل

ثم قال رويس فى سذاجة الطفـل : كنت أشرب عندئذ . إنكم تعرفون كيف بدأت قصتى وقد تنتهى إلى مثل هذه النهاية . لقد سمعت الناس يصفوننى بالذكاء أحياناً ، وكان فى استطاعتى أن أعيش سعيداً ، فقد أنفذ ارمسترونج البقية الباقية من عقلى وجسمى بعد أن أتت عليها الحانات والمقاهى ؛ وكان دائماً يحبونى بعطفه وحبه إلا أنه

لم يسمح لى أن أتزوج أليس . ربما كان محقًا فى هذا . أظن أنكم لستم فى حاجة إلى مزيد ... فها كم زجاجة الويسكى لا يزال فيها بقيـة ملقاة على الأرض وها كم المسدس الذى أفرغته حديثاً ، وبقية الحبل الذى أوثقت به الرجل وألقيت به من النافذة . إنكم لستم فى حاجة إلى بوليس سرى يكشف عن مأساتى فهى ظاهرة للعيان ، وهأنذا أقدم نفسى لأستوفى جزائى ! !

فهم الجند بالقبض عليه لولا أن صوت الأب براون دوّى عالياً وهو يقول :

— قفوا . إن هذا مستحيل . لقـد كنتم تقولون أولاً إنكم لم تجدوا آلات ، ولكنا قد وجدنا الآن كثيراً . فهاهى السكينة للطعن ، والحبل للخنق ، والمسدس للطلق . ثم إن القاتل قد كسر رقبة ضحيته بأن ألقى به من النافذة . لا يمكن أن يحدث هذا كله ، فإن هذا القتل يتنافى مع مبادئ الاقتصاد . ثم إننا نجد أشياء لا يمكن أن تحدث . فهذه الثقوب التى تراها فى البساط حيث نفذت فيها الرصاصات الست . فهل يطلق الإنسان النار على البساط ؟ إن المخمور يصوب المسدس إلى رأس عدوه ، فهو لا يهجم على قدميه أو يرسم العلامات لقفزاته . ثم الحبل ، فكيف يصدق العقل أن إنساناً يضع الحبل فى عنق إنسان ثم يعود فيربط به ساقه ؟ إن رويس لم يكن على أية حال غائباً عن عقله حتى يفعل هذا ... ثم دنا من رويس وقال : إنى آسف يا عزيزى أن أقول لك إن قصتك تافهة بعيدة عن الحقيقة ...

ثم انتحت أليس بالقس بعيداً وأخذت تقول له : إنك رجل ذكى وإنى أعرف أنك تحاول إنقاذ رويس ، ولكن عبثاً تحاول . إن كل شىء يقف ضد ذلك الرجل الذى أحب ...

فنظر إليها براون وقال لماذا ؟

— لأنى وجدته بنفسى يرتكب جريمته

— وماذا عمل ؟

— لقد كنت فى الغرفة المجاورة لهما ؛ وكان البابان مغلقين ، وفجأة سمعت صوتاً لم أسمع مثله من قبل يدوي كأنه الرعد : « الجحيم ! الجحيم ! الجحيم ! » ثم سمعت البابين يهتزان من أثر الطلقة الأولى . سمعت هذا ثلاث مرات قبل أن أفتح البابين وأرى الدخان يملأ الغرفة . لقد كان ينبعث من المسـدس الذى كان فى يد باتريك المسكين وهو يطلق الطلق الأخير ... ثم رأيته يقفز إلى أبى الذى كان ممسكاً بالنافذة . يالله من منظر مروع فظيع وهو يزمجر ويصيح محاولاً أن يحبس أنفاسه بالحبل الذى ألقاه على رأسه ، ولكن الحبل انزلق عن كتفه إلى ساقه من أثر المقاومة العنيفة ثم أخذ يجره كالمجنون . فاختطفت سكينه واندفعت بينهما لأقطع الحبل قبل أن يستولى علىّ الضعف والإغماء

فأجابها الأب براون : إنى فاهم . أشكرك !

ثم تركها غائبة فى ذكرياتها المؤلمة ومضى إلى جليدر ومرتون ومعهما رويس ، فقـال لهم : لقد أخبرتكم أن هناك آلات كثيرة لم تستعمل للقتل ، فالسكينة الملطخة بالدم والمسدس والحبل كانت أدوات رحمة وإنقاذ لم تستعمل فى قتل سير ايرون بل لإنقاذه

فأجابه جليدر — لإنقاذه ؟ ومَ

فقال الأب براون : من نفسه ، فقد كان مجنوناً بهم بقتل نفسه

فصاح مرتون فى نغمة المبتهج المتشكك : ماذا ؟

— انها نوبة دينية تستولى عليه من وقت إلى آخر . فلماذا لم تتركوه ينفّس عن نفسه بالبكاء كما كان يفعل آباؤه . لقد ضاقت به الحيل ، وسدت أمامه السبل . إذ كان وراء ذلك النقاب المرح الطروب عقل شاك وقلب خال من الايمان . فكان إذا ماجاءته تلك النوبة انكفأ إلى الشراب يعب منه ما ينسيه نفسه . وكان يعتقد أحياناً أنه فى الجحيم التى طالما أنذر الناس من شر عذابها . وهذا هو ما كان عليه اليوم فقد أخذ يهذى كالمحموم ، واندفع إلى الموت كالمجنون ، وأخذ يحتال عليه بشتى الطرق : بالحبال والسكينة والمسدس . فاتفق عندئذ دخول رويس فألقى السكينة خلفه على البساط واختطف المسدس . ولما لم يجد لديه وقتاً ينتزع منه الرصاصات أخذ يطلقها فى الأرض الواحدة بعد الأخرى . ولكن المنتحر رأى أمامه طريقة أخرى للموت فاندفع إلى النافذة . فلم يسع المنقذ إلا أن جرى خلفه بالحبل محاولاً أن يربطه من ذراعه وقدمه ؛ وعندئذ دخلت الفتاة فأساءت فهم ذلك الصراع العنيف الذى كان بين الاثنين فأسرعت إلى والدها لتنقذه ، وعملت على هـذا حتى تقاطر منها الدم ، ولكنها استطاعت قبل أن تخور قواها أن تخلص والدها فهوى من النافذة إلى الأبدية !

فالتفت جليدر إلى رويس وقال : أظن أني لم أخطئ عندما قلت لك وللفتاة أنكما بعيدان عن القتل !

— فأجابه رويس : ولكن ألا ترى أنى قلت هذا لكى لا تعرف خطأها !

— فقال مرتون : لا تعرف ماذا ؟

— انها قتلت أباها أيها المنفل !

— انها ستجن لو أنها عرفت هذا

— فقال الأب براون وهو يتناول قبعته : لا أظن هذا . إني أفضل أن أخبرها بالأمر . فان أشنع جرائم القتل لا تسمم الأفكار كالخطايا . ثم انصرف

وبينما هو فى طريقه إلى منزله قابله أحد أصدقائه فقال له :

— لقد وصلت النيابة الآن وستباشر التحقيق !

فأجابه الأب براون : يؤسفنى ألا أحضره ! !

(يتبع)

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

الفستان الأبيض

للقصصي الانجليزي ستاكي أومونيير

بقلم الأديب نظمي خليل

عند ما يبلغ كل إنسان نهاية الطريق يقف المصور والمؤلف والمهندس والمثال ، كل يشير إلى عمله ويقول : « هذه هي آثاري ، سوف أنال بها تقدير الأجيال المقبلة » ولكن لا يبقى للممثل أو الموسيقي شيء إلا الذكريات التي تعلق بأذهان من يحبونها ؛ فقد تسمع إنساناً يقول لك « إيه بنيّ كان ينبغي لك أن تسمع فلاناً أو تشاهد فلاناً » ولكن لو لم تكن قد سمعت الموسيقي أو شاهدت ذلك الممثل فإن هذا الكلام لا يترك فيك أثراً ..

ولكن الممثل أسوأ حظاً من الموسيقي لأن الناس يحاولون الآن بمختلف الطرق أن يحتفظوا بآثار الموسيقي ، ولكن ليس ثمة وسيلة للاحتفاظ بتلك الحالات النفسية العنيفة التي يكون عليها الممثل في ليالي مجده . فقد مضت هذه في طيات الزمن وغابت في زوايا الأساطير

خطرت لي هذه الأفكار الحزينة لأول مرة عند زيارتي « لجيلين برامكر » . فقد قابلت هذا الشيخ المسن في إحدى دور الكتب برأسه الجميل الممتاز ، وشعره الأبيض المتموج ، قد حمل نفسه في خفة ظاهرة ونشاط موفور على رغم انحناء عوده وتقوس ظهره

كنت كثير التردد على تلك الدار فألقاه دائماً مكباً على الجرائد والمجلات التي كنت أرغب في قراءتها . ثم جرنا خطأ يسير وقع في أحد أعداد « مجلة السبت » إلى الخوض في حديث عادي أعقبه لفتة منه ، ثم حديث عن الجو ، ثم انحناءة من جانبه وسؤال عن صحته من جانبي إلى أن اتفق أن خرجنا من الدار يوماً وسرنا معاً حتى نهاية الطريق

لقد شعرت بالميل إليه منذ أول مرة ، فقد ملك عليّ شعوري تعبيرُه الدقيق الواضح وما يحمله من عاطفة قوية مكبوتة ، حتى أن ميله لأتفه الأشياء كان يثير في نفسي أعمق الذكريات . فإن قال « ما أبهج هذا اليوم ! لم يكن هذا القول اصطلاحاً مألوفاً أو قولاً معتاداً ، بل كان إفصاحاً عن الفرح والغبطة لحياة الربيع ، والشمس المشرقة ، والخراف الصغيرة وهي تثب وتقفز على حافة المراعي الخضراء ! ولو قال : إني جد آسف ! جواباً لقولك : أني نسيت تذكرة السيارة فاضطررت لدفع الأجر مضاعفاً ، خيل إليك أن جميع أنواع الحزن قد تجمعت في تلك السحابة من الدموع التي تطفر من عينيه !

دعاني يوماً لزيارته ، وكان يقيم في الدور الأول من منزل صغير وحيداً ليس معه إلا إمرأة نصف قد انسلت إلينا في خطى خفيفة سريعة . لقد كانت الغرف كما وصفها فقيرة ، ولكنها لم تكن بالغة حد الفقر . قد تناثرت فيها قطع الأثاث والصور التي تحمل أعمق الذكريات ، فأدركت حينئذ مكانة الممثل . فلو أنه كان مصوراً لاستطعت أن أنظر إلى بعض آثاره فأعرف قدره ، ولكن ماذا نعمل حيال

ممثل قديم قضى أكثر عمره فى الماضى ! إن الموقف كان يثير الإشفاق والحزن

لا ريب أنه كان ممثلاً قديراً فى زمنه ؛ هـذا ما شعرت به وإن كنت لم أدر شيئاً عن حياته الأولى . ولم أرد أن أعرف أى الأدوار التى قام بها ، لأنى شعرت أنه ينبغى لى أن أعرف هذا من نفسى . ولم يكن هذا الشخص بالفخور الذى يتحدث عن أعماله ، ولـكنى استطعت أن أعرف عنـه بعض الشىء من الآثار المتناثرة التى كانت فى غرفته . فقد رأيت صورة له فى دور « ملفوليو » وغيره من أبطال شكسبير ؛ ثم رأيت صوراً عديدة مهداة إليه من كبار الممثلين ، وبذلك أخذت أمسك بخيوط حياته شيئاً فشيئاً . ومهما يكن ذلك المركز الذى وصل إليه فى عالم التمثيل فيما مضى فأنه كان لا يزال محتفظاً بتلك القوة التى تهز شخصاً وتستبد به من أعماق روحه . فقد شعرت أن كل شىء فى تلك الغرفة يسمو كالخيال

وعند ما أخذ يتحدث عن أمه شعرت أن صوته قد خفت كأنه منبعث من أعماق بعيدة ، واستطعت أن أعرف من كلامه أن أمه كانت ممثلة فرنسية عظيمة ، فقد رأيت على البيان مروحة ثمينة مهداة إليها من الأمبراطورة أوجينى ؛ ولـكنه لم يذكر أباه طوال ذلك الحديث

لقد اعتدت الذهاب إليه كل يوم خميس منتهزاً فرصة خروج زوجى لزيارة عمتها العجوز فكانت كل زيارة تحمل إلى قلبى اللذة والسرور . لم يعرف شيئاً عن عالى كما أنى لم أعرف شيئاً عن عالمه . وأخيراً وقعت تحت سلطان رقيته ، وسرعان ما أدركنى الاشفاق على وحدته ، فأرسلت إليه أنا وزوجى بعض الهدايا وبعض النبيذ ، وكانت زوجى تصغرنى فى السن وهى كلفة بالرقص والمسرح ومجالس الطرب . ولا غرابة فى هذا فهى لم تزل فى شبابها النضر وجمالها المتفتح وعمرها الغض . إن شعرها .. لا ، إنى أستطرد فى هذا ... اتفق يوماً أن تقابلنا مع الممثل فى أحـد الأزقة فرأيت تغييراً كبيراً فى البطل الذى أعبده ، فقـد كان راتعاً فى ذلك اليوم يزرى بأشد الناس أناقة وجمالا . فلما قدمت إليه زوجى أمسك بيدها ثم قال :

حقاً إنها لفرصة سعيدة !

إن هذه الـكلمات لا تحمل سحراً ما دامت مرسومة فى حروف ، ولـكنها سحرت « أليس » فاحمر وجهها وفاض قلبها وشعرت أنه إنسان عزيز عليها

ثم مضت الأيام وأنا دائب على زيارته كلف بالوقوف على آثاره ومخاطراته الأولى ، حتى توثقت بيننا المودة ، وقويت الألفة ، وأصبحت أجد من نفسى الجرأة على فتح أدراج مكتبه والتطلع إلى كل ما بالغرفة من صور وآثار . حتى رأيت فى إحدى الليالى وقد تأخر بنا الوقت واستهوانا الحـديث ذلك الفستان الأبيض الصغير . لقد كان فستان فتاة صغيرة قد وضع كما طواه صانعه فى أعلى الصندوق . فأخذته فى يدى ودنوت منه وهو يرتشف شرابه وقلت له : « ما هذا يا مستر برانكيز ؟ » فحدق النظر فى الفستان وسرعان ما أدركت عليه الارتباك والدهشة وأحسست بشىء من الألم والندم يشيع فى نفسه وهو صامت ذاهل فاقتربت منه وربت على كتفه وقلت : « إنى آسف ! لا شك أن هناك قصـة ينبغى ألا ... »

فأمسك بذراعى وتمتم قائلا : « لا ، لا ، حسن

يا بنى . سأخبرك بهذا فيما بعد . ثم هب واقفاً وأخذ يخطو فى الغرفة جيئة وذهوباً دون أن ينطق بكلمة . ثم التفت إلىّ فجأة ووضع يده على كتفى وقال : « فلتأت إلىّ غداً ، ولتحضر زوجك معك . سأنتظركما على العشاء فسوف أحدثكما عن ذلك الفستان الأبيض الصغير »

لقد كانت زوجى ذاهبة إلى المرقص فى ذلك اليوم . ولشد ما أدهشنى أن رأيتها ترحب بزيارة مستر برانكير حتى أننى شعرت بشىء من الضيق لمصاحبتها إياى . لقد كانت معتادة تناول العشاء فى أحد الفنادق الكبرى ، فكيف ترضى بتناول الطعام فى بيت ذلك الممثل الفقير ؟ فنصحت إليها أن تلبس أقدم ما عندها من الملابس وأن تتناول بعض الشطائر قبل ذهابها ، ولكنها لم تقبل نصحى وارتدت أفخر ثيابها . فاستسلمت للأمر إذ لم يكن الاحتجاج ليجدي نفعاً . ومن هنا كانت دهشتى الثانية :

كان برانكير فى لباس السهرة فأثار فى هذا اللباس شعوراً خاصاً لم يتركنى طول الليلة ، فقد لاح لى أن زوجى وبرانكير من عالم غير عالمى . فأخذا يتجاذبان الحديث فى ألفة ووداد ، فيحدثها الشيخ فى وداعة ولطف ، ثم تجيب عليه بنظرات مشتاقة أخاذة حتى شعرت أني أكبرهما بأجيال وإن كان برانكير يكبرنى بأعوام

وفى العشاء كانت الدهشة الثالثة ، فقد كانت المائدة تفيض بأنواع من الأطباق التى تنم على سلامة الذوق ، وكانت الأنوار الكهربائية تسطع على أكواب الخمر وفناجيل القهوة . وبعد أن فرغنا من الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول المدفأة ثم قدم إلينا شراباً وأخذ يقول : « لقد بعث به إلىّ أحد الأصدقاء الأعزاء ، ولكنه واأسفاه قد مات ميتة شنيعة » ثم أمرّ يده على جبينه كأنه يحاول أن يدفن تلك الذكرى المؤلمة . وأخيراً التفتت إليه زوجى وقالت مازحة :

— ألست تنوى أن تحدثنا عن ذلك الفستان الأبيض ؟

فرفع رأسه الجميل المكلل بالشيب ثم مدّ ذراعه الطويل فأمسك بيد زوجى وضغط عليها وقال : « أرجوك أيتها السيدة العزيزة أن ترتشفى هذا الكأس لذكرى صديقى القديم » ثم أخذ يرتجف وهو يدنى كأسه من شفتيه ولكنه كان لا يزال تأثر العاطفة فأعقب الأولى بأخرى

لقد كنت مخموراً بصداقة ذلك الممثل وما لديه من ذكريات وآثار فأشرت إلى الصورة التى كانت مهداة إليه من « هنرى ارفنج » بتوقيعه « إلى صديقى العزيز ... » ولكن برانكير هزّ كتفيه وأخذ يتنهد تنهدات عالية . ربما لم يكن يجد فى هذه الآثار ما يدعو إلى الفخر ، وربما كانت هذه فى نظره شيئاً تافهاً

ثم أعادت عليه زوجى سؤالها عن الفستان . فانحنى أمامها ومضى فى صمت إلى الصندوق ثم عاد به ونشره فى خشوع وتقديس على ظهر المقعد ، فعجبت أليس لمرآه ، أما هو فقد أخفى رأسه بين يديه وغاب فى صمت عميق ، فبقيت أنا لا أفكر إلا فى ذلك الموقف الرهيب الذى وجدت فيه نفسى ، فقد كانت الغرفة كلها مثقلة بالذكريات ، وكانت زوجى قابعة فى مقعدها تسطع على وجهها الجميل الشبيه بوجوه الأطفال الأنوار فتزيدها فتنة وجمالاً . وفى الجانب الآخر من المدفأة جلس الشيخ فى شعره

الأبيض المتموج كأنه مائل يتحدث عن ماض حافل بالمآسى والآلام . ثم الفستان الأبيض الصغير ! !

وفجأة اندفع الشيخ يقول : « كان هذا قبل أن تأتيا إلى هذا العالم ، فأنكما لاتذكران فرقة تشارلس كارسيد الشهيرة التى كانت تعمل تحت اسمينا . لقد كنا نمثل فى مسارح حاشدة وكنا فى تلك الأيام ...

ثم التفت إلى واستأنف حديثه قائلاً : « كان هناك ممثلون ! فالملهاة والمأساة والقصة التاريخية ، كل هذه كان لها نصيب كبير من عنايتنا ، حتى لقد كنا نغير أسمارنا كل ليلة بل مرتين فى الليلة الواحدة . كذلك كنا نغير أدوارنا ، فقد كنت أقوم بدور «عطيل» مرة ثم «ياجو» فى ليلتين متعاقبتين . كذلك كان صديقي أوبان ، فقد كان يترك لى دور « شيلوك » ويأخذ منى دور « بسانيو » ... أوه . لن أثقل عليكما بهذه التفاصيل . آه . أوبان تيرى المسكين ! صديقى العزيز تيرى !!

ثم وقف عن الكلام وأطرق إلى الأرض وشملنا صمت رهيب !

ثم استأنف حديثه قائلا : « إذاما قلت لكما إننا كنا أصدقاء فإنى أعنى بهذا أننا كنا أصدقاء كما يمكن أن يكون الفنانون حباً وإخلاصاً وتفانياً . لقد عملنا معاً ثلاث سنوات لم تعرف الغيرة طريقها إلى نفوسنا ، ولم يدب الحقد يوماً إلى قلوبنا

آه على تلك الأيام !!

ثم مد أصابعه البيضاء وتفرس فيها ثم التفت إلى زوجى وقال :

« أرجوك أيتها الفتاة (وقد أصر على أن يدعوها هكذا طول الوقت) أن تعذريني لما سأقصه عليك الآن . فقد كان الحب فى أيام شبابي غيره الآن . لم يعد الحب اليوم إلا اغتنام فرص . ما من أحد لديه الاستعداد للتضحية . أما الحب بينى وبين أوبان فقد كان قصة التضحية والفداء . وكان المحك لهذا انضمام « صوفى » إلى فرقتنا

ثم هب واقفاً وأخذ صوته يرتجف ويخفت حتى أصبح همساً !

ثم التفت إلى اليس وقال : لقد كانت جميلة فاتنة مثلك أيتها الفتاة ! كيف أبوح بهذا السر الهائل الآن من غير وعى !!

نظر كل منا إلى صاحبه ولكنا لم نقل شيئا . لم نشر إليها فى حديثنا فقد كان كل منا حريصاً على شعور صديقه . غير أنى لو لم أكن أعرف حب أوبان لها لذهبت إليها وقلت « صوفى ! معبودتي ! ملاكى ! إني أحبك . إنى أعبدك ! ألا تتزوجين منى ؟ ولكن هل كان من البطولة أن أفعل هذا ؟ وأنا أعرف عواطف أوبان نحوها ! إلى أن أحسست يوماً أني لا أستطيع حبس عواطفى فنظرت إلى صديقى فرأيت فى عينيه ماشعرت به فى قلبي فدنوت منه وهمست فى أذنه : « أيها الزميل فلتتقدم أنت ولتكسب ذلك القلب ، إنها جديرة بك ! » فأدرك ما أبغى ثم ضغط على يدي وقال : إنك محق يا صاح . إن هذا لا يمكن أن يبقى طويلا . فلتقابلنى بعد الحفلة فى غرفتي

ثم دنا الممثل من زوجى وقال: «إنى لا أستطيع أن أحدثكما عن ذلك الغرام الذى حفل به لقاؤنا فى تلك الليلة . فقد أراد كل واحد أن يفسح الطريق لصديقه . حقاً إنها كانت ساعة رهيبة مثيرة ! وأخيراً قرّ عزمنا على ترك المسألة للظروف . ثم انصرفنا إلى لعبة الشطرنج ، فصففنا القطع وبدأنا نلعب ولكنا

لم نلبث أن وجدنا أن كل واحد منا يحاول أن يترك الفوز لصديقه فنهضت وقلت له : « يجب أن نترك الأمر إلى القدر الذى لا يعرف التحيز ! »

ثم تناولت أكبر وردة كانت أمامى وقلت سأعد أوراق هذه الوردة فإن كان العدد كبيراً فسأتركها لك . ثم أخذت أعبث بالوردة حتى وصلت إلى الثامنة والخمسين امتقع وجهه وارتجفت مفاصله فأوصلته إلى مقعد مريح وأعطيته منبهاً . ثم التفت إلى النافذة فرأيت الطيور ترفرف حولها وأشعة الفجر قد أخذت تلوح من وراء الزجاج

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى كنت جالساً إلى صوفى أبثها غرامى . ولكن هناك أشياء لها من القداسة ما يجعلنى أتردد فى ذكرها

لقد رفضت ، ولكنها كانت رقيقة عذبة حتى فى رفضها ، ومع ذلك فلم تكن قد وصلت إلى رأى حاسم فى الأمر . فاستولى علىّ نوع من اليأس القاتل. وليس هذا غريباً عنى فإن الإنسان في تلك السن يطلب كل شئ فى وقت واحد . فبقيت أداعبها أسبوعاً صباح مساء ولكنها بقيت مترددة :

لقد كانت تميل إلىّ ولكنها لم تكن تحبنى . وفى نهاية الأسبوع ذهبت إلى أوبان وقلت له : « أيها الصديق لقد جاء دورك فقد قمت بدورى »

ثم خرجت من الميدان . ولا أزال حتى الآن أذكر ذلك الأسبوع الذى رأيت فيه أعز أصدقائى يحب الفتاة التى أعبدها !

وفى نهاية الأسبوع جاءنى صديقي يقول : « إنى لا ادري مكانى الآن . فهى تميل إلىّ ولكنى لا أكاد أعتقد أنها تحبنى »

لن أسرد عليكما تفاصيل مناورتنا التى حدثت بعد ذلك . ولكنا عندما رأينا الموقف متماثلاً عزمنا على أن ننزل ميدان الكفاح فى معركة مكشوفة وإلا فقدناها نحن الاثنان . فقر رأينا على منازلتها فى أى وقت وفى أى مكان . ومضينا فى هذا الشوط ثلاثة أشهر . وفى النهاية كان أوبان الفائز . فبقيت أترقب فى كل لحظة تلك الأخبار المزعجة السارة إلى أن حدث أمر كان مستوراً

ثم غاص فى كرسيه وأخذ يمر أصابعه فى شعر رأسه فى خفة وسرعة . ثم استأنف حديثه فقال : « فقد توفى عمّ أوبان وترك لابن أخيه ثروة هائلة ، ثروة لايحلم بها البخيل ، ففرح بهذا جميع أصدقائه إلا شخصاً واحداً » . ثم نظر إلى زوجى وتنهد قائلا : « لقد عشت أعواماً طويلة ولكنى وجدت أن قلب المرأة عميق لا يمكن ارتياده وسيظل هكذا إلى الأبد ... فقد رفضت صوفى أن تتزوج من أوبان مخافة أن تتهم بأنها رضيت به زوجاً من أجل ثروته . إنى لن أنسى ألم تلك الأيام وهولها . لقد أعلنت رفضها فى صراحة وقوة ، وبقيت أنا موزعاً بين حبى لأوبان وحبى لصوفى ... إنى أستطيع أن أقول بكل صدق : إن المال قتل أوبان . فقد أخذ يبعثره فى الشراب واللعب وعاش عيشة التبذل والسرف لا لشىء إلا لأن المرأة التى أحبها رفضت أن تتزوج منه ... ثم مالبث أن أغرم بمخلوقة جميلة تسمى أنابيل فتزوجا وأعقبا طفلة

كانت ألسنة النيران تندلع وزوجى محدقة النظر فى عينى الممثل وهو ماض يقول : « وهنا بدأت أنظر إلى المرأة من جديد ! فان صوفى التى رفضت أن تتزوج من أوبان لأنه غنى ، والتى كانت

تضطرم غيظاً إذا مارأت أنابيل قد أغرمت بطفلتها الصغيرة . لقد صبرت عليها كثيراً أملاً فى إرضائها وكسب قلبها ... ولكنى لم أفلح ... أتصدقان أنى أعيش عشر سنوات عبداً لها وهى تقضى هذه المدة عبدة لتلك البنت الصغيرة ؟ !

لقد ضحيت كل شىء من أجل أن أصحبها فى جولة أو أتحدث إليها فى زيارة ، ولكن المرأة التى كانت تعبث بى كدمية صغيرة كانت تكرس وقتها ومالها لشراء اللعب والفساتين لابنة أوبان ، أتتصوران هذا ... ؟ ! »

فأجابته زوجى للمرة الأولى : نعم . فأشار إليها الرجل برأسه وقال : ما من عمل يكون بين الرجل والمرأة إلا وتكون نتيجته ضرراً للرجل

ففى النساء إلهامات وأحاسيس خفية نتفقدها فى نفوسنا فلا نجدها ، فالمرأة مسلحة من كل جانب وهى أوسع حيلة من الرجل وأكثر استعداداً

ولكن لم يمض عامان على زواج أوبان حتى استيقظ ذات ليلة وقد شعر بألم شديد فأسرع إلى دواء كان يتعاطاه دائماً ولكنه طاش هذه المرة فتجرع حامضاً كانت صوفى قد أحضرته لتحميض الصور . فاندفع إلى الشارع وهو بملابس نومه وأسلم روحه بين أذرع الشرط

لقد كان هول ذلك الحادث مطبوعاً على جبينه فتألمنا لسماعه حتى كادت الدموع تنبجس من أعيننا

ثم تقدمت بنا السنون وحب صوفى لابنة أوبان يزداد واهتمامها بها يشتد ، إذ كانت أمها برغم الثروة التى تركها زوجها لاتزال تحن إلى ماضيها الملوث المستهجن حتى خشينا على أخلاق الابنة منها ولا سيما أنها لم تكن دائمة السهر عليها إذ كانت تزورها من وقت إلى آخر ، فتحضر لها أثمن الملابس و أفخر اللعب ثم لا تلبث أن تنقطع عنها وتنساها . فنشأت الفتاة على طباع أمها مخورة مسرفة مستهترة ! فلم يكن يهمها فى الحياة وهي الفتاة التى لم تتجاوز العاشرة إلا الزينة والتبرج . غير أنها طفلة جميلة فاتنة ! فقد كان فيها كل جمال أمها مع بعض رشاقة والدها وخفته . فتركت الفتاة وشأنها تجالس الفتيات الساقطات وتستمع إلى الكلام السوقى والنكات النابية .

لقد أحبت لوسى عمتها صوفى (كما كانت تدعوها) لا لشىء إلا لأنها كانت تغدق عليها اللعب وتغمرها بحبها القوى العنيف إذ كانت تكتب إليها كل يوم وترسل إليها الهدايا من وقت إلى آخر .

ثم جفف الشيخ جبينه كأنه كان يزيح تحت أعباء ذكريات ثقيلة مجهدة ، ثم نهض إلى إحدى زجاجات النبيذ وملأ كأساً وأفرغها فى فيه ، ثم أعقبها بأخرى ، ثم عاد إلى مكانه وهو ذاهل عنا كأنه يعيش فى ماضيه البعيد ، ثم التفت إلى زوجتى وقال :

— لدى كثير من الفساتين الجميلة التى كانت صوفى تصنعها للوسى يمكنكما أن تريا إذا سمحتما بزيارة أخرى

قال هذا فى توسل ورجاء حتى أننى أحسست أن قلبى يكاد يقطر دما ! !

أما زوجى فقد كنت أعتقد أنها ستقوم فى تلك اللحظة وتجول في الغرفة باحثة عن باقى الفساتين ، ولكن ما أشد دهشتى إذ رأيتها صامتة فى مكانها تنظر بعين حائرة لايعرف معناها إلا بنات جنسها ! ثم مضى الشيخ فى كلامه كأنه يتحدث إلى نفسه :

والفساتين ! أى دور تلعبه الفساتين فى حياتنا ! لقد كان كارليل صادقاً فى قوله هذا . لقد كانت صوفى ماهرة فى أشغال الإبرة وقد ساعدتها تجاربها فى المسرح على هذا فكانت تصنع أروع أنواع الفساتين . إن أزمة حياتى التى سأحدثكما عنها كان بسببها أحد تلك الفساتين التى صنعتها للوسى . ثم صمت قليلا وأخذ يدق على المائدة بيديه الجميلتين ثم قال : « كان هذا العام الفائت فى العيد العاشر لميلاد لوسى ، وكانت أنابيل قد تردت فى الهاوية حتى لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الفتاة ، حتى أحسست بهذا ، أنا الذى تحطمت حياته على حب صوفى لتلك الفتاة . لقد كان قلبى يتمزق من أجل ابنة صديق ! فقمت مع صوفى برحلة طويلة فى الخريف ، وقد كنت معها التابع المطيع . ولكن الجو كان رديئاً والمرض متفشياً . فأصابها برد ما لبث أن انقلب نزلة صدرية ، وفى أثناء مرضها جاءها خطاب من لوسى تطلب منها فستاناً جميلا يزرى بفساتين زميلاتها يوم عيد الميلاد . فتهلل جبين صوفى وشاع الفرح فى كل قلبها . إيه ربى ! لقد كانت تحلم فى أشد حالات المرض بالهدية التى ترسلها إليها . وأخيراً قالت لى : « سأصنع لها فستاناً خالياً من أى زركشة ، وإنى واثقة من أنه سيزرى بباقى الفساتين بفضل جمال لوسى . فأعجبت برأيها ومضيت معها نشترى الفستان

ثم اشتد عليها المرض فى الأيام الأخيرة حتى أنها لم تعد تتحرك إلا بفضل تلك الطاقة العصبية التى بقيت حية فيها حتى تتم الرحلة وتنجز فستان لوسى قبل مجىء العيد .

وأخيراً عدنا إلى لندن وقد اشتد بها المرض ولم نكن قد أعددنا المنزل فتركتها فى صحبة صديق لى ومضيت كالمجنون إلى حيث تقيم لوسى . فألقيت بنفسى فى إحدى العربات وألقيت بالعنوان إلى الحوذي وأمرته أن يطير بى إليه . ثم وضعت الفستان على ركبتى وانحنيت عليه فى رقة وحنان كما لو كان طفلاً يحتضر

لا أدرى كيف وصلت إلى هناك فقد خيل إلىّ أنى سائح فى الأبدية

لم تكد ترانى لوسى حتى صاحت قائلة : مرحباً لقد ظننت أن عمتى صوفى قد نسيتنى فاستأجرت هذا الفستان !

فأجبتها : بنيتى إن عمتك لم تنسك بل كانت تجود لك بآخر قطرات قلبها . هاك الفستان . فأخذته فى يديها وألقت عليه نظرة فاحصة وقالت : أفستان هذا أم جلباب نوم ؟ لست فى حاجة إليه ، ثم انسلت إلى غرفتها

فلم أتمالك نفسى من الغيظ وهممت أن أفتك بها لولا أنى تذكرت أنها ابنة صديقى القديم

كيف أعود إلى صوفى بالفستان ثانية وهى تجود بآخر أنفاسها ؟ فأردت أن أحتفظ به كأعز شىء لدى الحياة !

* * *

فلما خلوت إلى زوجى فى منزلى سألتها : ما الفارق بين الواقع والخيال ؟ فأجابتنى وهى تطفئ نور الغرفة : إنى لا أعرف ما يتفلسف به الناس ولا أعرف من الحياة إلا أنك زوجى العزيز الساذج

فقلت لها : ماذا تعنين يا أليس ؟

أجابت : أنى لك أن تدرك طبائع المرأة !

ثم أصرت على النوم ! !

نظمى خليل

أسطورة هندية

الفلاح والتاجر

للباندیت تاراشندروی

نقلها عن الألمانية

الأديب ابراهيم ابراهيم يوسف

يحكى أن تاجراً كان يسكن قرية من قرى الهند ؛ وفيما هو سائر ذات يوم فى طريقه إلى المدينة المجاورة ليستجلب بضائع جديدة لقيه فلاح يبغى هو الآخر الوصول إلى المدينة ليدفع إلى أحد أصحاب البنوك قسطاً من المال استحق عليه من دين كان قد اقترضه الجد الثانى له ، وأصبح القرض الذى كان مئة روبية عشرة أمثال ذلك بعد خمسين سنة

وكان الفلاح المسكين يسير فى طريقه مفكراً فيما عساه أن يفعل لحماية أرضه كيلا تقع فى يد ذلك المرابى

وسأله التاجر : إلى أين أنت ذاهب يا شاود هرجى ؟ أللمرابى لتدفع إليه قسطاً من المال ؟ وهلا فكرت فى طريقة تحفظ لك أرضك ؟

فأجاب الفلاح وكان مستغرقاً فى تفكيره المضنى : ياشاه جى ، ما ذا عساى أن أفعل ؟ لقد اقترض جدى الثانى مئة روبية فأصبحت الآن عشرة أمثالها — ألف روبية كاملاً ... أنعم النظر فى ذلك واعلم أنه ليس فى الوسع إبقاء هذا الدين العظيم حتى لو قدمت للمرابى الأرض التى أمتلكها

فأجاب التاجر : يا شاود هرجى . لم هذا التفكير السقيم وليس من طائل تحته ؟ إن الأمور تسير كما كتبت من قبل فى لوح القدر ، وإذا ماشغلنا أنفسنا بأمور مضنية كهذه فقد يمتد الطريق ويطول إلى ما لا نهاية . والأولى أن نتحدث فيما نتسلى به

— أنت على حق يا شاه جى ، فالقضاء لامفر منه وأروح للنفس أن نقص شيئاً من الطرائف والنوادر ، ولكن مالنا لا نضع شروطاً للحديث قبل البدء به

إذاً لا ينبغى ألا يشك أحدنا فى صحة قول الآخر ، وألا يعترض قوله ألبتة ، حتى حين يتراءى له أن كلامه غير محتمل الوقوع ، أو أنه مبالغ فيه كل المبالغة ؛ وعلى الذى يخالف هذه الشروط أن يدفع للآخر ألف روبية

فقال التاجر : أوافقك على هذا كله على أن يكون بدء الحديث لى :

وبدأ التاجر فقال : أنت أدرى بأن الجد الثانى لى كان محترماً موفور الرزق

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولما أن بدأ بالتجارة رحل إلى الصين فى مئة سفينة ، فأصاب فيها مالا كثيراً ورجع إلى وطنه يرفل فى نعمة اليسر ويسبح فى محيط من الترف والنعيم

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وأحضر من تلك البلاد النائية ما عز

ونذر . وكان من بين هذه الأشياء صنم صغير من الذهب أمره عجيب ، فقد كان يكشف هذا الصنم عن مستقبل كل من يستكشفه مستقبله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وكثر أصدقاء جدى الثانى الذين حضروا وتمكنوا بواسطة ذلك الصنم من أن يطلعوا على مستقبلهم . وفى ذات يوم حضر جدك الثانى لدى جدى الثانى ، وما لبث أن حادث الصنم فسأله:

من هم أذكى الناس فى العالم ؟

فأجاب الصنم : التجار

ثم سأله ثانية : ومن هم أغبى الناس فى العالم ؟

فكان الجواب : الفلاحون

ثم أعقب بسؤال آخر إذ قال : ومن سيكون أغبى شخص فى ذريتى ؟

فأجاب الصنم : شاود هرجى هو شيار سنج

وكان هذا اسم صاحبنا الفلاح الذى قال : لقد قلت صدقاً يا شاه جى

وكانت كلمات التاجر هذه تخز صدر الفلاح ، إلا أنه كظم غيظه وأسر في نفسه معتزماً إذا ما جاء دوره ليقص حكايته أن يضطره إلى دفع الثمن غالياً

التاجر — وكثر الراغبون فى شراء الصنم ، ولكن أمره كان قد بلغ الملك ، فاستدعى جدى الثانى وطلب منه الصنم وكافأه على ذلك بأن جعله رئيس وزارته

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — وبقى جدى الثانى فى منصبه هذا عهداً طويلاً وبلغت شهرته العالمين . ولما أن توفى ، خلفه جدى الأول ؛ ولكن الملك لم يكن ليرتاح إليه لشدة تعصبه لآرائه . وفى ذات مرة بلغ النقاش فى مسائل الدولة حداً قصيًا . وغضب الملك غضباً مستطيراً ، وما ذلك إلا لرزانة جدى الذى كان يدافع عن آرائه السياسية ويدعم صحتها بالإثبات فى هدوء وتؤدة . فمنعه الملك من أن يتابع قوله ، ولكن جدى صرخ فى وجه الملك بصوت كالرعد أفهمه به أنه لا يفقه فى سياسة الدولة مقدار ذرة . وشعر الملك إذ ذاك بأنه أهين فى الصميم وأمر بأن يرمى جدى إلى فيل مفترس ليغتاله

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جى

التاجر — ولكن ما إن رأى الفيل جدى حتى ذهبت عنه وحشيته ، وتقدم إلى جدى فى رهبة وخشوع ، ثم أحاطه بخرطومه ورفعه إلى ظهره

الفلاح — حسن جداً يا شاه جى ! حسن جداً

التاجر — ودهش الملك كثيراً لما وقع أمام بصره ، فانحنى قدام جدى وسأله المغفرة ورفعه إلى منصبه ومنحه لقب « من لا يجارى »

الفلاح — هذا بديع يا شاه جى ، بديع جداً

التاجر — ولما أن توفى جدى هذا عين أبى وزيراً خلفاً له ، إلا أنه فضل مهنة التجارة على منصب الوزارة ، ومكنته فطنته ومقدرته التجارية من اكتساب مال وفير استعان به على أن يجتاب العالم من مشرقه إلى مغربه . ورأى فى تطوافه هذا أشياء عجيبة ، منها أنه لاحظ ذات يوم بعوضة تتردد على أذنه وتطن ؛ ولكى يبعد أبى عنه هذه الوافدة سأل البعوضة فى كثير من التأدب ألا تضايقه ؛ فقالت له البعوضة :

— يا أكمل وأشرف من رأيت من التجار ، لقد سررت بطبيعتك السمحة ، ولذا أود أن أسدى إليك جميلاً

وفتحت البعوضة فاها فإذا أبي يرى بين أحشائها قصراً جميلاً كل شيء فيه من الذهب الإبريز ، وقد جلست إلى إحدى نوافذه فتاة آية في الحسن والجمال ، ووقف أمام مدخل القصر فلاح يريد أن يختطف تلك الفتاة قوة واقتداراً ، فلم يطق أبي صبراً على تلك الحال ، وكان معروفاً بأنه أشجع من دب على الأرض ، فقفز فوراً إلى فم البعوضة ليحمي الفتاة من اغتصاب الفلاح

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ومرت به لحظة اشتمله فيها الظلام ، ولكن ما لبث أن رأى مرة أخرى القصر والفتاة والفلاح ، فانهال على الفلاح حتى صرعه ، ولاشك أن كل عضو من أعضاء الفلاح كان يتهشم لولا أنه أخذ يستحلف أبي أن يعفو عنه وهو ينتفض من كل جسمه . والآن أتعرف من كان ذلك الفلاح؟ إنه كان أباك بالذات . وما إن تم لأبي هذا الانتصار حتى تزوج من تلك الفتاة الحسناء التي اتضح أنها أميرة . وهكذا آل إليه ذلك القصر الذهبي . ثم التحق أبوك بخدمة أبي وصار حارس الباب ، وكان عليه أن يقف لدى الباب ليل نهار ؛ وولدت أنا في ذلك القصر ، وكنت في سن الخامسة عشرة حينما أمطرت السماء ذات يوم ماء في درجة الغليان ، فذاب القصر بفعل المطر ونشأ في موضعه إقيانوس من الماء الأجاج ، وما لبث أن اجترفنا التيار ، غير أنا بذلنا جهوداً لا يمكن وصفها وتمكنا نحن الأربعة من الوصول إلى الشاطىء

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أجلنا الطرف فيما حولنا رأينا وياللدهشة ما رأينا أننا في مطبخ . ونظرت إلينا الطاهية نظرة فزع كما لو مسها الخبل . وحاولنا المستحيل لنقنعها بأننا بشر مثلها ولسنا من الجان . فقالت أخيراً :

ما أبدع هؤلاء البشر الذين يخرجون من ماعون يغلي فيفزعونني . وسألناها الصفح وقلنا لها : ما كنا نبغي أن يصبح مصيرنا إلى الماعون ، فمذ خمسة عشر عاماً كنا نسكن في قصر فخم مشيد بين أحشاء بعوضة

وما إن أدركت الطاهية ذلك حتى صاحت :

وي ! الآن أذكر أن بعوضة عضتني منذ خمس عشرة دقيقة ، وهاهو أثرها . ولما آلمتني عضتها أرقت دمها وسقطت نقطة منه في الماعون ، ولم أكن لأعرف أنكم بقصركم ضمن هذه النقطة

وقال أبي : أيتها المرأة الطيبة القلب ، الآن يمكننا أن نفقه سر وجودنا في الماعون دون قصد ، وذلك بعد أن ذكرت ماذكرت ، لم تكن سنواتنا الخمس عشرة إلا دقائقك الخمس عشرة . وهكذا تحققت لي هذه القوة والعظمة في خمس عشرة دقيقة ، وإن كان لي من العمر خمس وعشرون سنة فاني في الحقيقة لا زلت في سن العاشرة

الفلاح — هذا صحيح يا شاه جي

التاجر — ولما أن خرجنا من جوف البعوضة علمنا أننا كنا نسكن ناحية أخرى غير التي نسكنها الآن . وافتتح أبي هنا ، وكان من قبل وزيراً ، متجراً وكنت أساعده في عمله ، إلا أن جو المكان لم يوافق صحة أمي بحال . فلما قضت نحبها حزن عليها أبي حزناً مبرحاً ولم يستطع . وقد فقد كثيراً من قوته أن يجابه الحياة عقب ذلك المصاب الجلل . فلما مات توليت بنفسي شئون المتجر . ولقد تعلم ياشاه وهرجي

علم اليقين قدر انتعاش التجارة على يدى . هذه قصتى ...

والآن اقصص على يا شاودهرجى ما شئت

الفلاح — ياشاه جى إنك لصادق فى قصتك كل الصدق . والآن استمع إلى قصتى التى لا تقل عن قصتك صدقاً

كان جدى الثانى أغنى فلاح فى القرية وكان جميل الطلعة معتدل القامة واسع العلم ذكي الفؤاد ، محبوباً أينما حل، يتسارع إليه كل ذى غرض ، وكان يسدى المعونة إلى فلاحى القرية عند الحاجة فيقدم إليهم مواشيه ورجاله ، وكان يحكم بينهم بالقسط إذا ماجاءوا إليه متخاصمين . ولم يكن ليأخذ أجراً مادياً على ما يؤديه لهم من خدمات . فقدره الملك حق قدره وأفاض عليه من الأوسمة أعزها ، وكان إلى ذلك كله أعظم من بيهم ورستم [1] ولهذا لم يجرؤ مخلوق أن يعترضه فى شىء

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وحدث مرة أن أصيبت قريتنا بالمجاعة بعد أن حبس عنها المطر وجفت البرك والآبار والأنهر ، وقل علف البهائم فماتت زرافات ووحدانا . ولما رأى جدى الثانى ذلك أعمل الفكر ودعا الفلاحين جميعاً إلى حفل ثم قام فيهم خطيباً وقال :

إخواني الأعزاء

أردت أن أعرض عليكم اقتراحاً لا ريب أن فيه نجاة لكم . وهأنذا أطلب إليكم أن تتركوا لي أرضكم كافة قدر نصف سنة وأنا كفيل بفلاحتها وسوف ترون رأي العين أن نتاجها سيصير وفيراً ومن ثم لن تبقى لنا بعد اليوم شكوى

فوافقه الفلاحون على رأيه ، وشكر لهم جدى الثانى قبولهم اقتراحه شكراً جزيلاً ؛ وبدأ يستعد للعمل، ودفعة واحدة حمل القرية بأكملها فوق رأسه

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وانتقل والقرية بأكملها على رأسه من موضع لآخر باحثاً عن الماء فاجتاز العالم بأجمعه وكان كلما وجد مطراً استسقى الأرض . وبقى على هذه الحال ستة شهور حرث خلالها الأرض وفلحها وزرعها وجاء المحصول عظيما لا مثيل له ، فقد بلغت عيدان القمح والأذرة من العلو درجة لامست فيها عنان السماء .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكانت كل حبة من حبات القمح والأذرة فى حجم رأسك .

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وهرع الناس من كل فج عميق تسأل جدى الثانى أن يبيعهم غلالا .

وكان الفلاح والتاجر قد وصلا فى هذه اللحظة إلى المدينة ، وتابع الفلاح قص حكايته فقال :

وكان الجد الثانى لك فى حالة من الفقر يرثى لها فعطف عليه جدي الثانى ووكل إليه بيع الغلال

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

الفلاح — وكان لا عمل لجدك الثانى إلا أن يزن الغلال طيلة يومه . ولكنه لم يكن موفقاً فى عمله فكان مرة يطف الكيل ومرة يبخسه . ولزاما لذلك كثيراً ما كان يُشعر جدى الثانى جدّك الثانى بيده القاسية تهوي على مواضع من جسمه

(١) هما شخصيتان خرافيتان فى الأقاصيص الهندية لا مثيل لهما فى القوة والجبروت

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

وكانا قد وصلا فى هذه الساعة إلى مكتب المرابى فحييا وجلسا . ثم استأذن الفلاح المرابى فى لحظة . ثم تابع حديثه مع التاجر

الفلاح — ولما بيعت كل الغلال لم يبق لجدى الثانى حاجة إلى جدك الثانى فصرفه . ولسوء حظ جدك الثانى وقع مرة أخرى فى ضنك أتعس من الحالة الأولى ، فجاء إلى جدى الثانى وطلب إليه أن يقرضه مئة روبية فأعطاه جدى الثانى المبلغ المطلوب لساعته لما عرف عنه من طيبة القلب

التاجر — هذا عين الصدق يا شاودهرجى

وعندئذ قال الفلاح بصوت يسمعه المرابى :

إن جدك الثانى لم يف هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجي

الفلاح — ولم يحاول جدك الأول ولا أبوك إيفاء هذا الدين

التاجر — هذا صحيح يا شاودهرجى

ثم إنك أنت حتى الآن لم تف دينك هذا

التاجر — هذا صحيح

الفلاح — وأصبحت المئة الروبية بعد انقضاء خمسين عاماً وبعد ضم الفوائد إليها ألف روبية . ولهذا فأنت مدين لى بمبلغ ألف روبية

التاجر — هذا ... ... هذا صحيح

الفلاح — والآن وقد اعترفت أمام المرابى بالدين الذى عليك أرجو أن تتفضل بدفع هذا المبلغ توا حتى أستبق لى أرضى

وذهل التاجر كمن انقضت عليه صاعقة . وما كان فى وسعه أن يتنصل من كل ما ذكر ، فقد اعترف صراحة بالدين أمام شخص ثالث ، وإذا ما عارض الفلاح فى كلامه فقد يتحتم عليه أن يدفع الجزاء المقرر وهو ألف روبية كما اشترطا بادىء ذى بدء ، ثم عليه وقد اعترف بالدين أن يدفع إلى المرابى ألف روبية أخرى

ومهما قلبت المسألة على مختلف وجوهها فقد كسب الفلاح الماكر المعركة ، ولم تعد للتاجر حيلة ، فأخرج كيس نقوده وهو يتميز من الغيظ وقلبه مفعم بالأسى ودفع إلى الممول الألف الروبية .

وعند ما افترقا قال الفلاح لصاحبه :

يا شاه جي ، يضحك كثيراً من يضحك أخيراً .

فقال التاجر — هذا صحيح

واندفع فى طريقه وحيداً لا يلوى على شىء

ابراهيم ابراهيم يوسف

تاريخ الأدب العربى

الأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

فى حوالى ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم

فى صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب

أقصوصة عراقية

ثورة الجهل

بقلم يعقوب بلبول

شعور مخيف مضطرب مغر بحب الاستطلاع كان يعرو وائلاً البدوى حينما كان يستمع إلى المذياع فى مقهى قرية المحمودية ؛ فلقد كان من قبل يعجب للحاكى كيف يعيد الكلام فما بالك بهذا الصندوق الصغير ، يتلو القرآن وينشد الأغانى ، ثم يتكلم وكأنه رجل بأحاديث إرشادية أو صحية ؛ بل ربما صغى إلى نظم الأشعار صادرة عنه ؛ وهو حين يذكر « عنه » لا يدرى بالضبط ما تعنيه هذه الكلمة فى قوله ؛ فلم يكن فى هذا الصندوق أنبوب يبعث الأصوات كما فى الحاكى ؛ وكان فى بعض الأحايين يسمعه ناشزاً بموسيقى تارة ضخمة عريضة الصوت وأخرى دقيقة رقيقة . غير أنه لم يكن ليجد بين أصواتها تآلفاً ولا نظاماً ؛ فما كان يفهم لها معنى ، أو يعتبرها موسيقى ؛ فقد كانت تنفر منها أذنه وينبذها حسه ؛ إذ أن الموسيقى التى اعتاد الاصغاء إليها والتلذذ بها ، كانت تلمس أوتار قلبه وحواسه ، فيطرب لوقعها ، وينصت إليها بشوق وتلهف .

ولقد كان يحار أشد الحيرة فى تعريف هذا الصندوق وتعليل منشأ أصواته وأغانيه وأحاديثه ؛ حتى أن الحاكى كان أقرب حقيقة من عقله الساذج المحدود ، فهو يعلم أنه يسير بمقدرة خادم المقهى الذى يدير ساعدته ، وبالاسطوانة التى يضعها فوق سطحه المستدير ، ثم بالابرة المجددة فى كل حين . وهو يعلم بأن الحاكى يمكنه أن يعيد ما فى الاسطوانة من أغان دون القدرة على الابتكار والتجديد ؛ أما أن تعبث أصابع أبى عبطان — وهو صاحب المقهى — بلولب خشبى صغير ، فيسمع من ذلك فى كل يوم سوراً جديدة من القرآن ، ومبتكرات حديثة من الأغانى والأناشيد ، وأحاديث أخرى متباينة عما سبقتها ، وقصائد منظومة ، وأخباراً متجددة عما يحدث فى البصرة وفى بغداد وفى مكة ، فذلك ما كان يعجز عن تصديقه ، فيربك خواطره ويشغل باله !

ولقد حسب أول الأمر أن فى داخله جنا ؛ غير أنه ما لبث أن نفى هذا الحسبان لوثوقه الأكيد من أن الجن لا يعرفون تلاوة القرآن ، وإن كان باستطاعتهم إنشاد الأغانى والتهويش فأنى لهم برواية الأخبار والوقائع ؟ حتى لقد سمع يوماً هذا الصندوق يقول إن الحكومة قد شرعت فى تعبيد طريق (المحمودية — بغداد) فكان ما قاله الصندوق صحيحاً ليس فيه أدنى اختلاق ... وأنى لهم بالخطب الارشادية والصحية ومقطوعات الأشعار والقصائد يلقونها على مسامعه ...؟

وكان عقله الصغير يأبى أن يعقل أن فى جوف هذا الصندوق إنساناً هو الذى يتلو القرآن ، وينشد الأغانى ، وينظم الأشعار ؛ فقد كان يراه على صغره لا يستوعب جسم طير متوسط الحجم ؛ فأنى له أن تكون فى جوفه هذه الشخصية المحيرة ؟

وتقرب منه ذات مرة يستطلع منشأه ، فما رأى سوى صندوق مستقل موضوع فوق منضدة خشبية بسيطة ، غير أن الذى لفت انتباهه وجود سلك أسود متصل بناحية الصندوق الخلفية ، يؤدى إلى الخارج حيث يتصل عند سطح المقهى بسلك آخر مد على عامودين متفارقين . فما هذا الخيط المعرض تحت السماء ؟ أيمكن أن الأصوات تأتى إليه منها ؟ أم هل يمكن أن يكون هو الأصل لمصدر هذه الأحاديث ؟

وعنّ له ذات يوم ، وقد أغراه حب الاستطلاع وثار به الجهل إلى استشفاف المجهول ، أن يبتر السلك الممدود خلسة ؛ فتم له ذلك فى ظهيرة خلا فيها المقهى من الجالسين ؛ وعاد دون أن يشعر به أحد إلى مأواه .

ولما كان المساء ، وذهب وائل إلى المقهى كعادته ، راعه من أبى عبطان غضبه ووعيده ، وهو يحاول عبثاً دفع الصندوق إلى الترتيل والإنشاد ؛ وقد تحقق لديه بعد ذاك انبتار السلك الأعلى ، حينما وقعت عليه عين أحد زبائنه مصادفة ، فنبهه إليه . ولقد ثارت ثائرة أبى عبطان ، فاتهم خادمه مجدولا . غير أن الملتفين حوله من زبائنه أفلحوا فى إقناعه بأن انبتار السلك قد حصل من جراء توتره وهبوب الرياح العاصفة عليه

وأصلح السلك فى اليوم الثانى وأعيد ربطه ؛ فما أدهش وائلا إلا أن يعود الصندوق إلى شأنه الأول ، إذن فالسلك الأعلى هو أساس كل شىء ! أى سحر هذا الذى به ؟ ! وأية قوة خارقة هذه التى تجعله يبتكر الأغانى والأحاديث ويتلو القرآن ! ؟

ومما يعجب له وائل أشد العجب سماع أصحابه فى المقهى يتحدثون بأن هذه التلاوة والأناشيد والأحاديث إنما تذاع من بغداد أو من مصر (وقد علم بعد السؤال بأنها أبعد من مكة) فتصل إليهم فى هذه القرية النائية بلا أنبوب أو سلك !

وغدا وائل وجل همه أن يتعرف كيفية حصول هذه الظاهرة المعجزة وسببها ؛ وأصبح يجنح للوحدة ويطيل من التحديق فى اللاشىء ، مسترسلا فى تفكيره الذى كان ينتهى به إلى الثورة والتذمر ممزوجين بألم مطبق شديد ، دون أن يهدىء من حدته ، أو يبعث إلى فؤاده المضطرب شيئاً من الراحة والاستقرار ...

ووائل هذا يا صديقى فلاح من قبيلة آل فتلة ، استوطن قرية المحمودية يعمل فى الزراعة والحرث . وهو شاب فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، جميل الطلعة ، مهيب الصورة ؛ له فى القامة طول وفى المنكبين عرض ؛ وهو أسمر اللون جثل الشعر فاحمه ؛ يزين وجنته السمراء الكالحة ذقن صغير ؛ وله فى كل من أذنيه ثقب نفذت فيه حلقة هى بمثابة القرط عند البدوى ؛ أما جلبابه وهو لا يرتديه إلا بعد انتهائه من العمل ، فهو من القماش البسيط المخطط يتوسطه حزام قد تدلى فى مقدمه خنجر فى غمد من الجلد

ولوائل زوجتان وثمانية أطفال أكبرهم فى السادسة من عمره

* * *

جلس وائل ذات يوم على حجر كبير خارج كوخه ، يحدق فى الفضاء كاسفاً مبلبل الخاطر ، وفى رأسه شىء مرتبك غامض ؛ فهو يرجح رأيه بين هذا وذاك ، حائراً تبدو عليه الحيرة بأجلى ظواهرها ؛ وهو فى ذلك حزين ساهم النظرات ، مضطرب لا يستقر ؛ ولم يكن ليشعر بالاضطراب محصوراً فى رأسه فقط ، بل إنه ليتعداه إلى صدره فيلج فؤاده ويعمل عمله فى قلبه ؛ ولعل هذا هو مصدر الحزن

الذى شاع فى نفس وائل ، ولعله أصل السهوم الذى ران عليه وسيطر على روحيته

لقد كان يفكر فى أمر الصندوق الصغير ... إنه ليسائل نفسه عن سر هذه الظاهرة ، أهى سحر؟

قد تكون سحراً وقد لا يكون فيها للسحر من أثر ؛ وهل يقوى السحر على نظم الأشعار ، ورواية الأخبار ، وتلاوة القرآن ؟ ثم هل يخطب السحر فى الناس خطباً دينية وأخلاقية وصحية ؟ وهل بلغ بجميع أصحابه من المستمعين الحمق والجهل هذا المبلغ ، حتى لينصتوا إلى السحر دون أن يفهموا أنه سحر ؟

وكيف يكون ذلك سحراً والجميع يجزمون بأن القرآن الذى يسمعه إنما يتلى فى بغداد أو فى مصر ؟ إن أمر ذلك لعجيب والحق !

هل هى معجزة إلهية ؟

قد تكون معجزة لأنها تخرج القرآن من الخشب الأخرس فتدفعه ليتكلم ويغنى ، وقد لا تكون معجزة ما دام ذلك يتكرر فى كل يوم ، وما دام ذلك يتبع قوانين أساسية إن أهمل واحد منها فليس هناك قرآن ولا أحاديث . أو لم يجرب ذلك بنفسه فبتر السلك ، وإذا بالصندوق الناطق عي ؟ ! فاذا لم تكن هذه الظاهرة معجزة فكيف إذن يبث الصوت في بغداد فيصل سمعه بنفس اللحظة ؟

إنه لن يصدق ولن يعقل أبداً أن مصدر القرآن والأخبار والقصائد إنما هو بغداد أومصر ؛ فذلك سخافة وقول هراء !

فلا بد إذن من أن يكون فى جوف هذا الصندوق شىء لا يراه ولا يشف عنه هذا الحجاب الخشبي الصفيق ! ولا بد من أن يكون فى جوفه حاك أو ما يشبه الحاكى ؛ بل لا بد من أن يكون فيه حى يتبدل بتوالى الساعات ، ويجدد الأغانى والسور فى كل يوم !

فمن هذا الذى هو فى نفس الوقت المغنى والشاعر والمخبر والموقع على الرباب ؟ وإنه لينصت إلى صوت نسائى يغنى فى بعض الأحيان ، أفتكون امرأة هى التى فيه ؟ كلا ! إنه ليسمع القرآن بصوت لا يشك فى أن صاحبه رجل ؛ أفيكون من فيه رجل وامرأة أم هو شخص يتقلب بين الرجل والمرأة ؟

ربما كانت له القدرة على تغيير لهجته ونبرته ولكن ... ولكن يسع هذا الرجل صندوق صغير الحجم إلى هذا الحد ... ؟ !

ثم خطر له خاطر قلب أسس أفكاره جميعها رأساً على عقب ؛ فاذا كان فى جوفه رجل كما يزعم فما معنى وجود هذا الخيط المعرض للسماء ، والذى لولاه لما كان فى الصندوق تلاوة من قرآن ولا إنشاد من أغان ؟ !

إذن فالخيط هو الأصل ! وما يكون هذا الخيط حتى يغدو الأصل فى كل ما يسمعه من غناء وأحاديث

كلا .. كلا .. لن يكون هذا الخيط إلا واسطة يحار عقله فى ادراكها ؛ ولأى شىء يمكنه أن يتوسط ؟ أيمكنه أن يتوسط للشخص الذى بداخل الصندوق ؟ وما يمكن للسلك أن يفعل مع شخص يتلو القرآن وينشد الأغانى ! ؟

وهكذا مضت على وائل ساعة وساعات ، وهو حائر مشوش الفكر مسلوب الراحة ...

وأتته إحدى زوجيه تضاحكه وتحاول أن تطرد عنه سهومه وأساه وقد حارت فى تعليل أسبابهما ؛ فعافها وائل واجتواها ، ونحاها عنه بعيداً فارتابت فى أمره ؛ ثم عادت تسأله عن سبب سهومه وحيرته فما ظفرت منه بجواب غير صرخة صعقتها تأمرها بالابتعاد ... !

ومنذ ذلك الحين ووائل يتخذ مقعده فى المقهى

قرب هذا الصندوق العجيب ، فيرى بعين الانتباه واليقظة أبا عبطان يدير اللولب ، ويهيئه للتلاوة والإنشاد ، فتعلم ذلك وأتقنه ، حتى لو طلب منه إدارته لما توانى ولما أخطأ

* * *

وانتبه وائل ذات ليلة عند الفجر ، فاستعصى عليه بعد ذاك الكرى ، وراح يفكر فى سر هذا الصندوق الذى كاد أن يذهب بعقله ، ولقد اعتراه الاضطراب ساعتئذ بشدة ، ودفعه حب الاستطلاع وثورة الجهل المتمرد فى رأسه لأن يغادر فراشه خلسة ويتفقد خنجره فيطمئن عليه ، ثم لأن يتابع سيره ميمماً شطر المقهى ...

ودنا منه فألفى السكون شاملاً له ، فدخله من بابه المفتوح ، ورأى مجدولاً الخادم يغط فى نومه حتى لقد كان يسمع غطيطه عالياً

وما كان وائل ليجهل موضع الصندوق ، فقد طالما رأى أبا عبطان يضعه فى دولاب صغير مثبت بالجدار ، ثم يقفله بمفتاح يضعه فى جيب صدرته ، فاستل وائل خنجره من غمده وجعل يغرزه بحيطة وتيقظ فى خشب الدولاب ، فما هى إلا لحظة حتى تكسر لما كان عليه من القدم والبلى ؛ فانتزع بيده الصندوق ، ومن ثم طفق يعمل فى إدارته ، مقلداً بذلك أبا عبطان كما كان يراه يفعل ، وقد غاب عن باله الخادم الراقد على مقربة منه يغط ...

وأدار اللولب الصغير فانبعثت من الصندوق موسيقى رقيقة ، أخذ وائل يبتسم لها ويطرب ؛ استطرد فى إدارة اللولب فما راعه إلا أن يسمع قرعاً مزعجاً أخافه وأرعده ، فكان يشد على اللولب ويحركه ، فما كان من هذه الأصوات المزعجة إلا أن تعلو وتشتد فتزداد خشونة وروعة

وتعالى القرع والطن إلى حد مخيف ، فغدا جسم وائل يرتعد وكأنه الريشة فى مهب الريح ... وكان وائل لا ينفك يدير اللولب فهمدت الأصوات ، إلا أن تلك أعقبتها أحاديث غريبة عجيبة فى لفظها ، فارتاع وخيل إليه أنه فى مملكة الجن وأن الشياطين قد برزوا جميعاً من مكامنهم ... ولم يكن ليتبين صوتاً لشخص ، بل لقد كان يسمع لغطاً لأشخاص عدة ، تارة يصرخون ، وأخرى يقهقهون بضحكات مزعجة مخيفة ... فما ارتاب وائل فى أن الجن قد تجمعوا واستقروا داخل هذا الصندوق العجيب... فصمم ليحطمنه فيحطمن من به من الجن ... !

وانتزع الصندوق بكلتا يديه ، وهو فى ثورته وهلعه ، وألقاه على الأرض بكل قواه ... فتطايرت شظاياه فى أنحاء المقهى وفجأة خمدت أصواته ...

وانتبه الخادم الراقد على أثر ألم فى رأسه أصابه من جراء اصطدام قطعة حديدية ، فهب مذعوراً ليس يدرى أفي الحلم هو أم فى اليقظة ؛ ولم يكن منه حين ألفى وائلاً أمامه ، إلا أن أطلق ساقيه للريح صارخاً بأعلى صوته ، مستشهداً ومستنجداً أهل الذمة ... فهب بعض أصحاب الأكواخ والدور الراقدين على أثر هذا الصراخ وتسارعوا إلى الطريق بينما كان وائل يحاول التماص والاختباء ، غير أن القوم أدركوه وقبضوا عليه دون مقاومة يبديها ، فأسلموه إلى الشرطة

ولم تمض خمسة أيام على هذه الحادثة حتى كان وائل يسير مخفوراً بنفر من الشرطة شاكى السلاح متوجهاً به نحو السجن المركزى ...

(بغداد) يعقوب بلبول

المحتضر

للكاتب الفرنسي موباسان

ترجمة السيد كمال الحريري

كانت أشعة شمس الخريف اللذيذة الفاترة ، ونسمات « ديسمبر » الرخية العاطرة ، تتسرب إلى ساحة الدار من المزرعة وتداعب فى هينة ورفق رؤوس الأعشاب النامية بأطراف الحفر وحفاف الترع ، وكانت التربة خضلة ندية خلال الأعشاب القصيرة الفضيمة التى رعتها سوائم البقر وقطائع الماشية ، لا تكاد القدم تستقر عليها حتى تغوص فى برك صغيرة من الماء الذى خلفته الغوادى والسوارى

وكانت خمائل التفاح وأدواح الدراق موقرة الفروع بالثمر الشهى ، منتادة الغصون بالتفاح الأحمر الطلى ، يساقطها سارى الطل ، وينثرها نسيم الصبح على العشب الأخضر فتموج سطحه بلونها الأحمر والأصفر كطرائق من الدرر واللآلىء على القطيفة الخضراء

وفى ركن المزرعة أربع بقرات ترعى العشب الندي وتقضم النبت الطرى ، فى مرح ورضى ولذة ثم تتلفت صوب المنزل مرسلة خوارها المدوي ، بينما دجاجات حول دمنة المزرعة خرجت تستنكش الحب ، وتستنبش الديدان وتستدعى أفراخها ، وديكتها يجرى وراءها مزهوة فخورة ، تغنى دون انقطاع أنشودة الزوج الغيور على إنائه الحسان . وينفتح سياج البستان ، فيبرز منه رجل قروى فى الرابعة والأربعين من سنيه ، ولوأن وجهه المجعد وقامته المحنية كانا يدنيانه إلى حدود الستين

كان واسع الخطو وئيدها ، طويل الأذرع مديدها ، ثقيل الحركة بطيء اللفتة ، يثقل قدميه خفان غليظان امتلآ تبناً وهشيما . اقترب الرجل من المزرعة فإذا كلب أصفر صغير يحرك ذنبه فرحاً ، ثم يأخذ فى نباح قصير كأنه موسيقى استقبال ويحف بسيده المقبل ، وما هى إلا أن يزجره الرجل حتى يقعى على ذيله ويلتزم الصمت

وخرجت فى هذه اللحظة من المنزل قروية زرية الهيئة قبيحة المنظر مفرطة الطول عريضة ما بين المنكبين ، تجلببت بثوب صوفى ضيق قصير ، التصق بجسمها وتهدل حتى ركبتيها ، فبان تحته جوربان خشنان أزرقان ، انتعلا حذاءين غليظين حشيا كزوجها هشيماً وتبناً . وكان يستر شعورها الشعث اللبدة ، وناصيها الغبر المفتلة ، قبعة صفراء قذرة ، برز تحتها وجه هزيل أسمر ليس بالجميل ولا الوسيم ، وإنما عليه طابع القرية وسيما الريف . قال الرجل سائلاً :

— وكيف حال أبيك ؟ فأجابت الزوجة :

— يقول سيدى القسيس إنه الموت ، وإن ليلة الغد لن تطلع عليه أبداً . ثم ولجا المنزل وبعد اجتياز المطبخ صارا إلى غرفة واطئة السقف مظلمة الجو ،

لا يكاد ينيرها إلا لوح زجاج من نافذة ضيقة . وكانت أرضها المحدبة الملتوية ، وقد غمرتها الرطوبة وسالت بها القذارة ، تظهر وكأنها استحمّت في وشل من دهن . وفي ركن قصي من هذه الغرفة كانت العين تقع على سرير منتبذ تنبعث منه أنّة غريبة الجرس فيها الغصة الأليمة ، والزفرة الحرى والحشرجة التي تشبه انفجار قنبلة في ميدان ، أو ارتطام لجة على صخر ، وكان يفترش هذا السرير محتضر هو حمو الزوج

ويقترب الرجل وامرأته من المشرف المدنف ، ويجيلان فيه بصراً هادئاً راضياً ثم يقول الزوج :

— ليس من موته بدّ هذه الليلة. فتستطرد المرأة:

— منذ الظهر وحاله على ماترى . وكان المحتضر مغمض الجفن أربد الوجه ، اصطبغت بشرته بلون التراب ، وأشبهت سحنته غابة مقشعرة الأديم ، متيبسة الشجر ، أما فمه نصف المفتوح فكان يرسل الأنّة الحبيسة والحشرجة المخنوقة يتداعى لها صدره الضعيف وتتصدع لها جنباته الواهية . وتكلم الزوج بعد صمت طويل :

— أرى أن ندعه يستوفي أنفاسه منفرداً ، فلن نستطيع له نفعا . وخير لنا أن نتهيأ للمأتم المقبل والجناز المنتظر . فبدت على وجه المرأة أمارات القلق والاضطراب ، ثم فكرت لحظة وقالت :

— وما دام دفنه سيجرى هذا السبت فإن لدينا متسعاً من الوقت نتهيأ فيه لحفلة المأتم . قال الرجل بعد أن تدبر قولها

— إنك على حق ، ولكن أربع ساعات لا تكفي لنعيه إلى الجيرة ، ولا تتسع لدعوة الأصحاب والأقرباء إلى حضور المأتم من «تروفيل» إلى مانتو

فتبصرت المرأة كلام زوجها لحظة ثم قالت :

— لن يحوجنا أبي فيما أظن إلى أكثر من ثلاث ساعات ثم ينتهي كل شيء ، فتطوف أنت على منازل الحي ، وبيوت القرية قائلاً : لقد مات .

فظل القروي حائراً ، يقدر النتائج ، متردداً يزن المسألة ، ثم عالن امرأته

— مهما يكن من الأمر فليس بدّ من ذهابي .

وخرج من الغرفة ثم عاد يقول في تردد :

— ولأنك فارغة الشأن عاطلة من العمل ، فستقشرين البطاطس للطبخ ، وتعدين طبق التفاح لحفل المأتم ، وتضرمين النار في الفرن بأعواد الذرة اليابسة . ثم خرج من الدار فداعب كلبه الأصفر المدلل ، وتوجه إلى الطريق البعيد الذي يؤدي إلى تورفيل . ولبثت المرأة وحدها ، فانصرفت إلى ترتيب المنزل وتهيئة الطعام لحفلة المأتم : أفرغت الدقيق في المعجنة وأخذت تعجن الطحين وتفركه ، وتسحقه ثم تعركه . حتى تم لها منه كرة بيضاء شهية تركتها بجانب المنضدة . وانطلقت تقطف التفاح من البستان ، وكيلا تؤذي الشجر وتكسر الأغصان تسلقت إلى جوف الشجرة بمرقاة معدة لذلك ، وأنشأت تقطف وتكدس في حجرها كل تفاحة حلوة الجنى مكتملة النضج ، وفرغت المرأة من عملها ، فانصرفت إلى غرفة أبيها المحتضر وفي نفسها أنه قضى نحبه واستوفى أنفاسه ، على أنها ما كادت تتخطى عتبة الغرفة حتى تأدى إلى سمعها شخيره الصاخب وحشرجته الرتيبة ، فمضت إلى المطبخ تهيئ طعام المأتم وتعد وليمة الجناز دون أن تضيع وقتها سدى بجانب محتضر تعتقد أنه إن لم يمت الساعة فكأن قد ... أحاطت كل تفاحة بصفيحة من عجين « كما

هي العادة عند أهل الريف يوم حفلة المأتم » ثم صفت التفاح الواحدة بجانب أختها ، حتى انتظم لديها عقد من ثمانٍ وأربعين تفاحة . وبعد ذلك توجهت إلى طبخ الحساء ، فأضرمت ناراً عظيمة وعلقت عليها قدراً كبيرة أعدتها لإغلاء الماء وإنضاج البطاطس

وآب زوجها من مهمته الساعة الخامسة وما إن وضع قدمه على عتبة الدار حتى فاجأها :

— هل انتهى كل شيء ؟ !

— كلا ويا للأسف ! فما زالت حشرجته عالية الضجيج وقرقرته صاخبة الرنين . ثم راحا يستطلعان الخبر ، فإذا المدنف على الحال التي تركوه فيها منذ ساعات : نفس مضغوط مخنوق لا يتراخى ، وقرقرة متواصلة رتيبة لا تزيد ولا تنقص ، وحشرجة مبحوحة يتلو بعضها بعضاً كَتَكْتكة الساعة المنتظمة ، فقال الصهر وهو ينظر إلى حميه بإشفاق :

إنه كشمعة الكنيسة سينطفئ دون أن يشعر أحد أو يحس موته إنسان ؛ ويدخلان إلى المطبخ فيتناولان الحساء ، ويأكلان قطعة من الخبز المغموس بالزبدة ، حتى إذا فرغت الصحون وامتلأت البطون ، عادا أدراجهما إلى غرفة المحتضر المشرف وقد أمسكت المرأة قنديلاً أخذت تمره على وجهه وفمه وعينيه كي يثبت لديها ، إذا لم يضطرب لسان السراج ، أن النفس مقطوع ، ولكن لسان السراج اضطرب واهتز ، وراح يتراقص ويرجحنّ كأنه في حفلة راقصة . هنالك غادر الزوجان المحتضر حانقين مغيظين ، وأسلما نفسيهما إلى النوم في سريرين في ناحية من الغرفة ، تحتوشهما الظلمة ، وتساورهما العتمة ، وما هي إلا أن ران الكرى على أجفانهما ، حتى دوى في جو الغرفة الموحشة غطيطهما المختلف الناشز ، أما غطيط الزوج فقوى عميق خشن ، وأما المرأة فرقيق حاد لطيف ، فتألف منهما ومن حشرجة العليل « أركسترا » مزعجة مقلقة ليست بالشجية ولا المطربة . ويستفيق الزوج والفجر وليد ، ونور الشمس لم يسطع على الآفاق ، فإذا المشرف في قيد الأحياء ، فيوقظ القروى امرأته قلقاً ساخطاً ، وتعتذر المرأة لحياة أبيها فتقول :

— إنه لن يمضي سحابة النهار في أكبر الظن ، فلنهدأ نفسك وليفرخ روعك . وعندي أن من الخير أن نشيع نبأ موته بين الجيرة وأهل الحي ، كي لا يتعنت علينا العمدة في دفنه ، في الغد ، وكي يتسع لدينا الوقت وتطول المدة . ويقتنع الزوج بهذه الحجة فيمضي إلى حقله ، يشيع النبأ وينعى الميت ، ومضى نصف النهار وأقبل الظهر وصاحبنا لم يمت . فبدأ المدعوون إلى المأتم يتوافدون زرافات ، ويدخلون أفواجاً ، كي يقوموا بواجب التعزية عن الراحل الهرم ، الذي أبطأت به قدمه إلى دار الآخرة

وفي الساعة السابعة حين دخل الزوجان غرفة العليل وفي نفسهما أنهما سيغمضان عينيه لآخر مرة ، شاهداه ويا للأسف يتنفس نفسه المعتاد ويحشرج حشرجته الرتيبة المزعجة ، فقال الرجل وقد تلهب غيظاً وارتجف فرقاً :

— وماذا تصنعين هذه الساعة يا « فيني » بعد أن أجبرتني على إذاعة نبأ موته بين الناس ؟

وسُمِّرت المرأة لا تنطق ولا تجيب . ثم انطلقا إلى العمدة فوعدهما أنه سيغمض عيني المحتضر ، ويأذن بدفنه منذ الغد . أما طبيب الصحة فقد أخذ على

صديق الكلاب

أقصوصة عراقية

بقلم احمد حسن الزيات

شرب عبد الواحد [١] وسقانا ثلاثة أقداح من الشاى العطر . ثم أطلق من حنجرته القوية جشاءة طويلة عريضة كخوار العجل ، ثم حضأ النار بأنامله وشيع ضرمها فى بقية الفحم ؛ ثم أشعل منها (سيكارته) العربية وأرسل فى رفق دخانها الرقيق الأدكن . وبانت على معارف وجهه شهوة الكلام . وكان كلبى الصغير قد لاذ من قرس البرد بجانب الموقد ، فهو ينطوى وينتشر تبعاً لما يغلب على جو الغرفة من نفح النسيم أو لفح اللهب . فرأيته بطيل النظر إليه فى طرف ساكن ووجه ساهم . فقلت له مداعباً : لعلك ذكرت بالكلب حبيبتك وهى فى خبائها بين كلابها وشائها . فابتسم ابتسامة العذراء الخفرة وقال : الحمد لله ما ذكرت على فقرى حياة البر [٢] مذ هجرته ، ولكننى ذكرت رجلاً كان فى بغداد يدعى (أبا الكلاب) . فسألته وما حديث أبى الكلاب هذا يا عبد الواحد ؟ فلمع فى عينيه البشر ، لأن سروره كان فى أن يتحدث وتسمع . وذهب به شىء من التيه ، لأن شعوره بأنه يعلم ما لا نعلم يرفعه قليلاً فوق قدره ؛ لذلك تراه عند الحديث يجلس جلسة النظير ويلهج لهجة الأمير ويقرر تقرير العالم

قص علىّ هذه الأقصوصة وهو منها على يقين جازم . وما كان أسرنى وأسرك لو استطعت أن أنقلها إليك بلغته الجميلة التى تأخذ من لحن بغداد ومن لحن البادية . على أننى سأحاول ما أمكنتنى القدرة أن أترجمها ترجمة صادقة تكشف عن أثرها فى نفسه وفعلها فى نفسى

* * *

كان فى بغداد منذ خمسين عاماً أسرة كريمة تعتز بنسب العرب من جهة الأب ، وتتصل بسبب الترك من جهة الأم ، فهى مزاج معتدل من عقليتين متباينتين لا يجمع بينهما غير الدين . والدين فى مثل هذه الحال يكون أوثق عقداً وأمتن أسباباً لقيامه مقام الجنسية الجامعة والعصبية القريبة . فالوالدان صالحان تقيان لا يفهمان من العروبة إلا النبوة والقرآن ، ولا من التركية إلا الخلافة والسلطان ، ولا يعرفان عن دار السلام وفروق إلا أنهما بلدان فى وطن واحد . والولدان جميلان بارّان يكبر الذكر منهما الأنثى بخمس سنين ، وقد درجا معاً من مهد الفضيلة ، ثم ترعرعا فى حنان الأبوين على كفاف من العيش يؤتيه متجر غير نافق

لم يشغل عبد الواحد باله كثيراً بتفصيل حياة هذه الأسرة الصغيرة . فكان كلامه عنها مرسلاً مجملاً لا يحلل طبيعة شخص ، ولا يحدد تاريخ حادث ، ولا يعين مكان منزل ؛ حتى أسماء الأب والابن والبنت لم يجد فى ذكرها ما يفيد الحديث ! فهو يحذف ما يزعمه فضولا ويسير قدماً إلى هيكل الموضوع وعقدة الحادث ، فيقول إن الغلام

(١) عبد الواحد رجل بدوى كان يقوم على خدمتى وأنا ببغداد (٢) يريد الصحراء

كان عمره اثنى عشر ربيعاً حينما صحب خاله إلى الأستانة . والأستانة يومئذ كانت منتجع الخواطر ومهوى القلوب الطامحة إلى السطوة أو الثروة أو العلم . فهل كانت هجرته إلى دار الخلافة تثقيفاً لنفسه، أو تخفيفاً عن أبيه ، أو مساعدة لخاله على تدبير متجره وماله ؟ كل ذلك يجهله راوى الحديث ، فما يعلم إلا أنه شدا شيئاً من العلم فى إحدى مدارس القسطنطينية تحت عين وليه وعونه ؛ ثم اندفع فى غمار المدينة الصاخبة يداور الأمور ويتلمس المكاسب ؛ ثم أوغل فى مدن البلقان وشعاب الأناضول ، حيناً فى خدمة الجيش ، وحيناً فى طلب العيش ، حتى انقطع علمُ ما بينه وبين أهله .

كان الغريب النازح يهاجم الأخطار فى كل فج ، ويصارع الأقدار فى كل لج ، وكل همه أن يجمع من المال ما يضمن له ولأسرته خفض العيش فى ظلال بغداد الجميلة . فلما ملأ الدهر يديه بما أمل كان وا أسفاه ربيعه قد أدبر وربعه قد أقفر وحلمه قد تبدد ! فإن والديه البائسين قد ألح عليهما من بعده الحزن والضر والفقر حتى انطفأ سراجهما فى حولين متعاقبين بعد انقطاع خبره ببضع سنين ، وأما البنية اليتيمة فقد حنا عليها بعض ذوى المروءات من أهل البيوتات فضمها إلى حرمه ، وواسى يتمها الحزين بعطفه وكرمه

عاد المهاجر إلى وطنه يحمل فى جيبه المال وفى قلبه الأمل ، فما وطئت قدماه ثرى العراق الذهبى حتى ازدحمت الذكريات على خاطره ، ومرت الحوادث المزعجات أمام ناظره ؛ ولكن شعوره بلذة العودة إلى الأرض التى أبصر عليها الدنيا ، والسماء التى تقبّل منها الروح ، والهواء الذى رف عليه بالصبا ، والماء الذى نضج قلبه بالنعيم ، والأسرة الحنون التى براه إليها الشوق ، والمستقبل الباسم الذى ينتظره فى بغداد ، قد شعب فؤاده وشفى كبده ومسح ما به

عرف المحلة والدار بعد لأيٍ لطموس المعالم القديمة ؛ ثم قرع الباب بيد مرتجفه ، فإذا المالك الجديد يخرج إليه : فأقبل عليه المسكين لهفان ضارعاً يسأله : هنا كان مهبط نفسى فأين أبى ؟ وهنا كان مسقط رأسي فأين أمى ؟ وهنا كان لى مهد وأخت وملعب وجيرة ؛ فقل لى بربك يا سيدى أين تحمّل بكل هؤلاء القدر ؟ . وكان بين المسئول والسائل حوار قصير عرف منه البائس أن ريح المنون قد عصفت بأهله . فارتد إلى الفندق لا يملك دمعه ولا قلبه . ثم قضى حيناً من الدهر ذاهب القلب يكابد غصص الكرب ، ويعالج مضض الهموم ، حتى رأم الزمان والإيمان جروح صدره

* * *

وقع فى نفس الوحيد الحزين أن يتزوج ليعيد إلى سجل الوجود اسم أسرته ، فاقترحت عليه جارة له عجوز أن تخطب إليه فتاة يقولون إن بينها وبين بنى فلان عاطفة رحم ؛ ويؤكدون أنها تنزع إلى عرق كريم لطبعها المهذب وجمالها المحتشم . فاطمأن قلب الخطيب إلى رأى الخاطبة ؛ واختلفت العجوز بينه وبين ولى الفتاة حتى تم الوفاق وسُمى الصداق وعينت ليلة الزفاف

زفت العروس إلى زوجها ، فبهره ما رأى من جمال ، وأحس من ظرف ، وسمع من أدب ؛ فافتر فى وجهه السرور وحمد الله على حسن توفيقه . ثم انقضى شهر العسل على خير ما يجد زوج من زوجه . وفى ذات ليلة تجاذب العروسان أطراف السمر وشقفا بينهما الحديث ، حتى أفضى إلى علاقتها بوليها فلان (بك) ، فأحب الزوج أن يعرف درجة القرابة

بينهما ، فغضت الفتاة من طرفها ، وشاعت حمرة الخجل فى وجهها ، وقالت فى صوت خافت متهافت من الحزى والخوف : « الحقيقة أن ليس بينى وبين هذا الرجل قرابة ! وإنما هو نبيل محسن آوانى وربانى بعدما فجعنى البين فى أخى ، والموت فى أبى ، وأنا يومئذ فى حدود الثانية عشرة . ثم تتابعت الأسئلة من الزوج ، وتسارعت الأجوبة من الزوجة ؛ وكان كلما انجاب عن خبايا الغيب حجاب امتقع لونه ، واقشعر بدنه ، واشتد وجيب قلبه ؛ وكانت هى كلما رأت منه ذلك نسبته إلى انخداعه فى أصلها فمضت تفصل المأساة وتصور الفاجعة بالكلام والدمع ، عسى أن تعطف قلبه على مصابها ، فلا يفكر فى طلاقها وعذابها . ولكنها لم تكد تلمس الحجاب الأخير حتى رأت زوجها قد قفّ شعره وانتفخ سَحره وارتعدت أطرافه ، ثم انفجر صارخاً يقول : واويلتاه ! وامصيبتاه ! لقد تزوجت أختى ! ... ثم خر مغشيا عليه . فلما تاب إليه بعض رشده نظر إلى أخته فوجدها فاقدة الوعى ، فتركها وابتدر الباب وخرج مسرعا لا يلوى على شىء ولا يلتفت إلى أحد !

* * *

خرج طريد القدر من بيته خروج (أوديب الملك [1]) من قصره ، ثم هام فى الطرق الضيقة المتشاكة يسأل الرائح والغادى عن مفتى بغداد . فلما أدخل عليه باح له بسر الخطيئة ، فهول عليه الترك بعقابها ، وبالغ فى جرائرها وأعقابها . ثم أفتاه بعد الاستشارة والاستخارة والرؤيا أن الله لا يغفر هذا الجرم إلا إذا صدف عن متاع الحياة ، وخرج عن أثيل الملك ، واستتر بأخلاق الثياب ، وقضى بقية عمره فى جمع الخبز للكلاب الشوارد !

أذعن الخاطىء البرىء لحكم الفقيه الأحمق ونزل للزوجة الأخت عما يملك ، وارتدى طمراً من غليظ الكرباس ، وجعل على عاتقه مخلاة ، ومضى يقرع كل بيت ، ويقصد كل مطعم ، فيجمع الفتات والخبز ثم يقف باليدان فيقسمه بالسوية على من أجاب الدعوة من كلاب الحى

لم يمض غير قليل حتى عرفه الناس وألفه الكلاب ، فصار يمشي فى الأزقة وخلفه منها قطيع ، وينام فى العراء وحوله من شِدادها حرس مطيع ، وتحين الوجبة العامة فلا تجد كلباً طليقاً فى بغداد إلا أجاب نداءه ، وتناول من يديه المحمومتين غداءه . ولكن الوالى رأى على طول الزمن أن يدى أبى الكلاب على رعيته عافية وربيع . فسمن هزيلها ، وكثر قليلها ، حتى اختنق بلهاثها النهار ، وصُم بنباحها الليل ، وأصاب الناسَ من عضاضها وأمراضها شر كبير . فأقام فى ظاهر المدينة حظيرة واسعة ، ثم أمر الشرطة فصادوا الصوارى وألقوها فيها . فكان أبو الكلاب على عادته يجمع الطعام والعظام ثم يذهب إلى ضيوف الحظيرة فيطعمها ويسقيها ، ثم يتهالك على الأرض من اللغوب فيرقد مكانه حتى الصباح

وفى ضحوة يوم من الأيام أولم الوالى لأسراه وليمة السفاح فما نجا من بعدها لاهث ولا نابح . وجاء أبو الكلاب فرأى ألافه الخلصاء على أديم الأرض صرعى ، لا يتملقن بعين ، ولا يمصمصن بذنب ! فعظم على المسكين أن يرى مثال الصداقة يموت ، وشبح الجريمة يحيا ، فتساقط بجانب السور مهدود القوى ، صريع اليأس ، ولبث مكانه لا يأكل طعاماً ولا يذوق مناماً حتى لحق بربه .

الزيات

(١) فى الأساطير اليونانية أن أوديب الملك قضى عليه أن يقتل أباه ويتزوج أمه ، فلما نفذ القضاء على غير علمه فقأ عينيه وخرج من طيبة هائماً تقوده ابنته انتيغون

صمت المهراجا أو ضيعة الهنود

للكاتبة ماري كوريلي

للأستاذ دريني خشبة

ماري كوريللي هي مؤلفة قصة أحزان الشيطان وغيرها من القصص الجميلة الرائعة التي تلتقي فيها ثلاث ثقافات عظيمة ، الانجليزية والفرنسية والايطالية ... فماري اسكتلندية بأمها ، إيطالية بأبيها ، فرنسية بتعليمها ، إنجليزية بحياتها ... وكانت ترجو لو تكون موسيقية لو لم يغلب عليها الأدب ، ولو لم ينتزعها كيوبيد من ذراعي أبوللو ... وأقصوصة صمت المهراجا هذه من أروع الأقاصيص القصيرة التي تصور هول الاستعمار في الهند البريطانية

كانوا يدعونها « لوللى » قبل أن تصبح حرم الكولونل كلود أنسلى ، واسمها الحقيقي هو لورا إيجرتون .. وهي غنية واسعة الثراء ، تملك ضياعاً شاسعة في انجلترا ، وقصراً منيفاً في الهند . ولقد تركت شمس الهند سمتاً عجيباً على جبينها وفوق خديها كانت تستعين عليه بالدمام والمساحيق لتجمع فيه حمرة انجلترا وسمرة الهند ، فتكتسب به سحراً وفتنة ، ما دام الجمال قد بخل عليها بطابعه غير المجلوب ... وكانت روحها وثابة خلابة مرحة ، وكانت هي طويلة ممشوقة ، ذات عينين عميقتين ، تختبىء في أغوارهما أبالسة وشياطين ... وكانت تبسم ، فتفتر عن ثناياها البيض اللامعة ، فلا يصعب على محدثها أن يستشف في القسمات المكوّرة حول فمها أفانين الخبث والدهاء ...

وكان زوجها الكولونل أصغر منها سناً ، ولكن كانت تبدو عليه بداوات تجعله يكبرها بسنوات وسنوات . وكان ذا جسم عظيم هرقلي ، وكان له وجه صارم الملامح ، إلا أنه كان أشبه بوجوه الفلاسفة منه بوجوه الجنود ، ولاسيما إذا جلس وحده في غرفته المنعزلة ينفث دخان لفافاته التي لا تنتهي ، فيحجب عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، ويوسع دائرة تأملاته ، ويجعلها تشمل الدنيا بأسرها .. فإذا قطعها عليه قادم وثب وثبة الهر في خفة ونشاط ، وبرقت من عينيه بوارق الجذل والسرور . وكان الناس يعجبون كيف رضيت لوللى أن تتزوج هذا الكولونل ، ولم يكونوا يعلمون أنها انتظرت الكفء الذي يتقدم إليها فينقذها من هذا العنوس الذي طال حتى أفزعها وأوهى جلدها . فلما تقدم إليها كلود رقص قلبها ، ورضيته على كره أو غير كره ، ورافقته إلى الهند

وقيدته بقيد ثقيل من الذهب ، فاشترت هذا القصر المشيد الذي يهزأ بقصور الأفيال ويسخر بما بنى الراجوات ، ثم حشدت فيه الخدم والحشم بعد إذ أثثته بما تؤثث به بيوت الملوك ... وكان الكولونل يلمس الفارق الكبير بينه وبين زوجته الغنية فلا يجسر أن يؤاخذها فيما يؤاخذ فيه الرجال أزواجهم ، فهي تصادق من تشاء ، وتدعو إلى دارها من تشاء ، وتجلس إلى من تشاء ، وتشركه في الحفاوة بمن تدعو إذا شاءت ، وتهمله إن لم تشأ ... ولم لا تصنع

كل هذا وهى لا تكلفه قليلاً أو كثيراً مما يكلف الأزواج أزواجهم ، بل تترك له رانبه كله يتصرف فيه تصرف الراشد العاقل ، فيشترى سجائره وينفق عن سعة بلا رقيب ، وله فوق هذا أن يملأ معدته بما تمتلىء به معدات الملوك ، وأن ينحط فى مثل سررهم الناعمة الموضونة ، وأن يخدمه ولدان مخلدون كأمثال اللؤلؤ المكنون ... ! ليس له أن يعترض أسلوب حياتها ، فهو رجل صناعته خارج المنزل ضابط فى جيش الهند ، وفى داخله زوج ليس من مقاليد المنزل فى يده كثير ولا قليل ، اللهم إلا هذه العلاقة الشرعية التى تفرضها السماء ، وتجيء وراء الأشياء كلها فيما بين كاود ولوللى ، وفى حين تأتي أمام الأشياء كلها بين جميع الأزواج ... فهو إذن زوج دُمْية ! وهو كهذه الدُّمى التى تتخذ فى المعارض التجارية لعرض الملابس وأحدث الأزياء ، ولا يهم بعد هذا أنه دمية تتكلم وتأكل وتشرب وتنفث دخان اللفائف

وعرفت لوالى مهراجا الإقليم المجاور فى إحدى سهراتها ، فراعها منه حسن احتفاء الناس به ، ومنافسة بعضهم بعضاً فى التقرب إليه ... وحسبت أول الأمر أنه ملك الجماهير يدفعها كالذباب نحو المهراجا ، ولكنه لم يلبث أن عظم فى عينيها حين سمعت إليه يتحدث بلسان انجليزى مبين ، وحين عرفت أنه تخرج فى إحدى الجامعات الانجليزية بلندن ، وأنه فلكى عظيم من أكبر علماء الفلك ، وأن له فى هذا العلم رسالة قيمة يعرفها علماء بنى جنسها

وكانت تدعو إلى دارها أهل الجاه وذوى المكانة واليسار ممن تجمعهم وإياها الأندية والمراتع ، فدار فى خلدها أن تدعو المهراجا الوجيه اللبق لا ليتناول الشاى فى دارها فحسب ، بل ليقضى أياماً فى قصرها الشاهق ضيفاً كريماً ... ولم ير المهراجا بأساً فى أن يلبى دعوة لوالى ، وأن يضرب لذلك ميعاداً موقوتاً ، وقد أثارت تلبيته الخيلاء فى نفسها ... ولما كان أهل الخيلاء لا يكتفون بأن يحسوا الكبرياء فى أعماقهم ، بل يحاولون بكل وسيلة أن يشعروا الناس بما يمزق أوداجهم من عُجْب وما يسكرهم من تيه ، فقد فكرت لوالى فى أن تدعو رفيقة صباها ادريانا زوجة الكابتن لومارشان ، من رجال جيش الهند أيضاً ، والذى يعسكر بفرقته فى إحدى المدن القريبة. ولم يكن لواحدة من صويحبات لوالى هذا الأثر العميق فى نفسها الذى أحدثته فيها الفتاة العجيبة ادريانا ، ذات العينين السحريتين ، والوجه الصغير الصارم ، والجسم الضامر الناحل ، والشعر الذهبى الجميل ... لقد كانوا يطلقون عليها اسم قصيدة كيتس الرائعة : « الحسناء التى لا تعرف الحنان ! » ، ولله ما كان أصدقهم فى هذا ! فلقد كانت إدريانا صارمة فى علاقاتها بكل من تعرف ، فلا تكاد تعرف أحداً حتى ترغمه على أن يحس أنها قائده الأعلى ، وأنه ينبغى أن يتخذها مَثَله ... وكان صويحباتها يدركن هذا وكن يشهدن لها به عن يد وهن صاغرات . فاذا تكلمت أصغين ، وإن اقترحت شيئاً لم يعارضن ، وإن تحدثن فى مسألة وأبدت رأيها فهو رأى الجميع . وكان ما يزال يتردد فى سمع لوالى وفى قلبها قول ادريانا فى الرجل الذى تؤثر أن يكون زوجها : « إنه هو الرجل الذى يستحق حبها وإجلالها وطاعتها ... فهو بذلك ينبغى أن يكون فذاً فى أخلاقه وفى جثمانه ، حتى ليكفى أن تنظر إليه النظرة فتمنحه

قلبها وعقلها وعبادتها ... » وكانت لولى لهذا السبب تصبو إلى أن تشهد بعينيها إلى أى حد حققت الأيام أحلام صديقتها .. فاعتزمت لذلك أن تدعوها لتقضى أياماً فى قصرها فى نفس الوقت الذى يحل فيه المهراجا ضيفاً عليها ، فهى بذلك تشهدها كيف ينزل فى دارها الملوك والأفيال إخواناً وأخداناً ، ثم ترى ماذا كان من هذه الشخصية الساحرة التى كانت فى صباها تجذب جميع الرفاق وتهيمن عليهم وتخضعهم لآرائها . وكان أكثر ما تصبو إليه لولى هو أن تشهد هذا الزوج العسكرى ، لترى إن كان هو الرجل الذى يستحق أن تمنحه المرأة قلبها وعقلها وعبادتها !

* * *

وبينما كانت لولى تنمق الأزهار فى الغرف ، وتأمر الخدم بتغيير بعض ما نظموا ؛ وبينما كانت تعنى كل العناية بجناح المهراجا الذى حرصت أن يكون بعيداً عن الجناح الذى هيأته لضيفيها الآخرين ، إذا بأدريانا وزوجها يدقان الباب ويقتحمان البهو ، ويتسلمان حقائبهما من الحمالين ...

— مرحباً مرحباً إدريانا ...

— مرحباً لولى العزيزة ، كيف أنت يالورا .. ؟

— أوه ! لورا ... إن أحداً لم يعد يناديني بهذا الاسم الحبيب !

— زوجى ... لومارشان ...

— مرحباً كابتن ...

— مرحباً بك ياصديقة زوجتى ... كم كنت أتوق أنا وإدريانا للقياك !

— أنا سعيدة بكما ... سعيدة ... سعيدة جداً ... أوه إدريانا ... عمر بأكمله منذ افترقنا ... ها أنت ذى ما تزالين جميلة ... عيناك ! أوه ! عيناك يا إدريانا ما تزالان سحريتين ! وشعرك ما يزال يلقى أضواء الذهب كما كان فى الصبا ... إنك ما تزالين طفلة كما كنت ... ولكنك أيضاً طفلة هائلة ... سأدعو لكما كلود ... كلود ! كلود !

وأقبل كلود ليؤدى وظيفة الزوج ، فقالت لولى : « زوجى الكولونل كلود ... هلم يا كلود ... ها هو أخوك لومارشان ... وها هى صديقتى إدريانا التى طالما حدثتك عنها » ... وهش كلود على غير عادته وبش ، وجلس يحدث الضيفين عن سفرتهما الطويلة ، ويحدث نفسه عن الغادة الصغيرة الفاتنة ذات العينين السحريتين ، الجالسة أمامه ... ثم عن هذا الحيوان زوجها ، ذى الشاربين الغليظين المتصبين كشاربى القط ، وذى الرقبة المنتفخة كأنها رقبة العجل ... !

وجلسوا هنيهة يتحدثون ... وبدأت لولى تقرأ سطور مأساة مكتئمة فى عينى صديقتها إدريانا تلوح مناظر منها فوق المسرح الشاحب الحزين الذى تموج ستوره فوق جبينها الشاكى ، وفى ثنايا شعرها المسبطر الجميل ... وجاء الشاى فتشقق الحديث حول أكوابه ، وكانت نبرات الأسى ترن فى فم إدريانا ، فما كادوا يفرغون من شايهم حتى نهضت لولى ، ونهضت فى إثرها صديقتها ، وانطلقتا إلى غرفة بعيدة فى الجناح الآخر من القصر ليتحدثا وحدهما وليتحدث زوجاهما فيما يليق بهما ...

— إدريانا ... ألست سعيدة ؟ أعذرينى فى أن أسألك عن وجوم كانت تتعثر فى أذياله كلماتك ...

— والله يا أختاه ... لا ... ولكن ... هذا لا يهم ...

— لا يهم ؟ وكيف ؟

— إى والله ... وله ؟ هل وجد الناس فى هذه الدنيا ليسعدوا ؟ أبداً ! لقد كانت أحلاماً وسرعان ما ذوت ؛ وكانت مُنًى وسرعان ماسقطت كأوراق الخريف ! هذه هى الحياة دائماً إذا ابتسمت وتبرجت فى الربيع ، فلا بد أن تتجرد من غرورها فى الشتاء ... وتلك هى مأساة الكل يا أختاه ... ومع هذا فأنا لا أشكو من أوضارها شيئاً ...

— ولكن زواجك كان ثمرة شهية من ثمار الحب يا إدريانا !

— حقاً ... لقد كان ... ولكنى كنت أرجو أن يكون حباً طويلاً سرمدياً كحب القديسين لله ! وا أسفاه على الأحلام اللذيذة التى كانت ثمرة خيال الشباب العريض ، وقصص الحب الواسع ... وأنت يا لولى ما خطبك ؟ ألم يكن زواجك ثمرة من ثماره المرة ؟

— أنا ؟ كلا أيتها الحبيبة ! لقد تزوجت لأنه كان يجب أن أتزوج . لقد طال عُنوسى ، وكنت أتمنى زوجاً رزيناً محترماً ، فلما وجدته وضعت مخالبى فى عنقه ! »

— آه أيتها العزيزة ... أنتِ سعيدة إذن ! أما أنا ... فلم أسعد بمثل هذا الرجل !

— آسفة كثيراً يا أختاه !

— لا عليك ... لا يهم ... لا تأسفى ! أنت تعلمين يا لولى كم كانت أحلامى خُلبّاً كواذب ... لا ضير ، لقد دفنتها جميعاً ، وإنى لأقف بقبرها أحياناً أندبها وأبكيها . ولقد عرفت الحياة الآن . ولقد عولت على أن أحياها كما عرفتها مجردة عن بهارجها بعيدة من سرابها الذى يخفى حقيقتها عن العالمين !

وكانت تتكلم وقد جلست أمام المرآة الكبيرة تصف شعرها وتكوّمه ، وكان السحر كله ينشر ألغازه من فمها ، فقالت لولى :

— لله كم أنت جميلة يا إدريانا ! مهما قاسيت فلك دائماً سحرك وروعة لفتاتك !

— حسبى هذا من دنياى الخبيثة يا لولى ! حسبى ألا أصبح قبيحة شائهة فأفقد مع شبابى شعورى بكرامتى ... ولكنك يا أختاه تذكرين جمالى دائماً ، ولا تذكرين أنك كنت زهرتنا جميعاً فى صباك ! أنا ؟ أنا جميلة ؟ !

— لا ... لم أرد أن أقول هذا ، ولكنك كما كنت دائماً ... أنت المخلوق الفاتن الذى لا يمكن وصفه ، ولا تزالين إلى اليوم هذا المخلوق نفسه ! لقد افتتن أنطونيو بكليوباترة ، وكليوباترة هى مخلوق فاتن مثلك ، وفى الدنيا اليوم حسان فواتن مثلها ، بيد أنى لا أحسب أن فيها من هو مثل أنطونيو .. إنك لغز يا إدريانا ... وليس أحمق من الرجال فى استكناه ألغاز الجمال ! »

فتبسمت إدريانا ابتسامة موجعة وقالت : « أنا ؟ أنا لغز يا لورا ؟ أبداً ... بل أنا امرأة كسيرة القلب مهيضة الجناح ، فقدت أحسن أمانيها وأعز مُثلها ، وتحاول ما وسعها أن تكتم فى أعماقها خيبتها وأحزانها وسر بلواها ... فإذا باحت به لك ، فهى واثقة أنها تنقل سرها من قلبها ... إلى ... قلبها ... أى قلبك . ولقد شكوت إليك بثى ، وما يزال لى رجاء إليك ... فلقد ذكرت لك أن زوجى ليس له ما لزوجك من وقار واحترام ... إنه ... رجل ... لا يملك حلمه إذا شرب ، بل إنه ليفقد توازنه ، فيبدو حيواناً خبيثاً ، فهل تعدينى ألا تشجعيه على كؤوسه يا لولى ! إننى يؤلمنى أن أفضح فى آلامى

فتكون ملهاة لغيرى ... فهل أنت فاعلة ؟ ...

— أوه إدريانا ! سأكلم كلود فى هذا ، إن لم يحزنك أن أفعل ... ولكنك تتركين نفسك فريسة للهموم مع ما فى ذلك من الخوف عليك يا أختاه . فهل تعدينني أن تنسىْ أشجانك الآن ...

— أجل ... أعدك ... وسأكتم السر الهائل الذى يمزق قلبي ... سأكتمه ...

— وأى سر هائل يا إدريانا ...

— أجل .. لقد رزقت غلاماً منذ عامين

— بالله ! وهل فى ذاكَ ما يحزن يا أختاه ؟

— وكيف ، لقد مات منذ ثلاثة أشهر !

— مسكينة ! هذا محزن حقاً ...

— لا ... إنه لم يحزنى أن مات طفلى ، برغم عينيه اللتين ماتفتآن تشعان الحب فى قلبى من أغوار ظلمات القبر ... لقد فرحت لموته ، لأنى خفت أن ينشأ نشأة أبيه ! ...

— إدريانا ... حسبك إذن ... إنك تحرقين بقية نفسك يا حبيبتى ... لقد قدمت إلىّ لترفهى عنك بعض هذه الأحزان ، فابتسمى للحياة وانسىْ بلواك ... أشرق أيتها العزيزة وسَلّمى فيما مضى لمن هو أرحم بى وبك وبالناس ... ويسرنى أن أذكر لك أن ضيفاً عزيزاً سيغشى منزلنا الليلة وسيتناول العشاء معك ، فهل تأذنين لى فى أن أذهب فأصلح من شأنى يا إدريانا ؟

— تفضلى ... تفضلى يا لورا ... وأرجو ألا تستأنى علىّ

وانطلقت لوللى ... لكنها عادت فى مثل اللمح لتقول : « أوْه ! لقد نسيت أن أذكر لك أن ضيفنا العزيز هو أحد أصحاب السمو ... هو مهراجا الإقليم المجاور ، وهو رجل مثقف يجيد الانجليزية ، ويلبس ... آه يا إدريانا ... يلبس كنزاً من الجواهر واللآلىء ... أرجو أن تسعدى بلقائه كثيراً ، وأرجو أن يسرك لقاء حاشيته العظيمة ...

انطلقت ثانية ، فلقيت لومارشان يسير بين يدى زوجها إلى غرفته ليبدل ملابسه ، فهتفت بكلود تقول : « كلود ... أرجو أن تأتى إلى غرفتى بعد أن ترى الكابتن غرفته ، فإن لى حديثاً معك »

وعاد كلود لياقى زوجته ، فوجدها تنتظره ثمة لتقول له : « كلود ! لشد ما يحزننى أن أخبرك أن ضيفنا لومارشان رجل عربيد ! إنه يشرب حتى يضيع صوابه ! » فيقول كلود فى ريبة وخجل : « لقد بدا لى أنه سكير كبير ! » ثم ينظر فى الأرض ، فتقول له لوللى : « كم أنا نخورة بك يا كلود ! كم أنا نخورة بك ! أبداً لم أرك تضع كأساً فى فمك » فتصطبغ وجنات كلود بحمرة الخجل الساذج ، فتقول له لوللى : « إذن عليك ألا تمكنه من كأس يحتسيها ! وإلا ... » وذعر كلود ، وخاف أن يكون ثمة نذير بعد (إلا) هذه ، ووصلت لوللى حديثها ، فقالت ... « وإلا فانظر ماذا يكون من شأنه إذا غاب عن صوابه وأحدث شحناء بينه وبين إدريانا فى حضرة المهراجا ؟ ! » ... واطمأن الكولونل ، ووعدها ألا تصل يداه إلى قطرة واحدة من الخمر . وكافأته بأن وضعت له زهرة جميلة فى عروته ، فشكرها مستحيياً

* * *

وعجب الولدان المخلدون وهم يهيئون الخوان لم أمرت سيدتهن بألا يضعوا قواريرالخمر وأكوابها ، وكانوا يضعون منها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ...

ولكنهم كانوا يحيون فى مدينة فاضلة من هذا القصر المنيف ، فلم يبد العجب فى وجوههم وهم يحيئون ويروحون حاملين صنوف الآكال وأكواب الماء الزلال ... ! ولم يكونوا ينظرون إلى المهراجا العظيم بقدر مايدمنون النظر فى هذه الملكة الإغريقية الساحرة : إدريانا ، وهى جالسة وسط الجماعة ماتنبس إلا قليلاً ، وقد عقصت شعرها الجميل فوق رأسها كأنها أفروديت !! وفى الحق ... لقد كانت إدريانا فتنة المجلس ... ولم تشبع عيون المهراجا والحاشية من النظر إليها بقدر ما شبعت بطونهم من الآكال الفاخرة العجيبة ... وكانت عيناها الواسعتان السحريتان موضع فتنة القوم ولا سيما الشباب ذوى الأمانى والأطماع ...

ومضت أيام ، ولومارشان محافظ على وقاره الذى دُبر له أحسن تدبير وأبدعه ، حتى أحست إدريانا أن جانباً من مأساتها ينجاب عن قلبها ، وبدأت تشعر بطرف من السعادة التى افتقدتها طويلاً فلم تظفر بها ... وسرها أن زوجها استعاض عن نشوة الكأس بحميا الرياضة ، وكان رياضيًّا بارعاً ، فكان يستيقظ فى البكور فيركب جواده ، ثم يمضى إلى الملعب فيبارى المهراجا فى لعبة الأكر ...

ولم يكن يعلم أحد بالنار التى تأججت فى قلب المهراجا ، والتى أورت لهيبها عينا إدريانا ... لقد ظلت هذه النار المقدسة سرًّا هائلاً يؤرق المهراجا العاشق ، ولايستطيع أن يبوح به لأحد إلا للعينين الحبيبتين اللتين كانتا تنظران إليه فى تيه وعجب ، وهو يقص غرائب أخباره عن أساطير الهند ، ومشاهداته العجيبة خلال تلسكوبه فى أديم السماء وما وقع له فى الأدغال من ملاحم بينه وبين الفهود والنمور والفيلة ... لقد كان يكتم حبه ويقاسى منه مالا قدرة لجبل على حمله ، وكان يعلم أن النجوم التى لا يراها بالعين المجردة هى أقرب من إدريانا المتزوجة على قربها الشديد منه ... ولكن حبه كان يغلى فى قلبه ، فيفور دمه الشرقى ، ولا يجد محيصاً من أن يبرد تحت ثلوج القنوط التى كانت تصدمه ... لأنه محال أن يجزى عن حبه بشىء مهما كان حبه عظيماً طاهراً ...

لقد سقطت أزاهير كانت تحملها إدريانا مرة ، فأسرع المهراجا العظيم بكل ما عليه من لآلئ وحلى فانحنى عليها ، وحملها للملكة ... ملكة قلبه ... مع ما فى هذا من وشك افتضاحه ... بيد أنه لم يبال ، بل تمنى لو استطاع فنمر الأزاهير بالقبل وهو يقدمها لسالبة لبه ...

وحان موعد الأوبة ... وانقضت الفترة السعيدة ... وتصرمت ليالى الأحلام ... وكان غداء فاخراً غداء الوداع المؤلم الذى أعدته لوللى لأضيافها ... ولم يكن المهراجا قد برح غرفته بعد ، وكان بابها مفتوحاً قليلاً ، فشهدها تنزل على الدرج وحدها ، فخفق قلبه فى شدة وعنف ، وجعل يحلم — وهو واقف يترنح وينتفض — بهذا الملاك الفاتن والجمال العجيب ، وهذا الشعر الذهبى الذى أرسلته إدريانا يَغْدِرُ فوق كتفيها ، وهذا الفم الساحر القرمزى الذى خلق للقبل والحب ، وهذا الجسم الفينان الذى خلق لجنة كاملة من الهوى ، وهذا الصدر العاجى الذى خلق للضم والعناق ... ... ثم أوشك المهراجا المسكين أن يهبط وراء معبودته ، لولا أن اغرورقت عيناه فجأة ... فارتد صَعِقاً ليكفكف عبراته ، وانحط على أريكة قريبة وجعل

يتمتم ويقول : « وا أسفاه ! الجنس ! الدين ! القانون ! كل أولئك فواصل تحول بين الرجل والمرأة أشد مما يحول بينهما الله ... وأمنا الطبيعة ... ! »

وطفق يبكي كالطفل ... ولا يد له في شيء ...

* * *

وآب المهراجا إلى ملكه ... وجلس القوم إلى غدائهم مرة ، وبرزت بنت الشيطان على الخوان من جديد إذ لم يعد داع إلى تحريمها بعد إذ ذهب المهراجا. وجلس كلود بجانب لومارشان يردعه ويكبحه ، ولا يسمح له أن يضيع حلمه ويذهب وقاره بين الكأس والطاس ... ثم نهض النسوة ، وذهبن إلى الصالة الكبرى ، ليأخذن في رقصة جميلة اقترحتها إحداهن ... ولم يمض وقت طويل حتى سمعن ضجة دخل على أثرها المهراجا المتبول بكل جواهره ولآلئه تحف به حاشيته العظيمة العجيبة ... وكان بعض خدمه يحمل عرشه المصنوع من الذهب الخالص ، فوضعوه لسموه في ركن من أركان البهو ، حيث استوى عليه ، وراح يتفرس في الراقصات ، حتى إذا رأى إدريانا سمرت عيناه في طيفها الأثيري ، ولم تريما عنها ... ثم أقبل الرجال فحيوا المهراجا وحياهم ولم يكن غريباً أن يرتبك كلود ... ويسقط في يديه

ونهض المهراجا من عرشه ، ولم يبال أن يقترب من الراقصات ليملأ قلبه وعينيه من ملاكه الحبيب ، وطمع أن تمسه مصادفة بطرف ثوبها ، أو بالوردة الكبيرة الحمراء التي تزين صدرها ... أو أن تلقي عليه ظلال شعرها الذهبي ، أو أن ترمقه بنظرة من عينيها السحريتين ... وما كاد يفعل حتى رأى ضابطاً صغيراً يدنو من أدريانا ، ويسر إليها بكلمات فيمتقع لهن وجهها ، وتغادر المرقص من فورها مع الضابط ... ولا يبالي المهراجا أن ينطلق وراءهما ليكتشف السر ، ولا يبالي أيضاً أن تمتد إليه الأبصار من كل صوب لترى ما ذا يريد ... وتدخل إدريانا غرفة الطعام مع الضابط الصغير فترى زوجها ثملاً نشوان ... وقد شرب قارورة بأكملها من الخمر التي تسكر كأس منها أضخم فيل من فيلة الهند ، وأوشك أن يأتي على زجاجة أخرى ... وتجد زوجها المسكين قد ألقى ذراعيه ورأسه على الخوان ، وأخذ في شخير منكر ...

وتذهل إدريانا ... وتشير إلى الضابط فيتقدم إلى زوجها فيحتمله ، بينا زوجته تقول :

— رتشارد ! أتنام هنا ؟ هذا لا يليق ! ماذا تقول لولي وماذا يقول زوجها وماذا يقول الضيوف؟ قم ! استيقظ ... إصعد فنم في غرفتك لتستريح ...

ويقول الضابط الصغير : « هلم يا كابتن ... إصح ... هذا لا ينبغي ! ... »

ويصحو الكابتن الثمل ... ولكنه بدلا من أن يصعد لينام ... يقف كالشيطان ويلكم زوجته التاعسة بقبضته القوية الجبارة لكمة ... تلقيها على الأرض ... مغشياً عليها ...

وهنا يغلي الدم في رأس المهراجا ، وينقض كالصاعقة على الزوج البهيم ، فيقذف به على الأرض وينشب في عنقه أظفاره ، ويوشك أن يزهق روحه ويخمد أنفاسه... ويجري الضابط ، ويقبل مع كلود ، كلود الدمية ... الذي ينقض بدوره على المهراجا فيحتمله بين ذراعيه ، وينقذ الرجل منه ، ويقول : « ماذا ؟ ألا ترى إليه ثملا يا صاحب السمو ؟ كيف تقاتل رجلا لا يملك أن يدافع عن نفسه ؟ إنك لست جباناً ولا سفاحاً ! ... » ثم أمر الضابط أن

يستدعي زوجته لوللى ... ونظر بعد ذلك إلى المهراجا بكل ما فى عينيه من نبل عسكرى ، وأنشأ يقول : « إنك ضيفى يا صاحب السمو ، فاغفر لى ما صنعت يداى معك ... بيد أننى عجبت كيف تعارك ثملاً ! » فقال المهراجا وعيناه تتقدان غضباً : « لقد قتل الحيوان زوجته ! » فقال كلود : « عفواً ياصاحب السمو ! إنك أحد رعايا الإمبراطورية ، وليس هذا من شأنك ! وليس لك أن تحمى إنجليزية ولا سيما من يد زوجها ... معذرة ... إنك لا شك تعرف كل ذلك تمام المعرفة ... ووجم المهراجا قليلا ، لكنه انحنى انحناءة خفيفة ، ثم غادر البهو وعاصفة من الألم تزعزع قلبه وتشتعل في عينيه ... ثم أقبلت لوللى فانحنت على صديقتها ورفعتها من فوق الأرض ولم يملك المهراجا أن ينظر خلال الباب ليرى إلى وجه معبودته الأصفر الممتقع ، ووردتها الذابلة المنتثرة

وحملت إدريانا إلى غرفتها وهى لا تكاد تعى ، فباتت ليلة ليلاء طويلة الآلام موصولة الأحزان ، ثم أصبحت وبها من العلة ما يوشك أن يقضى عليها

وانطلق كلود إلى حجرة لومارشان فأيقظه ، وقال له وهو عابس ثائر :

— كابتن لومارشان ! زوجتك تشكو من علة شديدة ! ... لقد سلكت أمس سلوكا شائناً لا يليق بجندى بريطانى ... إحمد الله أنك لست فى فرقتى ! يا للعار ! إنجليزى يضرب زوجته ! وأمام مهراجا ؟ فماذا يظن الرجل بمدنيتنا ؟ لقد كاد يقتلك لولا أن أنقذتك من قبضتيه ! على أنك تعلم أنه ضيفنا وهو ذاهب اليوم ، وقد كلمنى فى أمرك ، وهو يريد أن يراك قبل أن يرحل ! »

— لا ... لا شأن لى به ... ولن ألقاه حتى ينزل به القضاء ما يستأهله ... الوغد !

— بل أنت الذى يُنزل بك القضاء ما تستأهله إن أبيت ! على أنه يبدو لى أنك تخشى أن تلقاه ... وإنى أقسم لك بربى أننى لن أسمح لبريطانى أن يَبدو أمام الهنود جباناً كما تريد أن تفعل

وبرّق الكولونل عينيه ، وراح يفتل سُبالَىْ شاربه ، وفى صدره ثورة من الغيظ جامحة ... فقال الكابتن :

— حسن ... أين هو هذا المهراجا ؟

— هو فى الجناح الخاص به ... وحده ... ولا بأس إذن من أن أخبرك أنه يريد أن يعتذر لك

فما سمعها الكابتن حتى ضحك وبدت نواجذه ، ونهض من فوره للقاء المهراجا ... ونظر إليه الكولونل نظر المغيظ المستهزئ ، وجمجم فى سره يقول : « يا ويح ! مسكينة تلك الطفلة البائسة إدريانا ! مسكينة فى مُثلها العليا التى تمخضت عن هذا الفشل ! ... تعالى يا لورا فاشهدى النموذج العجيب الذى كنت تشرئبين إليه ، وتتخذينه صنما لأحلامك ! هلمى لتحمدى الله على ما وهبك ! » . وفى الحق لقد كانت فرصة عظيمة للكولونل الذى كان يستكين لزوجه ، برغم ما كان يشعر به من الاستخذاء فى صميمه بسبب ذلك ، أن يفكر فى عجب لوللى وكبريائها ... وها هو ذا قد جلس يبتسم لهذه الفكرة ، وينظر إليها تتأرجح خلل الدخان الذى يتصاعد من لفافته ، وينقذف من أنفه وشفتيه كما ينقذف البخار من محبس القطار !

واستأذن الخادم سيده المهراجا للكابتن فأذن له ، وكان هذا يجلس على كرسي كبير ، ويطل من نافذة مكشوفة على الحديقة اليانعة . فلما أحس

بالانجليزى خلفه أوماً برأسه إيماءة هينة ، ولم يقف ليحييه ... فارتبك لومارشان ولم يدر ماذا يفعل ، ثم بحث عن كرسى ليجلس عليه فلم يجد ، فزاد ارتباكه وتضاعفت حيرته ... وكان فوق منضدة الوسط طاس به أزهار ناضرة تملأ هواء الغرفة بعبقها العطرى ، فانحنى الجندى فوقها يتشممها ، ويدفن فيها حياءه . وفى كل خطفة عين يتجه ببصره نحو المهراجا ... الذي تركه هكذا دقيقتين أو نحوها ، ثم التفت إليه فجأة مستديراً فوق كرسيه وقال :

أيها الكابتن لومارشان ! أقدم إليك اعتذارى عما فرط منى من مهاجمتك أمس إذ أنت فى غير وعيك ... وذاك لأننا نحن الهنود ، لا سيما من هم فى طبقتى لم نعتد شرب الخمر ، لذلك لا نعلم من عقابيلها فى ألبابكم شيئاً ... وقد فطنت إلى غلطتى بعد أن عرفت ذلك ، ولهذا فقط أعتذر »

وهنا ، بلع الكابتن ريقه ، ورُد إليه قليل من ذهنه المُشَرَّد ؛ ثم وصل المهراجا كلامه فى نفس اللهجة التي ابتدأ ، وبنفس الأسلوب : « إيه يا كابتن؟ هل تطلب ترضية أخرى ؟ وهل بحسبك ما اعتذرت به لك ؟ » وكأنما فاء الانجليزى إلى خَيلائه فتذكر أن محدثه الهندى ، وإن يكن راجا عظيماً ، إن هو إلا أحد العبيد الذين لا يصح أن يُساموا الشرف الانجليزى ممثلاً فى أحقر جنودهم ؛ فأخذ يفتل سُبَالىْ شاربه ، ثم قال بأنف شامخ ، وخدّ مُصَعَّر : « أجل ، قبلت اعتذارك ! » وطارت العبوسة الهائلة التى كانت تُرتق فوق جبين الراجا القطب ، ولمع فى عينيه برق خاطف ، وهتف بالانجليزى المتعجرف يقول : « والآن يا كابتن لومارشان : ها نحن هنا ندّان فريدان ، فهل لديك الشجاعة الكافية التى تلقانى بها لخصم شريف بوده لو حطم رأسك ، وزلزل كيانك ، لينتقم لهذه المخلوقة الضعيفة الحسناء ، التى لطمتها فى موضع العزة ، ومكان الكرامة الإنسانية ، فانطرحت فوق الأرض تتلوّى وتئن وتتوجع ، ليلة أمس ؟... مالك تنتفض هكذا ؟ ... آه ... إنها زوجتك ! وأنت إنجليزى ، وهى إنجليزية ، ولا حق لهندى مثلى فى التدخل بينكما ، بَلْهَ حماية زوجتك منك ! وهذا هو قانونكم ! » ثم أرسل الراجا آهة عميقة هائلة ، مازالت تعصف بالكابتن الواجم حتى عرف أنها انطلاقة الحب ... ولكن الكابتن لم يُحر جواباً مع ذاك ، بل ظل بارداً كالثلج ، جامداً كالحديد ؛ وانطلقت ألف فكرة تهجس فى قلب المهراجا ، فهب من كرسيه الماجى ، وطفق ينتفض ويقول : « أواه ! أواه ! أيها الانجليزى المتعجرف الصَّلِف لو استطعت أن اشترى منك زوجتك الجميلة الرائعة لأصونها عن البهيمية المتأصلة فيك ! إذن لنزلت لك عن نصف أملاكى وجواهرى ! ... إننى لو استطعت أن أضمها إلىّ ، وأخبئها فى قصورى ، بدافع الرحمة والإنسانية ، للأتم الدنيا صراخاً وعويلا ، وجعلتم تذموننا وتشتموننا ، وتقولون كدأبكم ... الهنود وحوش ... الهنود غير قابلين للتمدين ، يجب أن يظل الانجليز إلى الأبد سادة الهند ... ! وا أسفاه ! إننا شعب مغلوب على أمره ، وأنتم أيها الانجليز تحتقروننا ... ولكننا نستحق ، فقد ألهتنا صغائرنا عنكم ، ورسفنا فى قيود المذلة التى وضعتموها فى أرجلنا خلاخيل من ذهب أجيالاً بعد أجيال ، ودفنّا حكمتنا بأيدينا فألهيتمونا ببعث البدع والضلالات ،

وتقشية الشعوذات والخرافات ، وقلتم إنها دين الشعب ، ومذهب الغالبية ، فأنتم لها حماة وعنها ذادة ، وبذا ضعفت الهند ، فأنتم تحكمونها بضعفها ... ومن يدرى ؟ فقد تستيقظ الهند يوماً فتُسْحِتَكم[1] وتقطع دابر الذين ظلموها منكم... ولست مع ذاك أنتقص من دولتكم ، فأمتكم أعظم الأمم ، وانجلترا سيدة العالم .. ولكن مثلك هو من غير شك عار عليها ، ولطخة دنس فى مجدها ... ولم ذاك ؟ إنك وأمثالك تشترون البغايا الهنديات لتقضوا منهن أوطاراً لئيمة ، وتنسون نساءكم ، وتطّرحون زوجاتكم ... وليس بحسبكم هذا ، بل تفضحونهن بين الناس ، وبين الهنود ، كما فعلت بامرأتك أمس ! ... ولكن ما لى ولهذا كله ؟ وفيم بعثرة الكلمات مع دنس مثلك ؟ لقد اعتذرت لك يا لومارشان ، وانتهى ما بيننا ، فهل تعدنى قبل أن نفترق إلى الأبد ألا تهين زوجك على الصورة التى رأيت منك أمس ! إنها جميلة أيها الرجل ، وهي بتدليلك لها أولى ، وبمحبتك واحترامك أجدر ، فلم تعاملها تلك المعاملة التى تجعلها تأسف أشد الأسف على أن تزوّجتك ؟ الحق أنه لا شأن لى فى كل ذلك ... ولكن ... إنس ما بيننا الآن من فروق ... إنس أننى هندى لا شأن لى ، وأنك إنجليزى لك شأن أى شأن ... إنس الجنس ، إنس الديانة ، إنس النَّعرة والعصبية ... إنس كل أولئك يا لومارشان ... واذكر أننا من صنع إله واحد سرمدى أحسن كل شىء خلقه ... إذكر هذا فقط حين أطلب منك أن تعدنى وعد حر جدير بشرف الجنود ، أنك لن تعود إلى مثلها ! ! »

(١) تستأصلكم

وكان المهراجا يتكلم فى طلاقة ويتدفق فى بيان ساحر ممتلئ بحرارة الإنسانية والمحبة . ولما انتهى من حديثه بسط يده إلى الكابتن ليقاسمه ، ولكن الكابتن صعر خده ، وشمخ بأنفه ، وضم ذراعيه إلى صدره فى أنفة وكبرياء وقال :

— « ألا ما أجل ما تطلب أيها الهندى ! من أنت حتى تطلب ذلك إلى ؟ »

فصرخ المهراجا صرخة مدوية ثم قال : « إنك مسيحى ! وطالما ذكروا لى أن المسيحية هى دين الإخلاص الصحيح وملة المحبة والسلام والنقاء ... على أن لنا نحن الهنود ملة أخرى غير المسيحية ، وفى ملتنا أن من عاهد على شىء وحلف عليه ، فليس إلا أن تبر يمينه ، فلا يتحلل منها ، أو يرد موارد الهلاك ! أفليس فى ملتكم شىء من هذا ؟ »

وتبسم الكابتن ابتسامة حمقاء جاهلة ، ثم نفض تراباً من كتفيه ، وقال : « لا ... » وما كاد يقولها حتى امتشق المهراجا خنجراً هائلاً من حزامه وشهره بشدة وحنق ، ورفع يده ليغمده فى صدر الكافر الذى أراد أن ينكر فضيلة المسيحية غطرسة وعناداً ... ولكن ... لقد فر الجبان أرشق ما تفر النعامة من مطاردها فى الصحراء ... وأغلق الباب دونه ... فابتسم المهراجا وأغمد الخنجر ، وقال وهو يجلس على كرسيه فى صوت متهدج : « إذهب أيها اللعين ! »

وبعد ساعتين كان المهراجا يستأذن مضيفيه الكريمين لوللى وزوجها فى الانصراف ، وقد ودع بما يليق به من حفاوة وتبجيل ، وازدحم الجميع حوله يُحيون ويُبَيّون ... إلا ... إدريانا ... التى بلغها أن المهراجا يوشك أن يرحل ، فنهضت من

سريرها ضعيفة موهونة ، وأغلقت باب غرفتها ، ثم قصدت إلى نافذة تطل على الخارج من القصر وحديقته الفيحاء ، ففتحت أحد مصاريعها ، ثم وقفت تَتَنَظَّر ، حتى إذا مر المهراجا ، اغرورقت عيناها فجأة ... وخفق قلبها بشدة ، حينما اتجه بكل وجهه وعينيه وروحه ناحية نافذتها . فلما رآها ، ولمح الدمع ينهمر على خديها الشاحبين ، زلزل قلبه وارتجفت أعصابه ، وعرف السر الرائع اللذيذ ... وانتقلت من عينيها إلى فؤاده أولى رسائل حبها ... أو ... شكرها ... أو إعجابها !

* * *

ولكن ماذا يجدى المهراجا أنها أعجبت به ... أو أنها أحبته ؟ ! لقد فسر هو القضية ، وساق كل كل براهينها ! فهو هندى ، وهى إنجليزية ... وهو برهمى ، وهى مسيحية ... وهو عزب ، وهى متزوجة ... وهو عبد برغم اللآلئ الثمينة التى تزين صدره ، وتثقل كاهله ... وهى حرة لأنها من نساء الإمبراطورية ... فأى مطمع له فيها ..؟ لا شىء !!

ما كان أبدع البدر الهندي فى هذه الليلة ! وما كان أعبق الهواء البرهمى بشذى النوار الجميل الممتد فوق سطح قصر المهراجا ! وما كان أشبه هذا السطح الجميل بحدائق بابل المعلقة ! وما كان أشبه القمر السافر الساخر بقنديل الزيت معلقا فى العلو وسط قبة السماء ، وهو يترنح فى الأثير كالسائح الكسول الذى أعياه المسير عبر الصحراء ! لقد كان يغمض أحياناً ، ثم يصحو ، ثم يغمض كأنه الحبيب الذى يُفَتِّر عينيه وما فيهما من نعاس !

لقد كان المهراجا العاشق يجلس وحده تحت هذا الكون الهادئ ، وإلى جانبه تلسكوبه الكبير الضخم ، وقد انبطح تحته يقلب عينيه فى العوالم والدُّنى المتنائية التى لا تتناهى ... ولا يزعجه أى شئ حوله ... فقد سكن كل شئ ، واطمأن كل شىء ! وليس شئ يلفت النظر إلا هذه العمامة الكبيرة التى جعلت ماستها الثمينة تعكس أضواء القمر والنجوم ، وإلا هذه العقيقة الحمراء كالدم تتألق فى خاتمه ... وهكذا جلس المهراجا يفكر فى أسمى ما يفكر فيه البشر ... فى الحب ... ولكن فى أسلوب ليس كهذا الأسلوب الذى يفكر به الناس ... ثم جعل يتمتم فجأة ويقول :

— ينبغى ألا أخفى هذا الشئ العظيم عن نفسى ! حقاً إنه ذنب كبير ، ونقيصة أى نقيصة ، ولكنه مع ذلك شرف وجلال ومجد ! إنه ذنب ووزر أن أحب حسناء كان لا ينبغى أن يعلق بها قلبى هكذا وعلى هذه الصورة . لقد مزجتها بدمي وروحى ، وجعلتها القديس الذى يخفق بالحياة بين جنبى ؛ بيد أنه شرف ومجد وجلال أن أموت بهذا الحب ، فأحبها إلى الأبد ، وسيقتل الموت كل ما فى ولعى بها من دنس ... لقد فطن زوجها إلى ما بيننا وربما أخذها به . ولقد لمحت هذا فى جبينه المقطب واستوضحته فى عينيه المغيظتين . فإذا فعل فستحزن إدريانا ، وسأكون أنا الذى تسببت لها فى هذا الغم الذى يشبه الفضيحة ! فكيف أحتمل الحياة مع هذا ؟ وأنا إذا عشت فسيظل غرامي بها مختلطاً بدمى ، ورغبتى فيها ناشبة أظفارها فى قلبي ، وهواها ساريا فى أنفاسى . وسيكون فى ذلك كله إيلامها ، وتوجعها ؛ أما إذا مت فلسوف تستعظم حبي ؛ وقد تبكي مرة من أجلى ، فتكون دموعها ملائكة رحمة لى ، تقف

في الهواء لترفرف حول رمادى ! وفضلاً عن ذلك فالحياة الحب ، وهى بدونه موت بغيض ، وإذا حييت فلا بد أن أذكرها دائماً ... أذكر ماستى الكبرى .. زنبقتى العزيزة البيضاء ! وسأذكرها دائماً فى ملكية زوجها الظالم الذى لا يستحقها ... وسيكون فى كل ذلك آثام وأوزار لى ... فلم لا أتخلص من هذا ، وأفكر فيها فى مكان آخر أكثر طهارة وأشف نقاء ... ؟ إن الحب لغز عميق مضل لا يستطيع تفسيره إلا الله ! ولكنى أفسره أنا الآخر على قدر استطاعتى ... على أنه إذا أحب أحد من الناس وأخلص فى الحب فسيحب مخلصاً إلى الأبد ... حتى بعد الموت ! وليس يخضع الحب لقانون أو عرف أو دين ! بل ليس يغيره شيء من هذا ؛ ولا يخفف سورته شيء من هذا .. بل .. ولن يطفئ ناره المتأججة هنا .. إلا الحبيب ، أو .. الموت ! وبعد الموت ماذا عساى أجد ؟ ! أجدنى إما مع أشجاني وآلامي أو ... مع الله ! » قال هـذا ، وكان يمسح بيده المرتجفة على موضع القلب من صدره ! ورفع وجهه وراح يقلب عينيه فى القمر الساحر والنجوم المتألقة ثم قال : « أوه ! أيتها الدنى التى لم تكتشف ، ويا أيتها العوالم التى يرجم الناس بشأنها ! ما أملأك بالحياة ! وما أكثر ما وراء الستار الكثيف الذي يحجب أسرارك عنا ! إنه لا يعرفك إلا الأرواح الهائمة الطليقة التى تسبح فيك بعد الموت ، والتى تجد فيك الحب الصحيح والسلام الدائم !

يا ربى ! يا إله الجميع ! أستودع الحياة بين يديك وفى أعماق الوجود ، لأصعد إليك ... ولألقاك ! »

* * *

لم تكن إدريانا تحسب أن المهراجا سيشرب السم من الخاتم العقيق الكبير ، بل كانت تحسبه يصلى صلاة هندية ، فلم تجرؤ أن تقترب منه ...

وكانت قد انسرقت فى ظلام الليل بعد أن عرفت ما به ، وعلمت طريق قصره وسط الريف الهندى من صديقتها لوللى ... فلم تبال بشيء ، ولم تأبه لشيء ... بل رحلت إليه ... ربما على فيل كبير أبيض ... لتشكر له ... ولتثنى عليه ... ومن يدرى ؟ ! فربما كان فى تصميمها أن تمنحه قبلة ...

وشرب الراجا السم ... وصمت إلى الأبد !

وتقدمت إدريانا لتشكر له ... فوجدته قد أسلم الروح ...

وكانت قد سمعت كل ما قاله عن الحب ، وعن الموت ، وعن السماء ، فجلست بجانبه تبكى ... وتذرف فيه دموعها ... لأنها واأسفاه ! ! وجدت فيه مثلها القديم الأعلى

* * *

— لا تذهبى يا سيدتى ... الوصية ... لقد أشهدنى على الوصية !

— أية وصية يا هذا ؟

— لقد أوصى لك بهذا القصر إذا فكر زوجك فى أن يهجرك . وأوصى لك بضياع ولآلئ ...

* * *

وهجرها لومارشان ... وعاشت فى قصر المهراجا ... ولكن ... كالراهبة ... وكانت لوللي تختلف إليها ، ومعها زوجها (الدمية) كلود أنسللى

الشال الهندي

أقصوصة بوليسية

بقلم م. ل. هويكنس

للأستاذ محمد لطفي جمعه

حدث پرماشور لال عن نفسه قال :

عندما بعث بي والدي چاپوتانا لال إلى القارة الأوربية لأتناقى علوم الطب والجراحة ، قال لي وهو يودعني : « كن خيّراً ، فإن لم تستطع فكن حذراً : »

وقالت لي أمي : « خذ هذا الشال تتلفع به ليقيك برد تلك البلاد القاسي » وكان من صنع كشمير ، رقيق النسج ، بهيج الألوان « وإذا فقدت شيئاً فاقرأ تعويذة كالي ، ولقنتني تلك التميمة بالسنسكريتية ، لأن أمي المحبوبة لم تكن تعرف الكتابة

وركبت البحر من بمباي في باخرة عتيقة ، فلما بلغت مدينة لندن ، وجست خلال طرقها ، واحتواني جوها القاتم وأظلتني سماؤها المظلمة ، أحسست بالوحشة ، ودب في نفسي الحنين إلى الوطن ، فرأيت نفسي أدفع وأدفع وأزاحم وأصادم ، بين وجوه غريبة وأرواح ظمأى للمادة دائبة الحركة ، لا تقف ولا تنى ولا تتأمل ؛ ونظرت في الشوارع السوداء ودخان المصانع يغشى أوجه المباني ، فذكرت ما كنت أنعم به في وطني ، ولا سيما في قرية شنجري من بساط الثرى الأخضر ، وسرادق السماء الأزرق ، يتلألأ في قبته سراجه الوهاج ويتألق ، وعجبت لقوم يعيشون بدون الشمس في ظلام حالك ! لك الله يا أرض الوطن باندي ما ترام [1] أيتها الأم الرؤوم العطوف الودود الألوف المتحدبة على كل بنيك وأولادك ، يامن تشملين الغريب وابن السبيل والبار والفاجر بأنوارك الزهراء وألوانك ذات البهاء والبهجة . طوبى لمن يحلو له المقام ، ويصفو له قضاء الأيام ، في سهولك ووديانك ، وعلى ضفاف أنهارك أو في سفوح جبالك . لقد

(١) تحية الهنود لوطنهم وتعريبها عمي صباحاً أيتها الأم الرءوم !

تعريف بالقصة

مارتين لويس هويكنس أو هويكنز مؤلف شاب ، ولد في الهند وعاش فيها قسما كبيراً من حياته ، وأتقن وضع القصة القصيرة وكان أبوه طبيباً في مقاطعة لاهور ولكنه تخرج في الآداب والفنون — ولد سنة ١٨٨٦ ونشر أدبه في مجلة ستوري مجازين ووايد ورلد مجازين وكتب القصة الاستتاجية في مجلة ستراند لأحد أعداد عيد الميلاد الشهيرة فحازت إعجاب النقاد والقراء لما حوته من صدق الوصف ودقة التحليل وهي التي ننقلها إلى قراء العربية بعد اعجابنا بها واعتقادنا أنها من روائع الأدب الواقعي . فان وصف الشخصيات الهندية والانجليزية وعقدة الشال والتعويذتين من أغرب ما اهتدى إليه مؤلف ، وقد جمعت من عجائب الرواية وسلاسة الاتصال بين الحوادث ما يدل على علو كعبه . وقد عن على بعض النقاد من الانجليز (في مجلة بلاكوود مجازين) أنه لم يوفق إلى تزويج البطل پرماشور لال من جريس راوتش ، بعد أن كان سياق الحوادث يقتضيه ولكن خلق لال نفسه يفسر الأسباب الخفية التي نهته عن ذلك بعد أن رأي ما حل بالكولونيل وينكل وزوجته ومعشوقها الهندي ولعل القاريء المصري يروقه الحل الذي قدمه المؤلف ، دون الحل الذي اقترحه الناقد

كنت وحق كالى [١] وكريشنا [٢] وفيشنو [٣] أنظر ماء الازهار فى عروقها تجرى ، وأسمع العشب وهو ينمو ، وأطرب لتغريد الطير ، وألمح الأفاعى تنساب بين الحشائش الخضراء فأطمئن لها !

حقًّا لقد كانت تعرونى لذكرى وطنى هزة أى هزة ! وكنت أحياناً ألتمس الألفة والهناء فى صحبة أبناء وطنى الذين يطلبون العلم مثلى ، فكان هارديال وشاتوبادايا وسادومال من أعز أصدقائى لأنهم نزحوا من قرية قريبة إلى قريتى ، وجمعتنى ببعضهم مدارس لاهور ، عاصمة مقاطعتنا . ولكن هارديال كان درويشاً ، يحب فتاة هندية رشيقة القد ، فاتنة النظرات ، ويخفى حبها عن صحبه ما عداى ، فإنه باح لى به ليلة فى شارع الصقر الأزرق بهمر سميت على طريقة غربية

كنا فى حفلة ليلية أحيتها مدام راما ودعت إليها بنات الهند اللواتى يتلقين العلم بكليات البنات العليا وبينهن تلك الفاتنة جوخالى ، فغنت أغنية « أيها الحبيب النائى ، هل نسيت ودادى ؟ » بصوت يشبه صوت الملائكة ؛ وأنا أقول لك ذلك ولم أسمع صوت الملائكة ، ولكنه فى ظنى لا يزيد على صوت تلك الفتاة حلاوة وطرباً ؛ وقد تخير هارديال مكاناً قريباً من قدى جوخالى وجثم فيه على صورة تشبه الركوع وتشعر بالعبادة . ولكنى لم أدرك سره فى أول الأمر ، فلما انفض الحفل ، وخرجنا إلى الطريق يلتمس كل منا مسكنه ، انحنى هارديال على كتفى وأخذ يمشى كمن يزحف ، وهو يبكى حتى بلل ثيابى ، يبكى بكاء الطفل الذى لا يعرف له أباً ولا أمًّا ولا مأوى ، فسألته فى رفق عن سبب عويله الذى آلمنى ،

فقال إنه حب جوخالى الذى ملك لبه وهو لا يستطيع أن يفاتحها به لأنه فقير من طبقة أقل من طبقتها ، وأنا أعلم حق العلم أن نفسه لا تحدثه بالزواج منها . ومما زاد نار صاحبى المضنى اشتعالاً أنه خلف وراءه فى الهند عروساً صغيرة فى السن لم تشب عن الطوق ، فقد زوجه منها أبوه وهما فى المقد الأول دون أن يحسب للمستقبل حساباً . إنها حقًّا لكارثة ، وشكراً لك يا أبي على أنك لم تهف مثل تلك الهفوة فتجعلنى تهياً بين عشيرة شرعية ومعشوقة مثالية ، لا أحب الأولى ولا أنال من الثانية منالاً . فطيبت خاطر هارديال وجففت دموعه ، ولو استطعت لحملته كما تحمل الأم ولدها

صاحب ذلك العقل الجبار فى الفلسفة ، لقد نال أعظم الشهادات وقرأ أضخم الكتب وانطوت نفسه العطشى للحكمة على أعظم المذاهب وأعمق المسائل . وهاهوذا بجانبى ينوح ويعول كاليتيم الضال ؛ فلما وصف لى شعوره وهو جاثم تحت قدميها كانت هذه الفكرة الأولى عن الحب التى دخلت قلبى . نعم رأيت أزواج الانجليز فى حديقة هايد پارك يتعانقون ويتبادلون القبل ، ويتضاجعون على الحشيش الأخضر فى ضوء القمر ، وقد التفت الساق بالساق على مرأى ومسمع بعضهم من بعض . ولكننى لم أفهم أن هذا هو الحب ، لأنه كان مبتذلاً معروضاً كما ترى الحيوان والطير فى فصل الربيع وموسم النتاج . أما البكاء والعبادة والأمل المنشود وهو ضائع ، والحسرة على المعشوق والتحرق وهو أمامك ، هذا هو الحب بعينه الذى قرأت عنه فى كتب الهند وورثته عن أهلى وقومى ، حب قوى كالشلال ، طاهر كقلب العذراء ، نقى كالفضة . أما شاتوبادايا

(١) و(٢) و(٣) آلهة من آلهة الهند ولها هياكل مشهورة

فكان من قرية سودي في مقاطعة باهويال وهو هندوكى مثلنا ، وكان يحب فتاة انجليزية تنظم الشعر لأنه شاعر ، وكان أسود اللون والحدقتين والشعر ، وله شارب كشارب الصقر ، وصوت ممتلىء غليظ وقامة مديدة فرعاء وكل عضو ظاهر فى بدنه ينطق بالرجولة الناضجة . وفى ظنى أن الانجليزية وكان اسمها كيتى أحبته وفضلته على بنى جلدتها البيض الشعر الماسخين الباردين . وكانت كيتى غنية ذات جاه ومال ، ولها قصر فى جروفنور سكوير حيث كان يوافيها تحت سمع والديها وبصرهم ويجالسها في قاعة الاستقبال يشربان الشاى ويأكلان الفطائر الدسمة ، ويتطارحان الشعر ، ويتبادلان الغرام فى غير تستر ولا حياء على الطريقة الانجليزية . فقد أذاعا خطبتهما ، وأخذت كيتى تغدق على شاتوبادايا من نعم والديها ، فألبسوه أحسن الثياب ، وعرفوه بأرقى الطبقات ودعوه إلى أفخم الحفلات ، وصار ابن الصياد (وكانت هذه حرفة أبيه) فى مصاف العشائر العليا . وكان هذا الشيطان ينشد شعره فى محافلهم وفيه الطعن المرير فى بلادهم وهم لا يفهمون منه حرفاً . كما كان يحفظ قصائد وملاحم من شعرنا القديم يرويها فتنحدر من حنجرته كالسيل المنهمر ، فتكاد كيتى يغشى عليها من افتتانها بذكورته الصارخة ، وهدير ألحانه

أما سادومال فكان ولداً قصير القامة ، خفيف الظل ، جاهلاً بالعلوم والآداب لم يثمر فيه تعليم ولا تهذيب . لا يقرأ من كتب الدنيا شيئاً سوى الأدب الروسى (ويسميه سكاروش ، أدب موسكوفى) ويمعن فى دراسة قصص الجرائم والبيوت المسكونة بالجن وخزعبلات إدجار آلان پو وإدجار والاسى ، ولكنه كان متصوفاً على طريقة راجا يوجى ، تمرن عليها فى الجبال المحيطة بقريته (ديرسال) وهى محط رحال دراويش الهند ، حيث يتعودون الصمت وكتم النفس وتركيز الإرادة ، والتحكم فى شهواتهم فلا يأكلون ولا يشربون إلا فى الندرى ، ولا يقربون النساء حياتهم . وكان سادومال فى أول أمره يطمع فى أن يصل إلى الإيمان الذى ينقل الجبال ويجفف الأنهار ويقتلع الأشجار فى الحراج ، ويدعو الوحوش والطير فتلبى نداءه كما فعل بوذا أثناء خلوته تحت شجرة التين الخالدة . فسلك مسلك « الفقراء » وعاش عيشة الزهد والعفة وحصر نفسه فى أضيق نطاق

وكان من حسن حظه أو سوء بخته ، أن ضجر من طول المراقبة المحتومة على كل يوجى فى درجته البدائية فانحدر من الجبل وفك قيود اعتقاله باختياره ، واهماً أنه وصل ، فأدخله أبوه فى مدرسة القرية فتفوق فى الرياضيات ، وعلا نجمه بين أقرانه وبهر أساتذته فى حل أعوص مسائل الجبر والحساب والهندسة ، وكاد يعرف بعض تلك العلوم بالغيب المطلق ، فلما ورد المدرسة مفتش المعارف الانجليزي ، أفحمه الهندى الصغير بعلمه السابق فى حساب المثلثات واللوغارتمات العليا ، والهندسة الفراغية ، فأوصى به ليوفد فوراً إلى كنجز كولدج بلندن لتفيد الحضارة من مواهبه النادرة . فتكفلت الحكومة بنفقاته ، وتجلت عبقريته الهندسية فى سماء الكلية ، وصار فى مدى عام أعجوبة « كريستال پالاس » وهو الحى الذى فيه بناية المدرسة . إلى أن كان يومٌ ضاح من أيام الصيف ، فالتقى الفتى النابغ بامرأة إنجليزية

فتحدثت إليه ودعته إلى منزلها وسقته الخمر وأطعمته لحم الخنزير، وعلمته أول درس من مبادئ الغرام، وكانت امرأة ضابط اسمه ربب وينكل برتبة كولونيل، وقد ذاعت أنه قضى نحبه فى « ثورة لكنو » وورثت عنه مالاً ونشباً وبعض الجواهر والتحف المجلوبة من ضفاف نهر براهما پوترا . لقد استدرجته الخبيثة ، حتى فرط فى عرضه ، وأضاع بكارته . وكانت تقول له : « لا يطفئ ظمأ الغرام فى قلب فتى فى ربيعه إلا امرأة فى خريفها » فوقع فى الحفرة التى أحكمت مسز وينكل حفرها ، وسلم نفسه إليها وأخذ يتردد عليها ويغشى مضجعها ، طوال مدة العطلة المدرسية . وكانت المرأة تملك « عوامة » في نهر تيمس يسمونها « بيتاً نهرياً » جُهزت بوسائل الخلوة الصحيحة ومطالب الغرام ، فمن حانة صغيرة لا تصلح إلا لاثنين ، إلى فراش مكنون ، وحمام جميل مزين بالقيشانى والمعدن الأبيض اللامع ، وهنا استولت المرأة على الشاب الهندي ، أمل قريته ومقاطعته ورجاء الحضارة فى العلوم الرياضية ، حتى امتصت ماء الحياة من عوده ، فقال لها يوماً ، ولعلها النكتة الوحيدة التى نطق بها لسانه قبل مرضه: «لا يطفئ نار الغرام فى قلب امرأة فى خريفها ، إلا فتى فى ربيع حياته» فوضعت يدها على فمه واحتضنته وأخفت وجهه الأصفر الناحل فى حجرها وقالت وهى تعبث بشعره الأسود المجعد : « أوه دارلنج »[1] وقضى إجازة صيفية ، ما كان أحلاها فى نظره ، وأجداها على المرأة الهرمة ، فقد سمنت ، واستدارت أعطافها واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها وكانت من قبل كالشجرة الجرداء فى الأرض المقحلة ، إلى أن أتاها الغيث من أعلاها والرى من تحتها فأينعت وازدهرت ، ولكن على حساب ذلك البستانى المسكين وهو لا يدرى أية جريمة وقعت عليه وأى ذنب جسيم سقط على رأسه . وكانت كلما تعاقبت الأيام ازدادت المرأة شبقاً ، وتفننت في « دروسها » المشبعة لرغبتها . وكلما بدا الهزال على صاحبها ، « علفته » بالنقانق الدسمة وأفخاذ الخنانيص المدهنة ، وسقته الخمور الملهبة ، ليسترد عافيته ونضارة وجهه ويقوى على جهوده ، ولكن ما كانت تكيله له على مائدة العشاء ، تستردە بأرباح باهظة فى خلوة الغرام ، الهادمة للقوى

وعند ما فتحت الكلية أبوابها فى بداية العام الدراسى ، وعاد سادومال إلى صفوف الطلاب هنأه أساتذته وبشروه بانتصار جديد في عالم الرياضيات البحت ، ولكن المسكين كان قد جهل كل شئ وعاد لا يعلم من بعد علم شيئا ، فقد جف عوده ، وطمست معالم النبوغ من عقله ، وأمسى كالطفل لا يدري مما وعيه قتيلا . وانطفأ سراج المعرفة من صدره . وصار يجهل الجمع والطرح ، حتى جدول الضرب راحت من ذاكرته قواعده الأولية . فكانت جهالته أعجب من نبوغه . وأحسن أساتذته الظن به وعزوا ما جرى له إلى الافراط فى الاستذكار وحل المعضلات ، ولم يخطر ببال أحدهم أنه نتيجة تفريطه فى عفته وصومه وصيانته وطهره . فنصحوا له بالراحة المطلقة حتى يستعيد صحة بدنه وسلامة عقله

وأمر الأطباء بتسفيره إلى ضواحى انفرنس ، فى شمال سكوتلاندا ، يستجم فى إحدى مصحاتها .

(١) أيها العزيز

ولم تلحق به «الطلمبة» ، لا رحمة به ، ولكن خوفاً من بعد الشقة واتقاء للفضيحة . وعاد سادومال بعد ستة أشهر صحيحاً معافى ، ظاهر النضارة بادى القوة كأنه وعل خارج من غابة لفّاء . فلما فحصه الأطباء والأساتذة قالوا : لقد نجا بدنه ومات عقله ، ولم يعد يصلح للعلم . فقد محيت موهبة الرياضة من صفحات ذهنه . وخير له أن يعود إلى بلاده ليزاول مهنة آبائه وأجداده وهى «بيع العطارة» .. ولكن سادومان كان قد استطاب الحياة فى لندن ، ودرج على أكل اللحوم وشرب الخمر ، فعاد إلى «طلمبته» وراعى الاعتدال فى إطفاء نيرانها المشتعلة ، وهو الآن يعيش عالة عليها ، بعد أن قطعت حكومة الهند معونته ، فهو طالب فى الاستيداع ، يتنقل بين العوامة والقيلا ، ويقضي شبابه فى قراءة وصف الجرائم ويتقلب بين أحضان تلك الأخطبوطة النهمة التى لفت خراطيمها حول عنقه وصدره وبطنه فلا يستطيع فكاكا

هؤلاء كانوا أصحابى الذين وقعت عليهم فى لندن وقد اتخذت لى مسكناً فى دار مسز راوتش فى شارع شبردذبوش ، وكانت امرأة صالحة وجدت فى بيتها دعة وراحة ، ووجدت منها ظئراً رؤوماً وعصمة وموئلاً من آفات لندن وشرورها . والبيت إذا أضاف حاجيات العيش ، والسانج الرخيص من كمالياته كحسن الغناء وشجى الموسيقى والطيب الحلال من آلات اللهو واللعب والممتع اللذيذ من الكتب والأسفار — إلى سكينة الجو وكرم الجوار ورقة آداب أصحابه وحسن مواساتهم وبشاشة قناعتهم وضحكة النزاهة ودمعة الرحمة والعطف والحنان كان جمعة المسرات وحقيبة اللذات . وهذا ما وجدته فى الدار التى كانت تسهر عليها مسز راوتش الفاضلة ولم تكن الدار مخنوقة بين المساكن كتلك التى لا تكاد تبصر السماء فى قلب لندن ، ولما علمت مسز راوتش أنى ابن تلك البلاد ذات الشمس المشرقة والطبيعة الضاحكة والأنهار الجارية والأطيار المغردة أحب بفطرتى رطوبة الثرى وطراوة الروض — اختارت لى غرفة مطلة على بستان الدار وإن كانت قليلة الزينة ، وحسبى بالطبيعة مزخرفاً ومنمقاً ، فأجمل الغرف فى نظرى ما فرشها الزهر وعرشها الكرم وأضاءها القمر ليلا وشعاع من الشمس نهاراً (عند ما تجود بالاشراق فى تلك البلاد المظلمة !) وعطرها النسيم الساحب على الروض مطارفه ، الغامس فى كؤوس الطل وأكواب الندى معاطفه ، ولولا اختيارى الثوى فى تلك الضاحية الضاحكة النائية عن جلبة لندن وضجتها ولجب مصانعها وصخب طرقها ما توافرت لدىّ تلك النعم

ودأبت على الدرس فى ظلال تلك الحياة الهادئة وقد اخترت الطب وجعلت هدفى أن أتخرج فى الجراحة الحديثة فهى مجهولة فى بلادنا

وكانت لربة الدار بنت وحيدة اسمها جريس ومعناها فى لغة القوم النعمة والفضل والمِنّة والحسن والرشاقة ، وكانت صبية كاسمها رشيقة القد ، لطيفة الشمائل مهفهفة ممشوقة القوام ، غراء بلجاء مشرقة الطلعة وضاحة الجبين عندمية الوجنتين فى الثامنة عشرة من عمرها ، وكانت هي الأخرى تدرس الطب فى « جاز هوسبيتال » على مسيرة ألف خطوة من وستمنستر ، تغدو إلى الدرس مبكرة ، وتعود قبيل الغروب لتدرك مائدة الشاى الأنيقة التى تحسن أمها إعدادها ، وكانت تخدمنا فتاة بلهاء ورجل ألمانى

اسمه فرتيز . وكنت ألحظ الانجليز يفرحون باستخدام الألمان ، لما فى ذلك من الشهامة فى أبناء الأجناس الأخرى ، ورخص أجورهم ، وقناعتهم فى الطعام ، وشدة طاعتهم ، كأنهم آلات صماء ، تلبى النداء ، وتدرك مطالب السادة بالاشارة والهمس دون الصياح والثرثرة. فكانت إدارة الدار فى نظرى كحركة الساعات الدقيقة التى تصنع فى جرنيويتش فلا تقدم ثانية ولا تؤخر ... فما أعظم الفرق بين الحياة هنا والحياة فى أوطاننا التى تشبه آلة بخارية فقدت عقلها !

أما جريس أو نعمة التى كانت تؤاكلنى وتجالسنى وتسامرنى ولا تفارقنى إلا عند ما يأوى كل منا إلى مضجعه فما رأيت إنساناً أخف منها إلى المزاح المباح والدعابة البريئة ، ولا أروح إلى المفاكهة والمعابثة التى تنم عن طهر الشباب وطموحه دون التعدى إلى الاستهتار والمغازلة ، وما أظنها استباحت ملاطفتى إلا رحمة بى وعطفاً علىّ ، فقد قالت لى يوماً : لماذا أرى بك سيما الحزن والاطراق والكآبة ، فقلت لها : إنك يا نعمة لتقولين هذياناً وسخفاً ، فأطرقت ثم قالت :

لعلك عاشق مشغول بمن تهوى فى الهند عن الناس كافة ! أهى جميلة تلك التى خلفتها فى وطنك عاكفة على عبادة أوثانها ، وعلى انتظار أوبتك ؟

فقلت لها : إنك والله لترجمين بالغيب يا آنسة . فرنت إلى طويلاً وأدامت نحوى كرة الطرف مبدئة ومعيدة ، ثم قالت :

— أرى غيرك من أبناء وطنك مفتونين بالغانيات شديدى الطلاب لهن والهيام فى أثرهن

قلت : أيروق لديك أن يفتن الطالب الغريب بالغانيات وأن يهيم فى أثرهن ؟

فقالت : لا نرى نحن الانجليزيات فى هذا كبير عيب ؛ ونعلم أن السن ستكسب الشاب رزانة ووقاراً فلا ضير عليهم إذا استمتعوا فى نضارة شبابهم باللهو المباح

فقلت لها : إننى أخشى عاقبة الحب لما رأيت من أثره فى صحبى وبنى وطنى ممن طوحت بهم الأقدار إلى شواطئكم ، فقد ودعوا الثبات والحكمة والخير ، عند ما ودعوا ظهر الباخرة فى تيلبرى [1] وخلعوا عن أكتافهم ثياب الطهر والعفة

فقالت : أهذا كل ما يخيفك يا لال العزيز ؟ ألا ترى أن ما يصحب جماحاتنا الشبابية ونزواتنا الصبيانية من الخوف والروع هو أمتع ما فيها بل هو لذتها وفتنتها

فقلت لها : لقد أوصانى أبى أن أكون خيّراً حازماً فإن لم أستطع فلأكن حذراً

فضحكت وقالت : إذن كن خيّراً وحذراً ما شئت . ثم ما لبثت أن سكنت ثائرة سرورها ، وفترت حميا فرحها ومرحها ، ونهضت إلى البيانو فأطلقت ألسنة العاج بضغط بنانها ، أنغاماً حلوة هادئة ، ثم استدارت على مقعدها اللولبى وسألتنى رأيى فى موسيقاها فأطريتها لأننى طربت حقاً من توقيعها ، فقالت لى وقد تظاهرت بشىء من الخوف يخالجه شىء من الحياء والخفر : ألا تصحبنى مرة يا مستر لال إلى ملعب التمثيل ؟ فإنهم يمثلون على مسرح جاريك [2] رواية « تمسكنت فتمكنت [3] » من وضع جولد سميث

---

(١) اسم ميناء لندن

(٢) مسرح شهير باسم دافيد جاريك من أشهر الممثلين

(٣) She stoops to conquer

فقلت لها : لا بأس ، فإنى أدعوك إليها غداً إن شئت

وكان فى هذا الوعد البرئ ما أفاض السرور بين جوانح الفتاة وأشاع الطرب فى فؤادها

وأقبلت على أمها تستأذنها فأذنت لها ، وفى عشية اليوم الموعود أخذت تعد ثوبها الجديد الزاهى وتجربه فألفته محكماً ، واستعرضت خيالها فى المرآة فأعجبها وراقها ، وأقرت أمها وخادمتها البلهاء أنها لم تك قط فى أنخر حللها أحلى وأحسن منها فى ثوب السهرة . ولما حانت الساعة السابعة تأهبنا للخروج ووضعت حول عنقى وصدرى ذلك الشال العزيز الذى أهدتنيه أمى ليقينى شر البرد فى تلك البلاد الفارسة ؛ ولا أدرى لماذا قلت لها ونحن نخطو عتبة الملهى : « إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق فتكرمى على بأن لا تذهلى عن فروض الآداب بينى وبينك » فصمتت ولم تنظر إلى ؛ ولما جلسنا فى القاعة المضاءة الهادئة لصقت بى وأشعرتنى حرارة بدنها الغض الدافئ ، وأخذت تشرح لى مناظر المهزلة موقفاً إثر موقف ، فأطربنى صوتها فى همسها ورخامة نغمته ولذته فوق ما أطربتنى حلاوة شمائلها وخفة روحها وذكاؤها الممزوج بالسذاجة والبساطة ، فازددت إليها ميلاً وبها سروراً ، وراحت نفسى لسماع كلامها العذب ، وهفت جوانحى ؛ ورأيت فى ظلام الملهى عند ما أطفئت الأنوار كهلاً يقبل فتاة بجواره فأردت تقليده ... أنا الذى ألزمت « نعمة » فروض الأدب ، قد حاولت إسقاط الكلفة ورفع الحجاب بينى وبينها فى خلسة من جماعة النظارة ، ولكن « نعمة » نفرت وتراجعت ثم استشعرت من سيماء الوقار والجد والرزانة ما أشعرنى نوعاً من المهابة لم يخل من الطرب واللذة وقالت :

« ألست أنت يا مستر لال القائل لى على عتبة الملعب : إذا أحببت أن نبقى على تمام وئام ووفاق ، فتكرمى علىّ بأن لا تذهلى عن فروض الآداب بينى وبينك ؟ فما لى أراك أول من ذهل عن شرطه » فسكت ولم أحاول بعد ذلك إعادة الكرة ، وقد أحسست أننى تعديت حد منطق ومنطقتى وبرزت من ثوب الخير والحذر الذى أسبغته علىّ وصية أبي فتواريت فوراً فى حجابى وتداركت أمرى . ولما أسدلت الستار على آخر المناظر نهضنا وكان ذلك قبل نصف الليل بساعة . فدعوتها إلى « وجبة العتمة [1] » كما هى العادة بعد الخروج من الملاهي فى تلك الديار التى لا يقنع بنوها بأقل من خمس أكلات بين شروق الشمس ونصف الليل ، بعضها غزير دسم وبعضها لا يصلح إلا للزهاد فاعتذرت وقالت : إن أمى أعدت لنا كل شيء . فلما بلغنا الدار عاودها سرورها وبشاشتها وثرثرتها وأمسكت بأطراف أناملى على طريقة الأطفال المرحين . فلما أُبنا إلى غرفة الخوان ونحن لا نزال فى ثياب السهرة استقبلتنا الوالدة باسمة هاشة ، وكانت المائدة منصوبة والألوان مصفوفة ومستر راوتش جالسة ، وقد تعطرت وتدهنت وتجملت وتزينت فكأنها إبريق الرحيق ، وقد شغلت نفسها بتقطيع رغفان الخبز قطعاً رقاقاً وتجزئة قطع اللحم من كتف العجل الحنيذ أجزاء دقاقاً ، وأقبلت على فتاتها وعلىّ تحيذ

(١) يأكل الانجليز خمس مرات فى اليوم الافطار والغداء والشاى والعشاء ووجبة العتمة واسمها Suhher وهي أشبه بالسحور عندنا

بما تبكيرنا إلى المثوى وجمال ثيابنا ولا سيما « سترة سوكنج » التي كنت أختال فيها اختيال أمير ساحر خارج من صفحات ألف ليلة وليلة . وفي تلك اللحظة الباهرة تذكرت شال كشمير ، فقد نسيته وأيقنت أنه ضاع إلى الأبد ، ولكنني لم أنطق بكلمة ولم أنصت إلى أدنى كلمات الوالدة وابنتها ولم أع مما قالت كثيراً ولا قليلاً . فقد كان ذهني مشغولاً بذكرى المساء وما كان من حوادثه ، وكان فقد الشال في المكان الأول . فأنحيت على نفسي باللوم والتنكير ووخزات الضمير . ثم انتقل ذهني إلى حادث القبلة التي لم أظفر بها ، وعبثاً حاولت إقناع نفسي بأن مسلكي مع الفتاة نعمة لم يتجاوز حد اللياقة ، وأن هذه الرغبة التي أعقبها الرفض والجفوة لن تكون لها نتائج خطيرة . لقد كان ضميري في هذه المجادلة السرية أعلى صوتاً وأقوى برهاناً من عقلي ، وجعلت كلما تذكرت نصيحة والدي وهدية أمي تالني كرب وضيق . أما نعمة أو منيّة فكانت في أشد حالات السرور والجذل تلتهم اللحم والزبدة والفطائر ، وتكوم أضعافها في صحني ملحة عليّ أن أطعمها لأسترد ما فقدته من قوة بالسهر والتعب خارج الدار . وأخذت الأم تسرد أسماء من عمروا في الحياة الدنيا حتى تجاوزوا المائة ، وأن العلة في طول أعمارهم لم تكن إلا كثرة القضم والقطم ، وحشو بطونهم بالشحم واللحم ، وخصوصاً « وجبة العتمة » التي تكون أسهل الوجبات هضما إذا تلاها النوم مباشرة . وانتهت المأدبة على خير وصعدت إلى غرفتي . ومن فرط انشغالي بنعمة تراءت لي في أحلام الكرى تسبيني بسحر ألحاظها ، وتصبيني بحلاوة ألفاظها كما رأيت أبي وأمي : أحدهما يذكرني بالوصية ، والأخرى تسألني عن شال كشمير ، والتميمة التي وعيتها . وأعادت تلقيني إياها في المنام « يا راما كريشنا وكالي وفشنو أيتها الآلهة المحجبة ، بحق أسرار أسمائك ، وأنغام ألحان ترتيل الكهنة في أفنية هيا كلك ، رُدّي عليّ ما فقدت ، بالو ! بالو ! هالو ! هالو ! هالو ! مستي ! مستي ! مستي ! »

وما كاد الصباح يحدر لثامه حتى كنت قد هببت من نومي ولبست ثيابي وأسرعت إلى كلية الطب التي أتلقن علومي بين جدرانها ، وأثناء ركوبي في الحافلة [1] ، وهي من طبقتين لمحت عيني طرف رداء نعمة الأزرق فأهويت سريعاً إلى لقائها فابتسمت وقالت إنها سبقتني في البكور فأقبلت أثني على جمالها وحسن هنداميها . وسرها ذلك الثناء فضحكت ولكنها ما لبست أن أبصرت على وجهي شيئاً من دلائل الهم والقلق ، فسألتني ، فاعترفت لها أن حادثتي معها بالأمس كانت زلة وخطيئة ونزوة من نزوات الطيش والنزق وأنني على ما فرط مني نادم ولما يدر من غيّي واجم ، وأنني قد عوقبت على ذلك بضياع شال كشمير وفقده

فقالت إنه لا يروح أبداً عليك فإن أهل بلادنا ذوو أمانة ، وسأتولى البحث عنه بنفسي في الملعب وأغدو إلى مستودع الأمانات المفقودة حيث يعرض كل ما نسيه ذووه وذهل عنه أصحابه سواء أكان إبرة خياط أم فيلا أبيض ! فودعتها وانصرف كل منا إلى معهده . وما كدت أطوي بضع خطوات حتى تذكرت التميمة فصرت أتلوها لعل آلهة الهند تجود عليّ برد أمانتي ، ولما آن وقت عودتي من

(١) سيارة عامة

الكلية أخذت أتلو « عزيمتى » ولم أكد أفرغ منها حتى لمحت شالى على ظهر امرأة تسير مرتكئة إلى ذراع رجل طويل، يلبس قبعة اسطوانية الشكل سوداء فاحمة ، فجثثت الخطى حتى كدت أدركهما . وصرت منها قيد أقدام معدودة وإذا بهما يستوقفان سيارة ، ثم أخذا ينهبان الأرض بها فرجعت أدراجى كاسف البال آسفاً ، ولكننى شديد الفرح بنفوذ السحر الهندي فى قلب لندرة .

ولما عدت إلى الدار لقيت نعمة فأخبرتنى أنها أوعزت إلى بعض الصحف بنشر إعلان صغير فى عمود الأشياء المفقودة نصه هكذا « طالب طب هندي يرجو من عثر بشال كشمير صغير فى ملهى جاريك أو فى سيارة حافلة أن يرده إليه بدار مسز رواتش نمرة ١٧ شارع شبردزبوس هم سميث وله الأجر والشكر » وكانت الصحيفة قد نشرت الإعلان فى مطبوعة المصر بعد أن تقاضت أجره نقداً قيمته شلنان واسمه هاف كراون ، فضحكت كثيراً من سرعة خاطرها ولباقتها وصحبتها إلى حديقة الدار وجرت بيننا جداول الحديث سحراً ، ورضابا سلسالا ، نأخذ فى شتى فنون من الهزل والفكاهة وضروب من المطايبة والمداعبة ، وما إلى ذلك مما يكون بين صديقين مؤتلفين على عفة إزار ونقاوة جيب وطهارة نطاق ونحن فيما دون ذلك على تمام حرية وطلاقة ، مباح لنا كل ما يطيب ويصفو ويعذب ويحلو تمتع الجليس بالجليس ، وتلذذ الأنيس بالأنيس ، وأخذنا نرقب عودة شال كشمير ونتفكه بالتكهن بحال حامله إلينا . أيكون تلك السيدة وبعلها ، أم صانع متواضع ، أم لص فضل الجزاء الموعود على خيانة الأمانة ، ولكن انتظارنا ذهب أدراج الرياح

وفى يوم الأحد التالى وكان صباح يوم قار قارس صافى الأديم ، لا يكون إلا فى بلاد الإنجليز فى فصل الخريف خرجت للتنزه مع صديقتى فى هايدبارك ، ولما دنونا من مسارح الخيالة ، وهى طرق أعدت للفرسان دون الراجلين بصرنا بفارس ممتط صهوة جواده قد شمخ بأنفه صلفا وصعر خده كبرياء عليه قباء مسدل الهداب ، بفاقم وسنجاب ، وقد لف حول عنقه شال كشمير الضائع ، وكانت نعمة هى التى رأته وعرفته . فقالت لى هيا نستوقفه ونطلب إليه شالك فقلت لها : ولو قال لنا إنه حفيد لورد عتيق حكم إحدى مدن الهند وساسها ، فورث عنه ذلك الشال ، أو أنه شراه من سوق المزاد فى معرض كرايستى فماذا يكون الجواب ؟ فقالت نعلم على الأقل أن لشالك مثيلاً فى بلادنا . وإذا كنا نتناصح ونتشاور ونتقاول ونتداول ونحن نرقبه عن كثب كان فارسنا الملفع بشالنا أو بشال يشبهه ، قد اختفى عن نظرنا فى حجب العروق والأغصان وسجوف الورق والقضبان . فقالت لى نعمة ها قد أضعت الفرصة السانحة ومكنت ذلك الراكب على سرجه من الفرار . فضحكت وقلت لها :

— حقاً يا نعمة أننا لا نستطيع حل هذا اللغز وتفسير هذه الأحجية

وفى اليوم الرابع فرأت التميمة فرأيت الشال حول عنق كهل سمج كان يخطو باتزان فى شارع أكسفورد ويتنقل بين معارض المخازن والمتاجر يقلب أجفانه الثقيلة فى صنوف البضائع فقلت هذه المرة لن يفلت منى ولو لقيت فى سبيل استرداده وبالاً

فدنوت منه إلى أن أدركته فرفعت قبعتي أمامه وانحنيت مفرطاً في الأدب فبدرني بقوله : لست في حاجة إلى ترجمان فهذا وطني ومسقط رأسي وكفاني ما عانيته في بلادكم أثناء الخدمة المدنية والحربية .

فقلت سيدي لست ترجمانا ، ولكن ...

قال: إذا أردت الاستعلام عن شيء فهاك رجل الشرطة يجيبك عن كل سؤال

قلت : ولست غريباً عن لندن ومسالكها فأنا طا ...

قال : إليك عني واقصد دار سير كيرزون فهو رئيس بعثات الهنود التعليمية ويعطف على ذوى الألوان السوداء والسمراء والصفراء

فقلت : ولست تابعاً لاحدى البعثات ، ولكن اعتماداً على مكارم أخلاقك وسعة صدرك وارتكانا على ما لبني جنسك في قلبي من لطف المكانة وثقتي بجميل صفحك ومغفرتك أريد هذا الشال

قال : الشال ؟ أتطمع في أن تنزع ملكيتي نهاراً جهاراً في أكسفورد ستريت ، إنك لشيوعي جرئ وبلشفي موسكوفي خطر

قلت : لا يا سيدى إنه شالي الذى فقدته من بضعة أيام ، وأعلنت عنه في الصحف

فقال الرجل : وقد بدا بهيئة الدب المسلسل الذى يهدر في ساحة النظارة في حديقة الحيوان « هل غاب عنك رشدك وغرب عقلك ؟ متى كان دأبنا وشيمتنا ونحن مهذبو العالم ومؤدبو الأمم أن نختلس ثياب رعايانا ؟ »

وكان جمع صغير من المارة قد تكأكأ علينا ، فبادر رجل الشرطة إلينا ليفرق التجمهر على عادته ؛ فلما سمع روايتي قال لمواطنه المتغطرس : عليك أن لا تبدى أدنى تسخط أو غضب أو تظهر أقل تعجب أو اندهاش أو تبرم من مسلك هذا الشاب ...

فقال الإنجليزى : أظنها ألعوبة جديدة من ألاعيب الهنود الجمة ، وقد رأيت في الهند مئات من أمثالها

فقال الشرطي : دعه يتأمل الشال عن كثب ، فلن يخطفه حتى ولو كان ملك يمينه إلا إذا أقر واعترف ، وإلا فهو يرده إليك بمسمع منا ومرأى

فحنق الكهل الكريه وقال : هذا كذب وبهتان . فض الله أفواهكم إن كان هذا ماتزعمون ؛ أما والله إنهم لفي غاية من القبح والسماجة . إنني لا أفرط في شالي ولا أسمح له البتة بلمسه ، ولاوجه للمقارنة بين شالي الثمين وشاله المدّعى ، كما أنه لاوجه للمقارنة بيننا ، فلسنا من جوهر واحد أو طينة واحدة ! لقد كنت في الهند من كبار الدولة وذوى النفوذ والسلطة والمكانة واسمي كولونيل ريب وينكل ، حائز لنيشان شمس الهند ووسام كعب الغزال وربطة العنق من طبقة جَوَّال ... فتأخر الشرطي خطوات وضم ساقيه وقدميه ورفع يديه بالتحية العسكرية ، ونظر إليّ برزانة وكبرياء وقلة احتفاء جديرة أن تصدع قلب أشجع الرجال وأشدهم بطشاً ...

فقلت للهكل : عفواً يا سيدى ! هبني من السماجة والغرور والغلواء كما وصفت ، فأين من علمك جهلي ، وأين من أدبك سذاجتي ، وأين من رقتك وظرفك جفائي وغلظتي ، وأين من ذكائك وفطنتك غبائي وغفلتي

فأثنى الشرطي على أدبي ورمقني الجمهور بنظرات عطف مصطنع وأخذ كل ينصرف إلى شأنه

وفى أقل من لمح البرق تذكرت اسم ريب وينكل . أليس هو نفس الاسم الذى تحمله تلك المرأة عشيقة سادومال طالب الرياضة الذى أفلس عقله وتدهورت مواهبه . ولم أشأ أن أفر من الميدان مهزوماً قبل أن أرمى بآخر سهم فى كنانتى فقلت للكهل :

— إن كنت حقاً كولونيل ريب وينكل ، فقد نلت منك شالى بغير تعب ولا نصب ، وما علىّ إلا أن أوسط لديك زوجتك مسز وينكل التى تزعم أنك قضيت نحبك فى ثورة لكنو عم مساء ياسيدى

ولم أكد أنطق بهذه الكلمات القليلة ، حتى رأيت شهامة الحاكم القديم تنهار وتتهدم فدلف إلى مادّاً يده للمصافحة ونحى الناس جانباً وسايرنى وقال : هل لك أن تشرب معى قدحاً من الشاى فى هذا المقهى وأشار إلى أحد مغانى الشراب على مقربة من موقفنا . فاعتذرت إليه محتجاً بأن الرعية لا تجالس الملوك والعبيد لا تشارب السادة على سماط واحد ، وأن طينته الناصعة تأبى أن تخالط طينتى القاتمة السوداء .

فقال : أستغفر الله يا ولدى ، وأخذ يعطرنى بسيل من المعاذير بالهندوستانى وهو لغة بلادي ، وكان العفريت الأشيب يتكلمها كأفصح علمائها الذين ملكوا ناحيتها فنال إعجابى بقدر ما حاز من عطفى . أيكون هذا الرجل المتعجرف المتكبر الملىء بالعنجهية من رأسه إلى قدمه ، السباق فى حمل السيف والرمح والواقف على أسرار اللغات ، زوجاً لتلك المستهترة الخليعة التى تصيدت أحد الهنود النجباء وأطفأت سراج عقله الوهاج ؟ وأخيراً قبلت دعوته ودخلنا إلى أحد مشارب الشاى . وكان الرجل يسألنى عن زوجته ومقرها وملجأها وهو تارة يتصنع الوقار والرزانة ويتكلف التؤدة والرصانة شأن من لا اكتراث عنده للمرأة ، ولا اهتمام ولا مبالاة ، وطوراً ينظر فى الفضاء نظرات الحنق تتطاير من عينيه الغضبى تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أقواسه وأوتاره . وأنا ألعب دورى من التشاغل وقلة الاكتراث وعزوب الذهن وأتمادى فى أساليب التصنع والتكلف أتكلم من خلال أسنانى بالانجليزية فقط ، والرجل يرسل زفرات الغيظ ولا ينبس

وأخيراً قال لى : كيف عرفت امرأتى الآبقة الناشز ؟ قلت : هات الشال أولاً وقل لى كيف وصل إليك فخلعه عن طوقه وقال : وجدته على أحد مقاعد ملعب جاريك . وكان الشال مبخراً معطراً ، ولم يمس شيئاً من بدنه سوى غلالته الناصعة اللامعة فأخذته وقلبته بين يدى وتعرفت فيه كل خيط وفتلة وغرزة وزهرة منمقة

وقلت له : أتريد أن ترى امرأتك ؟

قال : نعم واهبك تعويذة هندية شريتها من فقير يوجى من قرأها على امرأة خائنة فإنها تفقد كل من يرضى بعشرتها عقله ولبه ، فإذا تلاها الرجل المسحور عادت إليه قوة تفكيره شريطة أن يهجرها فى المضاجع

فقلت : هات تعويذتك

فأخرج من جيبه حجاباً مثلث الشكل وفض غلافه ، وأبرز وريقة مكتوبة بالسنسكريتى وهو لغتنا المقدسة

فقلت له : تعويذة بتعويذة ، وأخذت أتلو تعويذتى . ولم نكد نفرغ من شرب الشاى حتى

دخلت علينا مسز ريب وينكل مستندة إلى ذراع مواطنى المنكود سادومال الذى فقد ذاكرته وسمن حتى صار كالخنوص الخصى . وكانت المرأة مطلوة محلاة وقد أقبلت « أرملة الحى » الطروب تسبى مطرقة منكسة لاتبصر شيئاً . وكان رفيقها الهندي قد فقد ذاكرته أتم فقد وأكمله فرآني ولم يتعرف على ، والمرأة تقوده كما يقاد الدب الأعمى ، وقد أمسى أداة لهوها وماء نارها التى لا تخمد

أما هى فعند ما فتحت عينيها ورفعت رأسها لترى المكان فما لبثت أن عضت على شفتيها كمن بوغت بكارثة أو فاجعة ، لقد راعها وهالها أن تبصر بزوجها فى صحبة شاب هندى ، ولم تقدر أن تتغلب على ما اعتراها من الارتباك والحيرة ، وكانت قد أكمت على بشرة وجهها وجلدة بدنها طبقات متراكمة بعضها فوق بعض من الدهان الأبيض والأحمر وحملت نفسها من الزخارف والحلى ما يزرح تحته البازل فنهض الكهل الحربى إليها وقال لها والهندى المجذوب يسمع ولا يعى لفرط ما عراه من الخيال :

« لقد كان من المستحيل على غيرى أن يعرف شخصك فى هيأة تلك السيدة المتنكرة فى أكتف طلاء من الأصباغ والأدهان ، وقد ازدحمت عليك الحلى والزخارف ازدحام النجوم الشوابك فى أديم السماء ؛ والحبب المتكاثر على بساط الماء . وانحنى على يدها ليقبلها غير أنه عند ما لمس أناملها خيل إليه أنها كانت ترتجف . ثم دعانى إلى مجلسهم ودعا بفطائر وقطائف ونواعم وأقداح وأكواب ليوهم الخادم وهى فتاة رانقة الحسن مرهفة الحس إنه ظفر بصديقة قديمة فرق الدهر بينهما ولكنا كنا فى شغل عن لذة الطعام والشراب إلا المسكين الداهل سادومال فانه أكب على ألوان الحلوى والكعك واليودينة والشطائر اقتحاماً واقتفافاً وعلى أقداح الشاي ارتشافاً واشتنافاً . وجعل يمزح ويضحك من أمازيحه ويزداد هذراً وهراء من آن إلى آخر فلم يبق له من الكلام غير هذا وكان الكولونيل ريب وينكل يتحرق على محادثتى فسألنى بالهندوستانى أن ألقنه التعويذة فقلت : مالك بها وقد تسلمت أمانتك وردت إليك بضاعتك ، ولم تقل لى كيف كان شالى على أقفية غير قفاك الناعم المهذب

فقال : أقرضته شقيقتى ذات صباح وخرجت به إلى حديقة هايد بارك فقلت : هل كانت على رأسك قبعة عالية فى الأولى ؛ وكنت ممتطياً صهوة جوادك فى الثانية !

فقال : نعم ثم امتقع لونه وقال : لم أكن أعهد سحركم نافذاً بهذه السطوة . قلت : تراه أشد نفوذاً فى صاحبي الذى يليك ولا يعي ما تقول بعد أن أفقدته تعويذتك صوابه ، وكانت المرأة تحرق الأرم ولا تدرى من أين سقطت عليها هذه الكارثة وكان غيظها على أشده ، عند ما نهضت وصاحت زوجها الذى أمسغمت رأسه بما كان ينقص ضحيتها عند ماعاد من سكوتلاندا كالوغل الغير متبوج ... وسحبت الشاب الداهل من كتفه وخرجت به وتركت الزوجين ينضجان فى صلصتهما !

وكان أول ما فعلته أن تلوت عليه التعويذة السنسكريتية التى تشفى من جنون الشهوة وما كان أعظم دهشتى عند ما رأيت سادومال يرتجف ويقطر جبينه عرقاً ثم يفتح عينيه على النور وقد وعى .

فنطق بالهندوستانى الذى كان نسيه ، وأخذ يذكر أرقاماً ولوغارثمات عالية . فقد عاودته مواهبه وعادت إليه علومه كاملة ، وعند ما رجع إلى حظيرة الكلية بعد أيام ، أقبل عليه الأساتذة يفحصونه فاذا به كما كان فى بداية شأنه عقل فياض ، وفكر نافذ وإدراك لمعميات المعادلات الجبرية وحل لأعوص المسائل الغامضة فقال له بروفسور كنجزلى : الآن تستطيع الحضارة أن تستفيد بعلمك وكتبوا إلى حكومة الهند يستردون نفقاته ومخصصاته . أما أنا فقد عدت فى تلك الليلة إلى بيتى فى شبردزبوش فأثرأ بشال كشمير الذى ضاع وبمواطنى المسكين الذى رددت إليه عقله بالتعويذة التى اقتنصتها من زوج عشيقته وقد تعلمت أن كبرى النتائج قد تبنى على أهون الأسباب ، وبقى على أن أدخل البهجة على قلب نعمة بالعثور بالشال دون أن أطلعها على التفصيلات الأليمة التى صحبته فما لها ولفطرسة الضابط المنكوب والزوجة الخائنة والهندى المذهول وسحر هاروت وماروت ! فهداني تفكيرى إلى هذه الطريقة ، وهى أن أزعم أننى التقيت أمام البيت برجل يحمل الشال تلبية للنداء الذى أذاعته فى الصحيفة السيارة وإن أثنى على بديهتها وأمانة شعبها وأحمل إليها هدية صغيرة جزاء وفاقاً على ما قدمت يداها من خير فملت إلى دكان جوهرى ، واشتريت خاتماً ذهبياً بفص من الياقوت الأزرق ، ولما نهضنا عن المائدة مددت يدى بالهدية وقصصت على نعمة وأمها القصة الملفقة المنمقة التي نجوت بها من مأزق التفسير والشرح الطويل وذكر مساوئ الناس للناس فى وطنهم فما هكذا يكون عرفان الجميل . ففرحتا وزادنى التوفيق كرامة وعزة فى نفسيهما

وواصلت الدرس حتى جزت عقبة الامتحان الشديد فى جايزهوسبيتال ونلت أجازة الطب المحفوفة بالمصاعب والمكاره واعتزمت العودة إلى وطني ؛ فلما استشعرت الأم وفتاتها ، (وكانت هى الأخرى تخرجت وحازت لقب مولدة من الدرجة الأولى) اعتزامى على الرحيل ، أعدت مسز راوتش حفلة جميلة دعت إليها فضليات نساء الحى وبناتهن ولفيفاً من أجمل الشبان وأنضرهم فأقاموا مرقصاً ومقصفاً ، وبعد نصف الليل انتحت بى الأم ناحية وقالت لى : « خبرنى الآن يا دكتور لال ماذا ترى فى اتخاذ زوجة تحبك وتطيعك وتعنيك في عملك وتلد لك أولاداً لطفاء يجمعون بين جمال البيض وفطنة الهنود ويبنون دعائم الجيل الجديد فى وطنك الأول ، بعد أن صارت هذه الجزيرة وطنك الثانى . ولعلك تخطب فتاة لها قرابة ملاصقة ورحم ماسة برجل من كبار الدولة وذوى النفوذ والمكانة ، يدعى سير راوتش ، وأن الاتصال بهذا الكوكب اللامع فى سماء السياسة عن طريق المصاهرة قد يجر لك خيراً كثيراً وغنماً كبيرا » ، فقلت لها : « ومن تلك الفتاة ياسيدتى ؟ » قالت : « ابنتى جريس رواتش التى خالها ذلك الرجل العظيم . إنها نعم العروس يا بنى وإن لم تكن تعلقت بها فإن الحب نتيجة الزمن والمعاشرة . إننا فى بلادنا نخطب لبناتنا كما تخطبون أنتم لأولادكم

فقلت لها امهليني يوماً ، حتى تستدير الفكرة فى رأسى ، فإني لا أرغب أن أقطف زهرة الزواج على غرة ، ولا أريد أن أعكر صفاء الليلة ، ولا أعلم فى الحق بم تأتى بها مشورة الرقاد ، فالليل يحمل النصيحة الحسنة والرأى الصائب على أجنحة الأحلام الذهبية . فلا تأخذى قولى هذا على أنه قبول أو عدول

قالى الغد . وكان نظام الحفلة يقضى أن يختار كل فتى فتاة يخاصرها فى الرقصة الأخيرة ، فيفهم الحاضرون أنها « قلبه العذب »[1] وقسيمة حياته فى المستقبل القريب أو البعيد ، وسرعان ماتناول كل شاب يد واحدة من هؤلاء الشقراوات ذوات الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء و « الضب » البارز والأذقان المستطيلة ، وبقيت فى نهاية الأمر نعمة ولم يتقدم إليها أحد ، كأنها مؤامرة محكمة التدبير ، محبوكة الأطراف ... لله ما أقدر هؤلاء الانجليز على توريط الخلق وتسخيرهم لأغراضهم ! فتقدمت إليها على كره وفعلت ما فعل شباب الحى من عناق وتقبيل ، ثم دعوتها للرقص

وفى الصباح قلت للأم : « إن الزواج لم يخطر لى على بال الآن ، لا لعيب فى بنتك المحبوبة ولا لعجز فىّ من تأسيس بيت تكون زينته ، ولكن لأنى لا آنس فى نفسى القدرة على مسرتها وإسعادها »

فقالت : « عجباً لك يا لال ! أبمثل هذا الرفض تقابل رغبتنا . ما هكذا يكون البر والوفاء ولكننا لا نرغمك » ، وترقرقت فى عينيها دمعتان أبى كبرها أن تنحدرا إلى وجنتيها

وتسألنى عن هارديال وشاتو يادايا وما جرى لهما. أما الأول فقد سافر إلى أمريكا واشتغل بالشعوذة والدجل فجمع مالاً طائلاً بعد أن طلق الفلسفة التى لم تغنه فتيلا ، وذلك باستغلال غفلة خواجى الجمهورية النائية ، وعاد بالمال طليقاً حليقاً أنيقاً ، وأرغم جوخالى على الزواج منه ، ثم حملها إلى شيكاجو ليواصل عمله فى « كشف القناع عن علاقة الروح بعلم الغيب واكتشاف مناجم الذهب ورفع النقاب عن أسرار الكون وعلاقتها بالحب والغنى وكسب سباق الخيل قبل دخول المراهنة وعلاقة النجوم بحظوظ الأحياء وتحدث أشباح الموتى لذوى قرباهم عن حوادث المستقبل وفوز الحزب الديموقراطى وانتخاب بريان » ، واندمج شاتو يادايا فى المجتمع ، ورشحه حموه للانتخاب عن حى أبوستون باسم الاشتراكية الحمراء ومقاومة الاستعمار والحكم الذاتى لايرلاندا وسكوتلاندا وبلاد الغال ، وأعانته زوجته الشاعرة بقصائدها الرنانة ومدح مناقبه لدى نساء العمال ، ومن قولها : « إن الرجل الأسود يخدم الجنس الأبيض فى المستعمرات منذ مئتى سنة ، وقد آن الأوان ليخدمه فى برلمان الوطن فهل ترفضون؟ فأجابها الناخبون : أوه ! نفير ! نيفر ! ![1] وفاز شاتو يادايا بمقعد دافىء فى وستمنستر وقد صار حلية المجلس وزينته وتفسيرته ، كالخال فى خد الحسناء

أما أنا فعدت إلى وطنى حتى بلغت أهلى وبيتى بعد أن نفضت فى الباخرة الانجليزية التى حملتنى من لندن إلى بومباى غبار حذائى ، وخلعت ثياب اللؤم والخداع ولبست ثوباً من « صنع بلادى » وتلفعت بشال كشمير الغالى وسألتنى أمى وهى تضع فى فمى بيدها الكريمة اللينة طعام وطنى اللذيذ ، بماذا عدت إلينا يا لال ؟

قلت : بعلم الطب يا أماه ، على أحسن ما أتقنه أعداؤنا وراء البحار ، وبحاجة أخرى هى أعز من العلم وأغلى وأشرف ألف مرة

قالت : ما هى ؟

قلت : عفتى وبكارتى وعقيدتى ، فيمكننى أن أقول لك : إننى لم أعشق امرأة غير أمى ، ولم أعبد إلهاً غير ربى !

محمد لطفى جمعه

(١) القلب العذب : المعشوقة Sweet heri

(١) أى كلا وحاشا

يحكى أن ملكا

للشاعر الهندى الفيلسوف طاغور

بقلم السيد فخرى شهاب السعيدى

« يحكى أن ملكا كان فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ... »

... لم نكن فى حاجة إلى أن نعرف أى ملك هذا — ونحن صبية صغار ... ولم يكن يضيرنا أن يدعى : « شيلادتيا » أو أن يسمى « شاليبان » .. أن يعيش فى « كاستى » أو « كانوج » ؛ فإن ما يخفق له قلب ابن سبع سنين سروراً وابتهاجاً هو : هذه الحقيقة الرائعة الجليلة « يحكى أن ملكاً ... »

ولكن قراء هذا الجيل الجديد لا يرضون بهذا وإنما يمضون في التحقيق والتساؤل ؛ إذ ينبعث فضولهم ثائراً حين تطرق أسماعهم « فاتحة » كهذه ، ويسلطون « أشعة كشافة » من النقد على ذلك الضباب الحرافى القاتم ، فيسألون قائلين :

« أى ملك هذا ؟ ! »

والقصاصون — بدورهم — أضحوا من المغالين المتأنقين ، لا يستسيغون ذلك الابهام ؛ وإنما أخذوا أنفسهم بالتعمق فيما يقصون ، فابتدأوا يقولون :

« يحكى أن ملكا يدعى أجاتسترا ... »

على أن فضول القارىء العصرى لا يكاد يدركه إقناع ... إذ يحدج المؤلف بنظرة فاحصة مستريبة ويسأله تارة أخرى عن هذا الملك الجديد ، فيجيب المؤلف قائلاً :

« ... وأجاتسترا هذا هو أحد ثلاثة يشتركون في هذا الاسم فى التاريخ ، كما يعلم الطلاب ؛ فأما الاول فقد ولد فى القرن العشرين قبل الميلاد ، وتوفى وهو فى غضارة الطفولة حين كان يحطم الشهر الثامن من سنى عمره الثلاث ...

« ولشد ما يؤسفنى أن يستحيل العثور على بيانات ضافية مسهبة من مصدر وثيق عن مدى حكمه[1] ! وأما أجاتسترا الثانى فمعروف لدى أكثر المؤرخين ، وفى الموسوعات التاريخية عنه الشىء الكثير ! »

... وبهذا يتلاشى فضول القارىء من العصريين إذ يستشعر الاطمئنان إلى هذا النحو من أحاديث المؤلف القاص ... إنه ليحدث نفسه — حينئذاك — بقصة ممتعة طلية ليس إلى الشك فى صحتها من سبيل !

* * *

آه : كم نستحب خداع أنفسنا أجمعين ؟ !

فى حين أنا نخاف الجهل ونخشاه على أنفسنا ثم لا نزيد على أن نسلك إليه سبيلا ملتوية تطول !

هناك حكمة انكليزية تقول :

« لا تسلنى عن شىء ، وأنا زعيم بألا أكذب عليك ! »

(١) لعل الفيلسوف هنا يريد أن يلفت نظر القارىء ويسترعى انتباهه إلى هذا النوع من تلفيق المؤلفين ومحاولتهم جعل هذا التلفيق البين الصريح حقائق تاريخية ثابتة لتصادف أهواء القراء — على ما يظهر فى هذه السطور !

والصبي فى السابعة من عمره حين يستمع إلى قصة من قصص « الجن » يدرك تلك الحكمة أحسن الإدراك ؛ إذ تراه ممسكا عن كلّ سؤال ، مصيخاً بسمعه إلى من يقصُّ عليه ... لذاك فإن خيال القصة الخلاب ، وما فيها من رونق أو جمال يبقى سالماً من كل ما يشوب ، يُشبه فى سلامته الطفل البريءُ ، مجرداً عن كل ما يضير كالحقيقة فى التوهج والصفاء ، رائقاً سنياً كأنه الينبوع المتدفق العذب !

ولكن كذب المجددين الغثّ المصطنع سيلقى على كل ذلك غشاوة من التضليل ! وحين ينكشف للقارئ الفاضل هذا الزيف ، وتبين له هذه المخاتلات والأضاليل تشمئزّ نفسه ، وينقلب المؤلف بأسوأ ضروب الخزى والعار عند ذاك !

لقد كنا — ونحن صغار — نستجلى الجمال بما كان لنا من إحساس ساذج بسيط ؛ ولم يك من همنا أن نحيط علماً بغير تلك الحقائق الممتعة ، أو أن نعرف شيئاً عما يتحدث به القصاصون المحدثون من سفساف الأمور ...

كانت قلوبنا الصغيرة البريئة قد عرفت — جيداً ! — « قصرَ البلور الحقيقى » وكيف يكون الوصول إليه

ولكننا اليوم ... نُمرتجَوْن فى تسطير بضع صحائف من الحقائق ... بينما الحقيقة البسيطة الجليلة هى هذه :

« يحكى أن ملكاً ! »

* * *

ما زلت أذكر تلك الأمسية واضحة فى « كلكتا » حينما بدأت « قصة الجن » ...

كان المطر يتحدر هتوناً غزيراً ؛ والريح تعصف مستمرة ، والمدينة كلها قد غمرتها المياه مقدار ارتفاع ركبة عن وجه الأرض ...

وكنت ضيقاً بما فى نفسى من أمل طالما تحقق ، ذلك هو مقدم « المعلم » الذى يجب أن يتوقف على الأقل فى هذا المساء ! ...

جلست على كرسىّ صغير فى زاوية قصية من زوايا الشرفة أطلّ منها على الشارع ، وقلبى خافق وعينى مثبتة فى المطر الهاطل لا تتحول عنه ؛ فلما بدأ يقل انهماره ابتهلت إلى الله أن يديمه إلى منتصف الثامنة من هذا المساء !

ذلك بأنى كنت موقناً مطمئناً إلى هذا اليقين القوىّ الذى لا يزعزعه شىء : أن ليس للمطر من فائدة غير حماية طفل بائس مسكين قابع فى ركن من أركان « كلكتا » من مخالب « معلمه » المهلكة

وإذا لم يكن انقطاع المطر السريع جواب ابتهالى فلا بد أن يكون مرجع ذلك إلى بعض قوانين الطبيعة ...

ولكن ... واأسفاه ... هأنذا أبصر « مظلته » فى منعطف الشارع تقترب فى الوقت المعين المحدد . إنى أحس أن وجيب قلبى قد ازداد ، وأن ما كان فى نفسى من الآمال قد خاب ... ! لو أن عقاباً أليماً يُجزى به المجرمون — بما قدمت أيديهم — بعد الموت ، لما كان دون خَلْق « أستاذاً » وخلق « أستاذى » ممن عندى من التلاميذ !

واتجهْتُ مسرعاً — حين ظهرت مظلة الأستاذ — إلى أمى فى غرفتها ... لقد كانت جدتى جالسة قبالتها تلعب وإياها « الورق » تحت ضوء المصباح ... ودخلت فزعاً مضطرباً ، فألقيت بنفسى على السرير ... قريباً منها وقلت :

« يا أمى العزيزة ... هذا المعلم قد حضر ... وإنى — لما ألمّ بى من صداع — لا أكاد أعى اليوم الدروس ! »

* * *

لا أظن أن طفلاً فى غضارة العمر ، لم يستكمل بعد قوته ونموه ، مسموح له بمطالعة هذه القصة ... وعلى أنى أومن أشد الإيمان بصلاحها لمدارس المبتدئين الصغار ! لأن ما كنت أقدمت عليه كان غاية فى السوء ... ولكنى لم ألق جزاء سيئاً على كل حال ... بل كان الأمر على النقيض ، وتكللت مساعىّ بالفوز ، إذ قالت أمى تجيبنى :

— حسن يا بنى ! ثم التفتت إلى الخادم تشير عليه بوجوب انصراف « الأستاذ » اليوم ...

لقد كنت راضياً مرتاحاً ، فإن أمي استمرت لاعبة — كما كانت مع أمها من قبل — ولم تأبه لهذا العارض الذى ألم بى من الصداع « البسيط » وأبقيت رأسى بين وسائد السرير وظللت أضحك مما حدث ... لقد كنت أنا وأمى يفهم بعضنا بعضاً أدق الفهم ...

وللقارئ أن يتصور ما يلقاه ابن سبع من الصعوبة فى البقاء ساكناً هادئاً يزعم لأهله أنه مريض ... ولكنى ما لبثت أن نهضت بعد برهة والتفت إلى جدتي أريد منها أن تقص على بعض ما لديها من أقاصيص ! وكان علىّ أن ألحف فى التسآل لأن أمى وجدتى كانتا مستغرقتين فى اللعب غير آبهتين لما أقول ... ولكن أمى التفتت إلى — أخيراً — وانتهرتنى قائلة :

أيها الصبى ! لا تضايقنا ... انتظر حتى ننتهى مما نحن فيه ...

ولكنى تماديت وألححت ، وقلت لأمى : إن باستطاعتها أن تؤجل اللعب إلى الغد ... وأما القصة ... فهذا مما ليس منه بد ...

وضجرت أمى من هذا الإلحاح الشديد ، فرمت أوراق اللعب وقالت تكلم أمها :

— من الخير أن تقصى عليه ما يريد

وقد يكون — فى جملة ما فكرت به — أنّ علىّ ألا أزعجها بالانقطاع عن دروس الأستاذ (العقيمة السخيفة !) غداً ... من يدرى ؟

وانتهزتُ هذا المجال الذى أخلته لنا أمى فأمسكتُ جدتى من يدها وأدخلتها فى « كِلّتى » وأنا من فرحى أكاد أطير

فلما عاودنى شىء من السكون قلت لها :

— والآن يا جدتى فلتبدأ القصة ...

* * *

... قالت جدتى مسترسلة فى حديثها :

« ... وكانت للملك زوج ... »

— وكانت هذه بداءة طيبة للحديث ... فان العادة جرت أن يكون ملوك « الجن » مسرفين فى الزوجات ... ونحن حين نسمع أن الملك الواحد اثنتين تهلع قلوبنا وتهبط ! فان إحداهما — لا شك فى أنها من التعسات !

ولكن قصة جدتى لم يكن فيها من هذا شىء إن هذا الملك له زوجة « ليس غير »

* * *

ثم إنا اعتدنا أن نسمع — بعد هذا التقديم — أن الملك لم يكن له أولاد ... وما كنت — وأنا ابن سبع — أقدّر شقاء من ليس له ولد ... أو حاجته إلى الشقاء — بتعبير أدق — إذ ربما كان

أولاده في طريقهم إلى الحياة ...

ولم يك يعترينا اضطراب حين نسمع أن الملك قد ذهب إلى الغابة ... يَخْبُر فيها الصعاب، ليكون له ولد ! إنما يحسن الاختفاء فى الغابة حين نفر من وجه « الأستاذ » هاربين ...

... ولكن الملك — هنا — ترك لزوجه حينما ارتحل طفلة معها تترعرع ... فاذا هى اليوم فى شكل أميرة جميلة

ومضى على ذلك أحد عشر عاماً طوالاً ، والملك فى تجاربه وأموره ومهامه ، لا يفكر — طوال هذه الفترة — فى ابنته الحسناء ...

... لقد اكتملت الأميرة فتوة وشباباً .. حتى لكأنها فى حسنها البدر المنير ! وعمر الزواج ... لقد تمضى ... ولكن الملك لم يعد من رحلته حتى الآن ...

... وهال الملكة ما ترى من تأخر زواج ابنتها الأميرة فأرسلت إلى الملك تدعوه إلى وليمة يحضرها فى القصر . فلبّى الملك دعوتها وجاء

* * *

كانت عناية الملكة شديدة بما هيأت لزوجها من صنوف الطعام وأنواع الشراب ...وبما حلّت به من ضروب الآنية الذهبية الجميلة ...

وكان مقعد الملك مُعدّاً له من خشب «الصندل» العطرى الجميل ..

.. وقدم الملك القصر بعد غياب استغرق أحد عشر عاماً طوالاً .. وتبوأ مقعده ومن حوله الأميرة والجواري يحركن مراوحهن ، وينرن الغرفة بأشعة من جمالهن الفتان ...

وكان الملك يبصر الأميرة فيعجب بما يرى حتى لشغله ما هو فيه عما أُعدّ له من صنوف الطعام !

وسأل الملك زوجته عن هذه الجميلة الفاتنة : مَنْ عساها تكون ؟

وأجابت زوجه — وقد آلمها سؤاله ذاك —

— أحقاً .. لم تعرف ابنتك حتى الآن ؟

— أأصدق ؟ ابنتى الصغيرة قد ترعرعت ونمت فإذا هى اليوم فى شكل الحسناء ؟

— لعلك نسيت الأعوام التى هجرتنا فيها أيها الملك العظيم !

— ولكن ما أخّرَ الفتاة عن الزواج ؟

— أفأزوّجها وأنت لا علم لك بذلك ؟ إن هذا لا يليق ! ..

.. وغضب الملك من هذا الذى سمع وأقسم ليزوّجن ابنته أول من يصادف فى الطريق — عند خروجه غداً — من الفتيان ...

.. وكانت الأميرة خلال ذلك تحرّك مروحتها الجميلة على رأس أبيها الملك فى صمت وهدوء حتى انتهى من الطعام ..

* * *

وإن الملك لخارج من قصر زوجته فى الصباح إذ يُبصر بفتى من البراهمة يناهز السابعة من عمره ، يحتطب فى الغابة بعيداً عن القصر .. وكان هذا الفتى أول من رأى الملك عند خروجه فى النهار .. وصمم الملك أن يزوج ابنته من هذا الصبي الصغير .. ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يمتنع على الملك فلا يأتمر بأمره ولا يطيع إشارته إن أشار ؟

.. وجيء بالصبي وعُقدَ القرانُ وتم الزواج ..

* * *

التصقت بجدتى وسألتها فى لهفة عما تم فى أمر

هذين العروسين المجدودين فقلت :

— ثم كان ماذا ؟

ولقد تمنيت أن أكون ذلك الفتى الخاطب الفقير ... أو أن أستبدل به ... ولكن هيهات .. لن تجدى ابتهالاتى ... إن ذلك لبعيد ...

كان صوت جدتى قد انخفض قليلا علامة ما أصابها من كسل أو فتور ؛ وكان المصباح ينير ماحولى فيطغى على ظلام الليل ويبدد جيوشه أشتاتاً

وكان هذا الصوت الخافت الضئيل ، وذلك المصباح المتقد المنير ، يجعلان فى نفسى أنى ذلك الفتى الخاطب السعيد ... الذي لقيه الملك المجهول هذا فزوجه ابنته الحسناء الفتاة ...

... إن جدتي لو كانت مؤلفة لوجه إليها قراؤها أسئلة كثيرة يستوضحونها ، تقتضيها كثيراً من الشروح والتعاليق ...

فهذا يسأل عما أبقى الملك فى الغابة هذا المدى الطويل لغير ما سبب معلوم

وذاك يسأل عما أخر الأميرة عن الزواج ...

وثالث له سؤال غير هذين ...

وإذاً فالقصة — هذه — سخيفة لا خير فيها ولا غناء !

... ونحن إذا فرضنا أنها سلمت من كل هذا فمن الزعيم بأنها ستسلم مما سيوجه إليها من أسئلة أخرى ؟ بل وما يدريك ، فربما انتهت — ظنون القراء بها — إلى اتهامها بتهمة التبشير بمبادئ هدامة جديدة لتقويض الاجتماع البشرى ... وإلا فكيف يمكن تزويج فتاة نبيلة من فتى من أبناء البرهميين الصعاليك ؟!

وإذاً ... فليكتب القراء إلى الصحف يكشفون عما وراء أقوال هذا القاص الجديد من مبادئ الهدم وعقائد الكفر والضلال !!

ولقد رجوت أن تبعث جدتى فى هذا العصر لترى ما نحن فيه من شقاء !

* * *

وسألت جدتى — وأنا مأخوذ بسحر حديثها — عما آل إليه أمر الفتى والفتاة ؟!

قالت جدتي : وأخذت الأميرة الصغيرة زوجها الفتى إلى قصر باذخ منيف ، وظلت تتعهده بعنايتها وترعاه !

... ودخل الفتى البرهمى الصغير مدرسة ، وتلقى شيئاً من الدروس فيها على أساتذته هناك ... واختلط بأقرانه من طلاب الصف ، فسألوه عن أمره مع تلك الحسناء التى تساكنه فى القصر ؟ فحار فيما يرد عليهم إذ لم يكن هو يعرف من أمرها أكثر مما كان رفاقه يعرفون ...

... إنه لا يذكر إلا أنه جئ به إلى هذا القصر — ذى الأجنحة السبعة ! — يوم كان فى الغابة يحتطب ! ولكن تقادم العهد على هذا الحادث الفذ الغريب أبقى عنه فى ذهنه صورة مطموسة المعالم ، غير واضحة الأثر ...

ومضت على هذا أربع سنوات أو خمس ... وأسئلة أقرانه الطلاب تترى عليه ، ولكنه ضاق ذرعاً بهذه الأسئلة وعزم على أن يعرف جوابها من هذه الحسناء التى معه ...

وعاد من مدرسته إلى القصر ، وفي نفسه أن يسأل الأميرة عما يضايقه به إخوانه الطلاب ... وسأل الأميرة عما أراد ... ولكن الأميرة استمهلته وضربت له أجلاً فى غير هذه الأيام ...

ولم يزل هذا دأبه معها : يسألها عن أمرها معه ، فتستريثه إلى أمد غير محـدود ! وكان الفتى يلحف فى السؤال فلا تزداد هى إلا امتناعاً عليه !

... واعتزم أن يترك القصر الغامض العجيب إن أصرت الأميرة على عنادها هذا ، وأخبرها بما اعتزم إن لم تحدثه بما يريد ...

* * *

ضاق الفتى بالوقت الطويل ... أنه لا يكاد ينصرم إلا فى بطء شديد ؛ وكلما استعجل الأميرة ذكرته بالموعد المضروب ، فيصبر مضطراً إلى حين وفى نفسه لواعج تضطرب وهموم ...

لقد كان موعد الجواب بعد طعام العشاء ... حيث يأوى إلى فراشه لينام ... ها قد أزفت الساعة إذ تناول عشاءه وانصرف إلى مخدعه ليسمع لالينام . قالت جدتى : ودخلت الأميرة مخدع الفتى وهى تستحضر له فى نفسها الجواب ... ولـكنها ...

قلت لجدتى والخوف قد أخذ منى مأخذاً كبيراً حتى كاد قلبي يقف عن وجيبه الشديد الذى كان قد استولى عليه :

— ثم ماذا ؟ !

قالت :

— لقـد كان الفتى نائماً فى مخدعه ... إنه لم ينتظر حضور الفتاة ... أو قل إن الأقدار لم تمهله ليسمع الجواب الذى تلهف لسماعه هذا الأمد الطويل إذ تسللت إليه أفعى بين الزهور المنثورة على مرقده ولدغته ، فنام نومته الأبدية .. لقد مات المسكين ..

— ثم ماذا ؟ ! لا شىء ... وما الفائدة من الاسترسـال فى الحديث ؟ إن الأمر سيسترسل فى الصعوبة والاستغلاق ... إن المرء لن يصل إلى نتيجة مجدية يرتاح إليها أو يطمئن ...

ولـكن عقيدة الطفل لا يزعزعها الموت ! ! إنه لن يستطيع أن يدحر إيمانه القوى الشديد ... إنه يريد أن يغالب الموت فيختطف منه فريسته هذه التي أرداها ليمضى فى خياله مسترسلا ...

* * *

ثم يسمع الطفل الصغير — من جدته — ما صار إليـه جسم الفتى المسكين ، — وهو بين النوم واليقظة — ... لعل الجسم دفن على شاطىء من شواطىء الأنهار تظله شجرة وارفة الظل من أشجار « الموز »

ثم يغلب النعاس أجفان الطفل الصغير فيسترسل فى أحلام النوم بعـد أن استرسل فى أحلام القصص الخيالى الجميل ...

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

قصة صيف

للكاتب القصصي استيفان زويج

بقلم الأديب احمد فتحي عبد التواب

أمضيت أغسطس من العام الماضي بكارينبيا ، إحدى تلك الأماكن المجاورة لبحيرة كومو التي تختفي بهيجة على حافة الغابات في هدوء وسلام حتى في أحب أيام الربيع

وفي تلك الأسابيع القائظة كانت هذه المدينة الصغيرة المنعزلة عطرة ، وكان فندقها الوحيد خالياً من النزلاء دائماً ، وكان كل من النزلاء القليلين يعجب في نفسه سراً : لِمَ اختار الباقون هذا المكان المنعزل لقضاء عطلتهم الصيفية ، ويتساءل صباح كل يوم : لِمَ لَمْ يبرحوه بعد ؟ وكنت أعجب أنا أيضاً من سيد تقدمت به السنون ، يميزه عن الباقين حسن بزته ، ويظهر من سيمائه أنه إما سياسي انجليزي صميم ، أو فرنسي جوال . مضت أيام إقامته بيننا دون أن يسمح بالاشتراك في أية تسلية محلية ، ولا يُرَى إلا متأملا دخان سيجارته يتصاعد في الجو عالياً ، وفي بعض الأحايين يقلب صفحات كتاب !

وفي أحد الأيام القائظة التي لا تحتمل جمعت بيننا الصراحة وشرف المقصد والحرية القلبية المتبادلة فلم يكن للفرق بين عمرينا من حساب . فهو ليثوني المولد ، بدأ تعليمه في فرنسا وأتمه بانجلترا ؛ جواب بلدان لم يستقر في مسكن دائم عدة أعوام ، وتدرك بسهولة أن لا مكان له بين قراصنة الجمال الذين يتزينون بمجوهرات المدن بأكملها أثناء رحلة واحدة من رحلاتهم . يتذوق الفنون جميعاً يجذبه نحوها هوى عميق ، ويصده عنها ازدراء واضح أقوى من حبه لها . قضى آلاف الساعات الفريدة متجولا في رياضها دون أن يهتم بأن ينفق لحظة واحدة يخلق فيها عملاً يذكره به . يحيا على هامش الحياة نافراً من الانتماء إلى أي الجماعات ، لأنه — كما يعتقد — كنتيجة لآلاف التجارب المختلفة ، تتبدد الثروات المخزونة بها دون خليفة يمتلكها بمجرد أن تخمد أنفاس أعضائها

حدثته في هذا الأمر إحدى الأمسيات وكنا جالسين في شرفة النزل بعد الغداء نراقب كيف يتلاشى أمام أعيننا بريق البحيرة رويداً رويداً

ابتسم وقال :

« قد تكون على حق . وعلى الرغم من ذلك فإنني لا أعتقد في الذكريات . ففي اللحظة التي تفارقنا التجربة فيها ، تنتهي وتتلاشى . ألا يتبدد الشعر ويفنى أيضاً بعد عشرات ومئات السنين ؟ ولكنني سأقص عليك اليوم أمراً تافهاً يخيل إلى أنه يصلح لأن يؤلف قصة سارة . تعال ، فالمرء يفضل أن يتحادث في هذه الأمور أثناء رياضة على الأقدام »

سرنا والطريق المحبوب المجاور للشاطئ تغمره ظلال الصنوبر والبندق السرمدية ، وتتلألأ من بين أغصانها البحيرة اللامعة ، ويقبع كالسحاب من

وداءها بيللاجيو منعكسة عليه الأشعة الهادئة من الشمس وقد قاربت المغيب ؛ وهناك بعيداً فى أعلى ذرى التل القائم يلمع جدار فيللا سربيللونا وكانت الحرارة محتملة ، تحمينا الظلال منها مثل ذراع حسناء ، وقد عبق الهواء بعطر ورود غير منظورة وابتدأ قائلاً :

« سأعترف لك قبل كل شىء ، فحتى الآن لم أبح لك بسرى . فمن عدة سنين خلت كنت هنا ، هنا فى كادينبيا ، فى مثل هذا الفصل ، ومقيم فى النزل عينه . وستدهش ولا شك فقد أخبرتك أنى أتجنب استعادة ذكريات تجاربى فى الحياة

« وبالطبع كانت كادينبيا إذ ذاك منعزلة كما هى الآن . وكان يقيم هنا أيضاً ذلك السيد الذى من ميلان ، والذى يظل طول اليوم يصيد السمك ليطلق سراحه فى المساء ، وهكذا كل يوم . وكان من بين المقيمين هنا سيدتان انجليزيتان عجوزان كان وجودهما صعب الاحتمال ، وشاب ظريف وفتاة شاحبة تسحر اللب ، لا أعتقد اليوم أنها زوجته من فرط ما كان يظهر للعيان أن كلا منهما يبادل الآخر حباً مبرحاً . وكانت تقيم فى النزل عائلة من شمال ألمانيا يميزها الجد العابس ، مكونة من سيدة مسنة ، كتانية الشعر هزيلة ، قبيحة الحركات متنافرتها ، تصوب من عينيها نظرة حادة كالفولاذ ، ولها فم مستقيم قبيح كأنما شرط بمبراة ، ترافقها سيدة أخرى أسن منها ، ولا إخالنى مخطئاً إذا قلت إنهما أختان ، فالسحنة واحدة إلا أن الثانية أهزل ووجهها أكثر تجمداً . وكانتا تجلسان معاً ، ساكنتين لا تفوهان بكلمة ، عاكفتين على التطريز كأنما تنسجان السآمة والملل . وكانت تجلس بينهما فتاة تبلغ السادسة عشرة من عمرها تقريباً هى ابنة إحداهما ، وإن كان يعسر معرفة ابنة أيتهما ، لأنها كانت غير مهتمة وقد بدت سحنتها النسوية شاحبة باهتة ؛ غير أنها كانت فى الحقيقة ممشوقة القد ، نحيفة لم تنضج بعد ، لا تعنى بارتداء ثيابها فى ذوق ، إلا أن حنيناً بائساً يروعك انبعاثه من عينيها البراقتين اللتين تغضهما مضطربة إذا حدق فيهما محدق ، ويخفق ضياؤهما فى بلادة وفتور . وكانت دائمة التطريز ، ولكن فى بطء ، كأنما النعاس يدب فى أناملها التى سرعان ما تسكن ، وتسترسل فى أحلامها محلقة فى صفحة البحيرة البراقة

« ولست أدرى ما الذى أثر فى نفسى وحرك عواطفى نحوها . أكانت تلك الفكرة المألوفة المحتمة التى سرعان ما تخطر ببال من يرى الأم الذابلة الذاوية بجوار الابنة ، وقد بدأت تتفتح زهرتها وتينع ؟ أم كانت فكرة أن كل خد تنتظره التجاعيد ، وكل بسمة تنتهى إلى السآمة ، وكل حلم آخرته الخيبة ؟ أكانت تلك الرغبة الجامحة الواضحة التى تحتال الفتاة جاهدة لإخفائها ولكنها تغدر بها ويفشى سرها ما تنم عليه ملامحها ؟ أم أن التى أدهشتنى هى إحدى تلك اللحظات الفريدة العجيبة الخالدة فى حياة فتاة يافعة ، حينما تحملق فى الكون يدفعها الشوق والحنين ، باحثة عن المجهول الذى تشعر أنه ينقصها ، عن الشىء الوحيد الذى تتمنى لو تعلقت به كقشة يحملها التيار ، وبعد ذلك ، تذبل وتذوى وتتبدد ؟

« وجدت نفسى مسوقاً إلى مراقبتها لأكشف

عن سر تلك النظرة الحالمة المبللة بالدموع ، لألاحظ تلك الحالة التى تعتريها فتدفع بها لمعانقة كل قطة ، وتدليل كل كلب في إسراف ؛ لأميط اللثام عن هذا القلق الذى يحرك لهفتها على عمل كل شيء ولكنها لا تتم شيئاً ، عن هذا الحماس الشديد حينما تريد أن تلتهم المجلدات القليلة الموجودة بمكتبة النزل ، أو عند ما تتفرس حالة فى ديوانى جيته وبومباش وهما الشاعران المرهفا الحس الدقيقا الملاحظة ...

— ولكن لماذا أراك تبتسم ؟

— وكان علىّ أن أبريء نفسى فقلت :

ليست إلا المقارنة بين جيته وبومباش

« فقلت : آه ، نعم ! مضحك ولا شك ، ولكنه على نقيض ذلك . صدقنى أن فتاة صغيرة فى مثل سنها لا يهمها أن تقرأ شعراً ، رفيعاً كان أو حقيراً ، واقعياً كان أو خيالياً ؛ فالشعر للمتعمقين ليس غير كؤوس يطفئون بها ظمأهم ، فإنهم لا يعبأون بكرمة النبيذ ما داموا قد سكروا قبل أن يشربوا . وهذه الفتاة كان يعذبها الشوق الدفين ، ينم عنه وميض عينيها ، وارتعاش أناملها ، وعدم استقرارها وترددها كما لو كانت تود لو تطير ، ولكن يقعد بها الخوف . فكنت تراها تحن لمن تبادله الحديث ، عساها تنفس عن بعض عواطفها المكبوتة ، ولكن لم يكن هناك غير وسوسة الابر تذهب لليمين ثم للشمال ، وسكوت السيدتين البارد المقصود

« هزنى الحنان نحوها ، ولكن كيف يمكننى الدنو منها ؟ وماذا يصنع رجل فى خريف حياته لفتاة فى ربيع حياتها ؟ وقد حاكل إمكان فى تقديم نفسى كراهتى للعائلة ، وبخاصة بغضى التقرب من السيدات المتقدمات فى السن من الطبقة المتوسطة

« طرأت علىّ فكرة غريبة ، فكرت أنها فتاة صغيرة طاهرة ، عديمة التجارب ، وبالتأكيد تزور إيطاليا لأول مرة التى هى بالنسبة للألمانيين (وشكراً لشكسبير لأنه لم يذهب إليها بتاتاً) أرض الحب الخيالى والمحبين ، والمغامرات السرية ، والخناجر اللامعة ، والمساخر والدونات ، والخطابات الرقيقة ... وبكل تأكيد إنها تحلم بكل هاته الغراميات . ومن ذا الذى يفهم أحلام فتاة شابة ، تلك الخيالات السابحة في عقلها على غير هدى وبصيرة كالضباب ، أو كالسحب وقت الغروب عند ما يلتهب لونها مبتدئاً بالوردى مُنتهياً بالأحمر القانى ؟ ولا شك أن اعتقادها — كما هدانى تأملى — أن لا شيء فى الوجود محال تحقيقه . وعلى ذلك عزمت على أن أخترع لها محباً مجهولاً

« فى ذلك المساء حررت لها خطاباً رقيقاً ملأته بالدلة المحببة فى غير إسراف ، لا أطلب فيه شيئاً ولا أعد بشيء ، خطاباً مبهماً فى إسهاب ولكن بتحفظ ، وبالاختصار كان خطاب حب خيالى كقصيدة من الغزل ... ولما كنت أعلم أنها أول من تبادر إلى منضدة الافطار كل صباح ، فقد أخفيت الخطاب بين طيات منشفتها

« وفى صباح اليوم التالى راقبتها وأنا واقف بالحديقة ، فرأيتها وقد بغتت من المفاجأة وظهر عليها الخوف حينما قرأت الخطاب ، والتهبت وجنتاها الشاحبتان احمراراً ، وتدرج الاحمرار فصبغ جيدها ونحرها ، وأخذت تتلفت حولها حائرة وقد اضطربت حركة يديها ، عند ما أخفت الخطاب وهى تختلس النظرات ، وجلست فى مكانها هائجة مضطربة ،

وحاولت أن تتذوق إفطارها ولكن هيهات ، فقد أسرعت فى الاختفاء ، ولا شك أنها خرجت باحثة عن أى مكان منفرد تخفيه الظلال كى تتمكن من قراءة الخطاب الخفى الغامض مثنى وثلاث ... كما تريد أن تقول على ما أرى ... ؟ ؟ »

فقد بدرت منى حركة علىّ أن أوضحها :

« يلوح لى أن ذلك منتهى عدم التبصر . ألم تفكر فى أنها قد تستعلم من الخادم كيف وضع الخطاب فى منشفتها ، أو على الأقل تظهر والدتها عليه ؟ ؟ »

« من الطبيعي أننى فكرت في ذلك ، ولكنك حينما ترى تلك الفتاة العزيزة ، الهيابة ، الخائفة ، التى تتلفت حولها قلقة إذا ارتفع صوتها أكثر من المعتاد عند ما تتكلم ، يذهب عنك كل شك ، وإنه يوجد فتيات نقيات السريرة ، يمكنك أن تذهب معهن إلى أقصى غاياتك ، لضعفهن ، فيفضلن أن يتحملن قسوة التجربة المعلومة لديهن على المجازفة فى أخرى مجهولة

« وقد ارتحت عند ما رأيتها تخرج ، وطربت لنجاح تجربتى

« وأخيراً عادت ، وبغتة شعرتُ بالدم الحار يتدفق فى كياني . الآن تغيرت المشية ، بل تغيرت الفتاة بأجمعها ! ! فقد دنت فى حيرة وخزى واضحين ، يتم عنهما موجة متأججة خضبت وجهها ، بينما حيرة حلوة مستحبة ربكت كل حركة منها . بَقِيتُ طول اليوم على هذه الحالة ، تتفرس فى كل شباك ، كما لو كانت ستعثر فيه على السر الغامض ، وتتطلع إلى كل مار بجوارها . ومرة نظرت إلىّ ، وبكل حكمة تجنبت نظرتها حتى لا أفضح سرى . وفى لحظة أحسست لهيب تساؤلها فارتبكت .. وللمرة الثانية — بعد سنين من تجاريب الحياة — أشعر بأنه لا يوجد سرور أخطر بل أفتن من وميض أول أشعة الحب فى عيني فتاة

« رأيتها مرة أخرى جالسة بين العجوزين ، تطرز بأصابع مرتجفة ، ولاحظت كيف أنها كانت تتحسس صدرها من وقت لآخر ، حيث تخفى الخطاب ولا شك

« وفى هذا المساء كتبت إليها خطاباً آخر ، وصرت أكتب إليها كل يوم ، حتى فتنى وخلب لبي التعبير عن شعور شاب فى خطاباتى ، لأخترع جوهر عاطفة نقية خيالية . وأصبحت رياضة تهزنى ، كالصيادين يسرون حينما ينصبون شباكهم لفريستهم فى الخلاء ؛ ولا يمكننى أن أصف لك جزعى من أن التجربة التى بدأتها بتحرير تلك الخطابات لا تتم

« تبدلت مشيتها فأصبحت تخطر فى خفة وسرور مطلقين ، وغطت ملامح وجهها مسحة من الجمال الشاذ المضطرب . ولا شك أنها تقضى ليلها متلهفة مترقبة خطاب الصباح ، لأنه فى وقت الافطار كانت عيناها تبدوان ذابلتين غير مستقرتين يخفق وميضهما . وقد ابتدأت تعنى بنفسها ، تزين شعرها بالورود وتتحسس كل شىء فى رفق وحنان عجيبين ، وتنم نظراتها عن تساؤل دائم ، لأنها شعرت ولا شك — من العبث الذى كنت أسطره في خطاباتى — أن الكاتب بل الملاك الذي يُحَمِّلُ النسيم ألحاناً تُشجيها قريب منها ، ولكنه غير منظور . ونمتْ سعادتها وترعرعت حتى أن السيدتين الخاملتين لاحظتا التغير الذى بدا عليها ، وكثيراً ماغضتا النظر عن تورد خديها وحركة أصابعها العصبية السريعة .. وأخيراً تختلس التنهد كل منهما . وقد عمق صوتها وبدا أوضح وأقوى وأجسر ، وفى حلقها نبضة

ترتجف دائماً ، كما لو أن أغنية تود لو تنفجر وتسيل منتصرة مثل ... ولكنك تبتسم مرة أخرى ؟ ؟ »

« لا لا أبداً !! تفضل بالاستمرار ، كنت أفكر فقط كيف إنك تجيد قص كل هذا . واسمح لى أن أقول لك أنك ذكى ، ويمكنك بكل تأكيد أن تكتب القصة كأشهر روائيينا »

« تريد أن تقول لى بكل أدب وحذر إننى أقص القصة — مثل كتابكم الألمان الأعزاء — بأسلوب مشرق ، ثرثار ، خيالى ، مطول . نعم وقد أكون أسرع !!

« وأخذت أبعد الشبهة عنى بمنتهى الحذر والفطنة . وقد أبنت لها فى خطاباتى أن المرسل لا يقيم فى كارينبيا ، بل فى إحدى المصحات المجاورة ، وأنه يأتى كل يوم إلى كارينبيا إما بالقارب أو بالباخرة . فكانت كلما سمعت رنين جرس الباخرة المقتربة ، تنتحل الأعذار وتفلت من رقابة العجوزين وتندفع نحو البحيرة ، وفى ركن الرصيف تقف — وهى ممسكة أنفاسها — ترقب النازلين

« ومرة بعد ظهر أحد الأيام الراكدة — ولم يكن لي ما أفعله أفضل من مراقبتها — حدث حادث هام : ذلك أنه كان بين القادمين شاب مهندم يرتدى زى شبان الايطاليين فى غاية الانسجام والأناقة ؛ وعند ما أدار طرفه بين المستقبلين ، التقت نظرته بتلك النظرة العميقة الباحثة فى يأس وقنوط ، المتسائلة ، نظرة فتاتنا الصغيرة ، وسرعان ما احمر وجهها المصفر من فرط الخجل

« تريث الشاب وانتبه — كما يحصل دائماً لكل من تصادفه مثل تلك النظرة النافذة — وتنهد ثم أخذ يقترب منها ... أما هى فانسابت بين الأشجار ثم وقفت قليلا لتتحقق إذا كان هو العزيز المنتظر . ثم أسرعت فى الابتعاد متلفتة حولها ثانية .. إنه الكفاح الأزلى بين الارادة والخوف ، بين الرغبة والعار ، والأقوى فيه دائماً هو ذلك الضعف الحلو اللذيذ

« ومن الواضح أن الشاب قد تشجع ، وبالرغم من العجب الذى أصابه ، أسرع فى أثرها . فتولانى خوف من أن كل شئ قد ارتبك واختلط . وفى هذه اللحظة ظهرت السيدتان الألمانيتان على رأس الطريق ، فأسرعت الفتاة نحوهما كالطير المذعور . فتقهقر الشاب بحذر ولكنه التفت مرة ثانية والتقت نظراتهما الملتهبة التى أصابت كلا منهما فى الصميم

« وفى أول الأمر نبهتنى هذه الحادثة إلى أن أنهى هذا الدور الذى كنت ألعبه ، ولكن التجربة كانت لم تزل على أشدها ، وعزمت على أن أغتنم هذه الحادثة . ففى المساء حررت لها خطاباً مطولاً أكدت فيه حدسها ، وكنت سعيداً جداً بأننى سأضرب عصفورين بحجر

« وفى صباح اليوم التالى ، راعتنى منها تلك النظرات الحائرة فى عينيها ، فقد خضعت تلك الجميلة الضجور لسكون عصبى غامض ، واحمرت عيناها وتندت من كثرة الدموع التى انسكبت ، وكأنما سكن فى أعمق أعماقها ألم قاتل . وخيل إلىّ أن سكونها هذا كالهدوء الذى يسبق الزوبعة العاتية ؛ وبدأت أشعر بالخيبة بعد أن كنت أبنى السرور الخالص ، فلم تطع الراقصة ولم ترقص كما كنت أود

« أنعمت النظر فى كل احتمال ، ولكننى لم أهتد إلى حل موفق . وبدأ يروعنى نصيبى فى هذه المسئلة ، ولكنى أتجنب نظراتها الشاكية الباكية . لم أعد إلى النزل حتى المساء . فلما أبت تذكرت كل

شيء . فالمائدة لم تشغل ، والعائلة قد رحلت ، وهي قد أُرغمت على الرحيل دون أن تتمكن من التمتع بكلمة واحدة يسرُّها لها الحبيب ، ودون أن تعلن لديها كيف أن قلبها سكن يوماً واحداً بل لحظة واحدة إلى حبيبها المعبود . استيقظت من حلم حلو لديذ لترحل إلى إحدى القرى القاتمة تجتر أحلامها الخائبة .

« فاتني كل ذلك ، والآن يهمني ويشعرني العار تلك النظرة الأخيرة الباكية ، وهذا المزيج المخيف من الغضب والعذاب واليأس القاتل والأسف الحاد الذي سببته لها بسوء تصرفي »

* * *

أحاطنا الليل بظلمته ، وتسرب ضوء القمر — الذي يطل بنصف وجهه من بين السحب — من بين الأشجار كالحيات تسعى ؛ وزاد المكان روعة شحوب النجوم وسكون البحيرة الميتة . مشينا دون أن ينبس أحدنا بكلمة ، وقد غرق رفيقي في تخيل عميق . وأخيراً قال :

« تلك هي القصة ! ألا تصلح لأن تكون قصة جيدة ؟ »

« لا أدري ، إنها قصة سأحتفظ بها بين قصص الحياة العديدة . وعلى الرغم من قصرها ربما يسترعي الانتباه فقرة جيدة تلمح من بين سطورها القليلة . إنها بداية ولا بد من خاتمة لها »

« آه ! فهمت ما ترمي إليه حياة الفتاة وعودتها إلى القرية ، والمأساة المرعبة في المكان المعلوم ... ؟ »

« لا ... ليس هذا بالذات ، فالفتاة لم تذهب بعيداً في مسرتي . فالفتيات الصغيرات عادة لا يسببن سروراً إذ يعتبرن أنفسهن كاملات التجارب ، ولا سيما وأن موقفهن سلبي . وعلى ذلك فكلهن متشابهات . وإليك مثلاً : فالفتاة في هذه الحالة ، عند ما يحين الوقت الذي فيه تتزوج من شاب متمدن متوسط الطبقة فاضل ، لا يتألق في مخيلتها إلا الورود الملتهبة اليانعة والأحلام المحلقة الحائمة حول الزوج العزيز ؛ أما حقيقة الحياة وصرامتها فلن تمر لها بخاطر ... لا ... لا ... أنا لا أسر بالفتاة الصغيرة »

« هذا غريب ! ولا أدري أي سرور تجده في الشاب ، فإن مثل تلك النظرات الملتهبة تصادف كل إنسان في شبابه ، إلا أن معظمهم لا ينتبهون لها مطلقاً وبعضهم ينسونها سريعاً . ويجب أن تتقدم بالمرء السن حتى يعلم أنها ربما كانت أشرف وأعمق تجارب الوجود وأعظم امتياز مقدس لعهد الشباب ... »

« إنه لا يرضيني الشاب الصغير أيضاً ... »

« إذن ؟ »

« سأحدد موقف الرجل العجوز ، كاتب الخطابات ، وأصور مقاوماته ... لا أظن أنه يوجد مخلوق مهما بلغت به السن ، في قدرته أن يحرر الخطابات الغرامية الملتهبة ويحلم بالحب ثم يخشى اللوم والتقريع ... سأحاول أن أصف — مستنبطاً من مجرد الحقيقة — كيف تنمو العاطفة وتترعرع فتستبد به وتتسلط على تفكيره وتصرفاته في الوقت الذي يخيل إليه فيه أنه المسيطر على عواطفه الضابط لها ... فجمال الفتاة المشرق — في الوقت الذي يعتبر نفسه كالمتفرج اللاهي به — يجذبه ويسبيه ، ثم يؤثر فيه ويسكن في أعماقه البعيدة ، وعند ما يفقد كل مقاومة ، تتنبه فيه رغبة جامحة للنزال والهروب ولكن هيهات ... وتلك هي الملهاة ؛ وهذا الرد فعل (الانعكاس) للحب — الذي يجعل العاطفة في العجوز والشاب متشابهة تماماً — هو الذي يسرني

« سأسور شعوره بالخوف ، وسأظهره غير مستقر ، يضرب في الأرض باحثاً عنها عسى أن

يراها ، ولكنه لا يجرؤ على الوصول إليها . سأجعله يكر راجعاً لنفس المكان الرهيب آملا أن يجدها مرة ثانية ، يستجدى القادير أن ترحمه ولكنها لم تزل ثابتة على قسوتها حتى اللحظة الأخيرة .. بهذه النتيجة وبتلك الصور سيتم بناء القصة الصغيرة ..»

« كذب ، خداع ، غير ممكن ...! »

فزعت وجفلت من صوت رفيق الذى قطع علىّ قولى بقسوة وتهديد ، ولأننى لم ألاحظ عليه من قبل مثل تلك الثورة العاطفية . وفى لمح البصر أخذت أستعيد فى مخيلتى ماعساى أكون قد جرحت إحساسه به فى غير وعى منى ، فإذا به يقف فجأة وقد بدت على تقاسيم وجهه آثار الألم الذى يحسه . ورغبت فى أن انسحب سريعاً ، وأغير موضوع الحديث ، ولكنه تنبه ثانية وعاد يتم حديثه بصوت هادئ عميق ممزوج بعصبية محببة :

« قد تكون على حق ، وهذا فى الواقع سار جداً ، فالحب يكلف العجائز غالياً . وأتذكر أن بلزاك قد جعله عنواناً لإحدى قصصه الشجية المثيرة للعواطف . ولا شك أن كثيرين غيره سيكتبون تحت العنوان نفسه ، ولكن كبار السن منهم — الذين يعلمون أسرار ذلك — سيقتصرون على ذكر وقائع النجاح والفوز دون الاخفاق والهزيمة مطلقاً . إنهم يخشون أن يكونوا سخرية فى مواقف لاتنتهى حتى يسكن رقاص الزمن الأزلى . وهل تعتقد حقيقة أن تلك الفصول من مذكرات كازانوفا ، التى تصف المفاجآت التى تفجأنا فى سن متقدمة قد فقدت ؟؟ كلا ... إنى أعتقد أن قلبه ويده قد هرما قبل أن يتمها ...»

بسط إلىّ رفيق العجوز يده وقد أتم قوله بصوت ينم عن البرود والتحجر :

« ليلة سعيدة أتمناها لك ، ولو أنى أرى ، أنه من الخطر أن تحكى للشباب قصص ليالى الصيف المثيرة . إنها سرعان ما تلهب فيهم العاطفة الملتهبة ، وتتركهم نهباً للأحلام السخيفة والأمانى الباطلة ... مساء الخير ! ! »

* * *

وغاب فى ظلام الليل بخطواته التى لم تُخْفِتْ من وقعها السنون إلا قليلاً . وكان الوقت متأخراً ، ولكننى أحسست بضيق طالما يصيبنى لسبب حرارة الليل وفورة الدم فى عروقى عند المعركة أو حينما يكون المرء صريع تجربة مجهولة — فى لحظة محزنة —

فانسبت فى الطريق المظلم الموصل إلى ڤيلا كارلوتا ، التى تنحدر درجاتها المرمرية حتى تغمرها مياه البحيرة ، فجلست على حجر أحسست برودته ، وكان الليل عجيباً وأنوار بللاجيو التى كانت تنساب من بين الأشجار كالدود الملتهب المتوهج تبدو الآن بعيدة بعداً شاسعاً تلمح فوق سطح البحيرة ، وأخذت تختفى تدريجياً واحدة إثر واحدة حتى لف المكان ظلامٌ شامل مخيف . ولم يؤنسنى فى وحشتى إلا خفقان الأمواج وهى تصطفق على درجات السلم ، وإلا خفقات النجوم اللامعة فى السماء الشاحبة اللانهائية . وبين لحظة وأخرى تتفجر إحدى النجوم وتغوصُ فى ظلام الليل المرعب كالسهام الطائشة . تُرَى إلى أين تسقط وتستقر ؟ ؟ ؟ ... فى الوديان والجبال وفى أعماق البحار البعيدة . ولا شك أنها تنقذف بقوة طائشة مثل حياة أُلقيت من علٍ فى أعمق أعماق أقدار مجهولة

أحمد فتحى عبد التواب

شمعدانات الأسقف

مسرحية فى فصل واحد

لنورمان ماكنيل
ترجمة "الناقص"

للمستر نورمان ماكينل كاتب هذه الرواية مركز عظيم فى المسرح الانجليزى الحديث ، لا كمؤلف فانه لم يؤلف غير روايتين غير هذه الرواية ، وإنما كممثل يتزعم مدرسة التمثيل الطبيعي غير المتكلف

وقد اقتبس هذه الرواية ذات الفصل الواحد من قصة فيكتور هوجو العظيمة (البؤساء) . وقد أبدى براعة فائقة حتى ضمن هذا الفصل الواحد حادثة جان فالجان (المجرم) مع نيافة الأسقف ولكوم Welcome التى تستغرق الفصول الثانى حتى الثانى عشر من كتاب فانتين مع المحافظة على روح القصة الأصلية

زمن القصة

أوائل القرن التاسع عشر

مكان القصة

فرنسا على بعد ثلاثين ميلا من باريس

الاشخاص

الأسقف
المجرم
برسوميه (أخت الأسقف ، أرملة)
ماري
ضابط
جند

المنظر

المطبخ فى كوخ الأسقف ، وهو نظيف ومؤثث باللازم من الأدوات . يوجد به ثلاثة أبواب : باب إلى اليمين ، وباب إلى اليسار ، وباب فى الركن الأيسر . وتوجد نافذة فى الركن الأيمن . وفى أدنى اليمين موقد نقيل ، وأمام باب الركن الأيسر مقعد من خشب البلوط عليه مخدات ، وتحت النافذة مائدة عليها أدوات الكتابة وصليب من الخشب ، وإلى يمين النافذة ساعة تملأ كل ثمانية أيام ، وفى أقصى اليسار دولاب للمطبخ ، وفى الركن الأيمن مائدة للأكل من خشب البلوط ، ويوجد غير ذلك كراسى وكتب وأشياء أخرى ... ويظهر فى خارج المطبخ منظر غابة شتوية . على رف الموقد شمعدانان غاية فى الجمال يظهران كأنهما غريبان وسط هذه الأشياء

(عند رفع الستار ترى مارى وهي تلاحظ الحساء الذى على النار وبرسوميه وهى تطوى بعض الملابس)

برسوميه — ماري ألم يغل الحساء بعد ؟

ماري — لم يغل تماماً يا سيدتى

برسوميه — كان من الواجب أن يغلى الآن . إنك لم تلاحظى النار جيداً أيتها الطفلة

مارى — ولكن الذى أشعل النار هو أنت يا سيدتى

برسوميه — لا تجيبينى بمثل هذه اللهجة الجافة

مارى — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إذن لا تدعينى أعود إلى تأنيبك

مارى — نعم يا سيدتى !

برسوميه — إنى لأعجب أين يكون أخى الآن (تنظر إلى الساعة) لقد جاوزت الحادية عشرة ولم يعد بعد ... مارى !

مارى — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألم يترك لى نيافة الأسقف رسالة ما ؟

مارى — كلا يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك عن وجهته ؟

مارى — بلى يا سيدتى

برسوميه — (مقلدة إياها) بلى يا سيدتى ... إذن لِمَ لَمْ تخبرينى بذلك أيتها الحمقاء ؟

مارى — إنك لم تطلبي منى ذلك يا سيدتى

برسوميه — ولكن ليس هذا بالسبب الذى يدعوك إلى عدم إخبارى

مارى — لقد طلبت منى سيدتى هذا الصباح عدم الثرثرة ، ولذا ظننت ...

برسوميه — لقد ظننت ! آه ... يا إلهى ... لا فائدة منها مطلقاً

مارى — نعم يا سيدتى

برسوميه — ألا تكفي عن « نعم يا سيدتي » هذه أيتها الببغاء الغبية ؟

مارى — بلى يا سيدتى

برسوميه — ألم يخبرك الأسقف عن وجهته ؟

مارى — لقد ذهب إلى والدتى يا سيدتى

برسوميه — أحقاً ذهب إلى والدتك ؟ ! ... لماذا ؟ ... أرجوك

مارى — لقد سألنى نيافته عن صحتها فأخبرته أنها ليست على ما يرام

برسوميه — لقد أخبرته أنها ليست على مايرام أليس كذلك ؟ ولذا غادر أخى البيت دون عشاء لأنك أخبرته ذلك . إنك تستحقين الشكر !

ماري — إن الحساء يغلى يا سيدتى

برسوميه — إذن أعديه فى الأطباق ولا تكثرى من الكلام أيتها الغبية (تكاد ماري أن تفعل ذلك) لا ... لا ... ليس كذلك ... دعى ذلك لى وضعى أنت الملح على المائدة ... الملح الفضية

مارى — الملح الفضية يا سيدتى ؟

برسوميه — نعم الفضية ... أأنت صماء إلى جانب غبائك ؟ !

مارى — لقد بيعت يا سيدتى

برسوميه — بيعت ! (بفزع) بيعت ! ... أجننتِ ؟ ... ومن ذا الذى باعها ولِمه ؟

مارى — لقد طلب منى نيافة الأسقف بعد ظهر اليوم وأنت فى الخارج أن أذهب بها إلى السيد جرفيه وأبيعها منه بأكبر ثمن ممكن

برسوميه — ولكن ليس لك أن تفعلى ذلك دون استشارتى

مارى — (بحزن) ولكن ، يا سيدتى ، لقد طلب منى نيافته ذلك

برسوميه — إن نيافة الأسقف ليس إلا ... إ ... إ ... ولكن ما سبب حاجته إلى المال ؟

مارى — عفواً يا سيدتى ولكنى أعتقد أنه ما فعل ذلك إلا من أجل الأم جرنجوار

برسوميه — أحقاً الأم جرنجوار ؟ ... الأم جرنجوار ! ... تلك الساحرة التى تسكن فى أعلى الربوة والتى تكسل عن ترك فراشها للبحث عن القوت ، وما حاجة الأم جرنجوار إلى المال ؟

مارى — لقد مرّ عليها المحصل وأخبرها أنه لا يمكنه الانتظار أكثر من ذلك وهددها بالطرد إن لم تدفع إيجار مسكنها ، ولذا أرسلت جان الصغير ليطلب معونة القس و ...

برسوميه — يا إلهى .. لا فائدة .. لا فائدة .. سيضيع منا كل شىء .. فقد بيعت ممتلكاته وذهبت مدخراته وضاع أثاثه ؛ ولولا مهري الصغير لتناجوعاً ... والآن جاء دور ممالحي (بتنهد) ملاحاتى الجميلة ... إن هذا لكثير ... كثير ... (تنفجر باكية)

مارى — إنى لآسفة يا سيدتى ... لو كنت أعلم ...

برسوميه — آسفة ؟ ولِمَهْ ؟ ... أرجوك ... إن نيافة الأسقف لو أراد أن يبيع ممالحه لما عارضه إنسان ... هيا اغسلى يديك فإنهما قذرتان

مارى — نعم يا سيدتى ...

(تذهب جهة الباب ... يدخل الأسقف من باب الركن)

الأسقف — آه ... ما ألذّ هـذا الدفء — إنه ليستحق أن يذهب الإنسان خارجاً فى البرد القارس حتى يستمتع بالدفء عند رجوعه ثانية !

(تسرع برسوميه وتساعده فى خلع معطفه فى حين تنحنى مارى لتحيته)

شكراً يا عزيزتى (ينظر إليها) ماذا حدث ... ؟ إنك تبكين ... هل ضايقتك مارى (يهز أصبعه فى وجه مارى كأنه يهددها) آه !

برسوميه — لم تفعل مارى شيئاً ... ولـكن ... ولـكن ...

الأسقف — حسن ... ستخبرينى عاجلاً . والآن هيا إلى المنزل يا ماري ... إن والدتك أحسن من ذى قبل . لقد صليت معها وقد عادها الطبيب .. هيا أسرعى (تضع مارى جاكيت على كتفها وتهم بالخروج) وإذا كانت والدتك مستغرقة فى النوم فالزمى السكون

مارى — أوه ، شـكراً ، شـكراً لنيافتك

(تذهب إلى باب الركن وعند ما تفتحه يندفع الثلج داخلا)

الأسقف — مارى ... خذى كوفيتى هذه لعلها تقيك برد هذه الليلة القارس

مارى — (بخجل) أوه .. كلا ياصاحب النيافة

برسوميه — ما هذا الهراء يا أخى ؟ ... إنها صغيرة ولن يؤثر فيها البرد

الأسقف — برسوميه ! ... إنك لا تعلمين مقدار البرد فى الخارج لأنك لم تتركى المنزل .. مارى! دعينى أدثرك بها (يفعل ذلك) والآن أيتها الطفلة هيا أسرعى إلى المنزل

(تخرج مارى من باب الركن)

برسوميه — لقد عيل صبرى عليك يا أخى ... هيا اجلس واشرب حساءك فقـد برد من طول الانتظار

الأسقف — ما أبدع رائحتها !

برسوميه — إنى لأعتقد أن والدة مارى ليست مريضة إلى الحد الذى يدعوك إلى زيارتها فى مثل هذه الليلة . و إنى لعلى ثقة من أن هؤلاء الناس إنما يدعون المرض حين تزورهم دون أن يفكروا فى تعبك

الأسقف — إنهـا لمكرمة منهم أن يحاولوا رؤيتى !

برسوميه — هذا حسن ، ولـكننى أعتقد أن الحسنة تبدأ فى منزل المحسن أولا

الأسقف — ولذا أعددت لى هـذا الحساء اللذيذ ! ما أطيب قلبك نحوى يا أختى

برسوميه — إننى أيضاً أرى أننى طيبة القلب نحوك ، ولعلنى إذا تخليت عنك لـكنت ضحية كذب العاطلين والـكسالى

الأسقف — إذا كذبنى الناس فهذا دليل على أنهم أفقر منى ولست أنا الفقير

برسوميه — ولـكن هذا تهور ؛ وسيأتى اليوم الذى تصبح فيه معدماً فقد بعت كل شىء ... كل شىء ! !

الأسقف — ما أكثر آلام الحيـاة يا أختى العزيزة ؛ وإننى لن أستطيع أن أخفف من هـذه الآلام إلا القليل (يتنهد) القليل جداً

برسوميه — حقاً إن الآلام كثيرة ولـكنك

لا تفكر فى الآلام التى تسببها لمن يحبونك ... الآلام التى تسببها لى أنا

الأسقف — لك أنت يا أختى العزيزة ؟ هل آذيتك ؟ ... آه ... لقد تذكرت أنك كنت تبكين ؛ أكان ذلك لخطأ ارتكبته نحوك ... لم أكن أقصد إلى إيذائك ... إنى آسف

برسوميه — آسف ... وهل يستطيع الأسف أن يصلح ما حدث ... ؟ هيه ... ! هيا اشرب حساءك قبل أن يبرد

الأسقف — حسن ياعزيزتى (يجلس) ولكن خبريني ...

برسوميه — إننى لا آمن عليك وأنت بعيد عن نظرى كالطفل سواء بسواء ، فقد انتهزت فرصة غيابى وأرسلت هذه الغبية مارى لتبيع المالح الفضية

الأسقف — آه ... المالح الفضية ... إنى لأذوب شفقة عليك فقد كنت ... كنت فخورة بها

برسوميه — إنها تراث عائلى قديم ، ولذا كان من الطبيعى أن أفخر بها

الأسقف — إنى لأشفق عليك فقد كانت مملحات قديمة ، ولكننا نستطيع أن نستعمل مملحتان صينية بدلاً منها

برسوميه — نعم نستطيع ذلك بل ونستطيع ألا نجد ما نأكله ، وستكون هذه خاتمتنا ... إنى لأعجب من جرأة تلك العجوز الأم جرنجوار فقد وجهت إليها بضع كلمات قاسيات كنت أحسبها ستبعدها عنا نهائيًا

الأسقف — نعم رفضت طلبى حينما أردت أن تبقى بيننا بضعة أيام وقالت إن هذا ربما يسوءك

برسوميه — يسوءنى !

الأسقف — وقد رفض المحصل — وهو كما تعلمين رجل عمل لا تلين عاطفته — رفض أن تبقى ولو ليوم واحد دون أن تدفع ما عليها ، ولذا فأنت ترين أنى كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار

برسوميه — كنت مضطرًا إلى دفع الإيجار؟!

(علامة يأس مضحكة)

الأسقف — نعم كنت مضطرًا ، ولما لم يكن معى من المال ما يكفى فقد ضحيت بالمالح ... إنه لمن حسن الحظ أن كانت عندى ... أليس كذلك ؟ (يبتسم) ولكننى آسف إذ أحزنتك

برسوميه — إنك لو استمررت على هذه الحالة الخاطئة فسيأتى اليوم الذى تبيع فيه شمعداناتك

الأسقف (بعزم) — لا لا يا أختى ... ليست شمعداناتى

برسوميه — ولِمَ لا ؟ أظن أنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس

الأسقف — إنها لحسنة منك يا أختى أن تفكرى فى ذلك ولكن ... ولكنى لن أبيعها ... لعلك تعلمين أن والدتى قد أعطتنيها وهى على سرير الموت بعد ولادتك مباشرة ، وقد طلبت منى أن أحتفظ بها لأذكرها دائماً ، ولذا فلن أبيعها ... ولكن لعلى مخطئ فى الإبقاء على مثل هذه الثروة

برسوميه — أخى ... أخى ... إنك تملأ قلبى حزناً (بصوت باك) كفى يا أخى ولا تقل شيئاً ... هيا قبلنى وأعطنى بركتك فسأذهب إلى الفراش

(يقبلها ثم يرسم علامة الصليب ويتمتم ببعض الأدعية بينما تغلق برسوميه الدولاب بالمفتاح ثم تذهب إلى الباب الأيمن)

لا تقرأ كثيراً فتتعب عينيك

الأسقف — كلا يا عزيزتى ... مساء الخير

(تذهب برسوميه من الباب الأيمن ويذهب الأسقف إلى

المائدة حيث يفتح كتاباً ثم ينظر إلى الشمعدانات) إنها تكفى لدفع إيجار بعض الناس ... إنها لحسنة منها أن تفكر فى ذلك (يقلب النار ويصلح المصباح ويرتب بعض الكتب والأوراق ثم يجلس ولكن تظهر عليه علائم الراحة وتعروه رعدة خفيفة . تدق الساعة فى الخارج الثانية عشرة فيجلس ليقرأ . تسمع أثناء ذلك موسيقى)

المجرم — (يدخل متلصصاً وفى يده خنجر كبير ويقف خلف الأسقف) ستصبح جثة هامدة إن حاولت الصياح

الأسقف — ولكن لِمَ أصيح أيها الصديق وأنا — كما ترى — ماض فى قراءتى ... هل من خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

المجرم — (بخشونة) أريد طعاماً فانى أموت جوعاً ... لم يدخل جوفى شىء منذ ثلاثة أيام ... قدم إلىّ الطعام سريعاً ... سريعاً عليك اللعنة !

الأسقف — (متلهفاً) نعم يا ولدي سآتيك بالطعام حالاً ... انتظر قليلا حتى أطلب من أختى مفتاح الدولاب (يقف)

المجرم — إجلس مكانك ! (يجلس القس مبتسما) لا شىء من هذا أيها الصديق ! لست بالطائر الصغير حتى تقتنصنى بمعض الحب . ستطلب من أختك المفاتيح أليس كذلك ؟ خدعة مسبوكة حتى تستطيع إيقاظ كل من فى البيت . ها ها ! ما أحسنها هذه المزحة ! أرنى أين الطعام فانى لا أحتاج إلى مفاتيح . إن فى بطنى ذئباً يقطع أحشائى . أسرع وأخبرنى أين الطعام

الأسقف — (مخاطباً نفسه) كم أود ألا تغلق برسوميه هذا الدولاب ! (مخاطباً المجرم) لِمَ الخوف يا صديقى ولا يوجد فى المنزل إلا أنا وأختى ؟

المجرم — وأنى لى أن أعرف صدق هذا القول ؟

الأسقف — لقد أخبرتك أنا به

المجرم — (ينظر إلى الأسقف طويلا) هيه ... سأخاطر بحريتى

الأسقف — (يذهب إلى الباب الأيمن)

المجرم — ولكن لا تحاول أن تخدعنى فانك إن خدعتنى فسرعان ما أغرس خنجرى هذا فى قلبك . ولتكن متيقناً من قولى هذا يقينك أن جهنم مليئة بالشياطين . ولتعلم أنى لن أخسر شيئاً إذا ما قتلتك

الأسقف — إنك ستفقد روحك يا بنى وهى أغلى من قلبى (ينادى عند الباب الأيمن) : برسوميه ... برسوميه

المجرم — (يقف خلف الأسقف على استعداد لقتله)

برسوميه — (من الداخل) نعم يا أخى

الأسقف — أرجو إن لم تكونى قد خلعت ملابسك أن تحضرى لفتح الدولاب حتى أقدم عشاء لجوال فقير قد عضه الجوع بنابه

برسوميه — (من الداخل) فى مثل هذا الوقت المتأخر ؟ ما أجمل هذا العمل ! ألا نستطيع النوم قليلا دون أن يزعجنا أحد هؤلاء الرجل الذين لا يجدون عملا ؟

الأسقف — ولكن الجوال جوعان يا برسوميه

برسوميه — (من الداخل) حسن ! سأحضر (عند ما تدخل برسوميه من الباب الأيمن ترى الخنجر فى يد المجرم فتقول بفزع) أخى ما الذى سيفعله بهذه السكين ؟

الأسقف — السكين ... آه ... لعله حسبنى قد ... قد بعت سكاكينا (يضحك بهدوء)

برسوميه — (مسرة إلى الأسقف) أخي ، إنى فزعة ، ألا ترى نظراته إلينا يتطاير منها الشرر ؟

المجرم — ألا تسرعان ... هيا أحضرا الطعام وإلا أغمدت سكينى فى جسميكما كليهما وفررت

الأسقف — أعطنى المفاتيح يا برسوميه (تعطيه إياها) . والآن ، يا عزيزتى ، في وسعك أن تذهبي إلى فراشك (تهم برسوميه بالذهاب إلا أن المجرم يقفز حتى يقف فى طريقها)

المجرم — قفي ! فلن يغادر أحدكما هذه الغرفة قبل أن أفعل أنا ذلك (تنظر إلى الأسقف)

الأسقف — أظن أن هذا الصديق المهذب (Jentleman) يريد أن تتعطفي وتجالسيه أثناء الطعام فهل أنت فاعلة ؟

برسوميه — حسن يا أخى (تجلس إلى المائدة وهى تلاحظهما)

الأسقف — هاك طبقاً من اللحم وزجاجة من الخمر وقليلا من الخبز

المجرم — ضعها على المائدة وقف أمامى حتى لا تغيب عن ناظرى

الأسقف — (يفعل ذلك ثم يفتح درج الدولاب ويخرج منه سكينة وشوكة ثم ينظر إلى الخنجر فى يد المجرم

المجرم — إن سكينتى لحادة (يمرر يده على حد الخنجر وينظر إليهما نظرة ذات معنى) أما عن الشوكة (يمسكها بيده) باه ! حديد (يرميها بعيداً) لم نكن لنستعمل الشوك فى السجن

برسوميه — السجن ؟

المجرم — (يقطع من اللحم قطعة كبيرة مستعملا فى ذلك أصابعه وكأنه حيوان جائع) ما هذا (ينظر إلى الباب) لم بحق الشيطان تترك النوافذ والأبواب دون إغلاق ؟ إن ذلك يجعل دخول أى شخص هنا من السهولة بمكان .

الأسقف — وهذا هو سبب تركها دون إغلاق

المجرم — حسن ، لقد أغلقت الآن

الأسقف — (يتنهد) للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً

المجرم — (يأكل بشره ثم يرمي إحدى العظام على الأرض)

برسوميه — أوه ! البلاط الجميل النظيف !

الأسقف — (يلتقط العظمة ثم يضعها في أحد الأطباق)

المجرم — ألا تخشى اللصوص ؟

الأسقف — إنى أشفق عليهم

المجرم — تشفق عليهم ؟ ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر من الزجاجة) هذا جميل ، تشفق عليهم ، ها ها ها ! (يجرع بعض الخمر) (فجأة) ماذا تكون بحق الشيطان ؟

الأسقف — إنى قس

المجرم — ها ها ها ! قس ، يا للعذراء المقدسة ، قس ، حسن ، لقد أصبحتُ ملعوناً .

الأسقف — تستطيع أن تكون مباركاً .

برسوميه تستطيعين أن تتركينا وحدنا وأظن أن صديقى هذا لن يمانع فى ذلك

برسوميه — أأتركك مع ...

الأسقف — أرجوك ... إننا نستطيع إذ ذاك — صديقى وأنا — أن نتكلم بحرية أكثر من الآن

المجرم — (بسبب الجوع يكون في هذه الأثناء قد تأثر بفعل الخمر) ما هذا ؟ أتتركنا ؟ نعم ، نعم ، فلتتركينا ، مساء الخير فإنى أود أن أحادث القس ، القس ، ها ها (يضحك فى أثناء شربه ويكح)

الأسقف — مساء الخير يابرسوميه (يفتح الباب الأيسر لبرسوميه فتخرج منه ولكنها عند ما تمر بالمجرم تضم ثوبها إليها)

المجرم — (يخاطب نفسه مسروراً) قس ، هاها ! حسناً ، إني ... (يرفع صوته فجأة) ألاتعرف من أنا ؟

الأسقف — أظنك أحد أولئك الذين قاسوا كثيراً من المتاعب

المجرم — قاسيت (مرتبكا) قاسيت ؟ يا إلهى هذا حق (يشرب) ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد ، ها ها كان هذا أيام أن كنت رجلاً أما الآن فلست رجلاً ، لست إلا رقماً ، رقم ١٥٧٢٩ ، وقد عشت فى الجحيم عشر سنوات

الأسقف — أخبرنى عنها ... عن الجحيم

المجرم — لماذا ؟ (متشككا) ألأنك تريد أن تخبر رجال الشرطة عنى فيقتفوا أثرى ؟

الأسقف — كلا ، لن أخبر رجال الشرطة

المجرم — (ينظر إليه متمعناً) إنى أصدقك (يهز رأسه) ولتحل اللعنة علىّ إن علمت لماذا أصدقك

الأسقف (يضع يده على ذراع المجرم) — أخبرنى عن الوقت ... الوقت الذى سبق ذهابك إلى ... إلى الجحيم

المجرم — كان ذلك منذ زمان بعيد وقد نسيته ؛ إلا أننى أذكر أننى كنت أسكن كوخاً مغطى بكرمة متسلقة (وكأنه يحلم) . لشد ما كان منظر الكوخ والكرمة رائعاً فى غروب الشمس و... وكانت هناك امرأة ... وقد كانت (يفكر) أظنها كانت زوجتى . نعم (فجأة وبسرعة) نعم ، لقد تذكرت ! لقد كانت مريضة ولم يكن عندنا طعام فقد كنت عاطلاً ، وكانت سنة ما أشدها ، وكانت زوجتى ، حبيبتى جانييت ، كانت مريضة تموت (فترة صمت) ولذا سرقت لأشترى لها طعاماً (فترة صمت طويلة يربت الأسقف على يده بلطف) قبضوا علىّ وكان جوابهم عن دفاعى وعن ذكر سبب السرقة الحكم علىّ بالسجن عشر سنوات فى سفن السجن (فترة سكون) عشر سنوات فى الجحيم . وفى نفس الليلة التى قبض علىّ فيها أخبرنى السجان أن زوجتى حبيبتى جانييت ... ماتت (تضطرب كلماته من الغضب) آه ... عليهم اللعنة ... عليهم اللعنة ... فليلعنهم الله جميعاً

(ينحنى على المائدة وهو يبكى)

الأسقف — أخبرنى الآن عن سفينة السجن . عن الجحيم

المجرم — أأخبرك عنها ؟ إسمع ... لقد كنت رجلاً يوماً ما ... أما الآن فلست إلا حيواناً ضارياً وهم أنفسهم الذين جعلوا منى ذلك الحيوان ... كانوا يقيدوننى بالسلاسل كالحيوانات المفترسة ويجلدوننى كالكلاب سواء بسواء . كنت أعيش على الأقذار ، وكان جسمى مغطى بالحشرات الطفيلية ... كنت أنام على ظهر السفينة وكنت أتألم . ثم أخذوا يجلدوننى ثانية . عشر سنوات ... عشر سنوات . آه يا إلهى ! لقد انتزعوا منى اسمي وروحى وأعطونى بدلاً منها شيطاناً يكمن فى أعماق نفسى . وفى أحد الأيام أهملوا فلم يقيدوا حيوانهم المفترس بسلاسلهم فـ ... هرب وأصبح حرًّا ، وكان ذلك منذ ستة أسابيع ... لقد أصبحت حرًّا ... أصبحت حرًّا لأجوع

الأسقف — لتجوع ؟ !

المجرم — نعم لأجوع . إنهم يطعمونك فى

الجحيم ، فإذا ما هربت فلن تجد ما تتبلغ به . كانوا يتعقبونني فى كل مكان ولم يكن معى أوراق لتحقيق الشخصية وكنت جائعاً ... فسرقت ثانياً . سرقت هذه الخرق التى تغطى جسدى ... سرقت طعامى يوماً بيوم . كنت أنام فى الغابات والأحراج وفى كل مكان . لم أكن أستطيع العمل ، ولم أجسر على الذهاب إلى المدن الكبرى لأتسول ، ولذا سرقت ... أصبحت لصًّا ... ولكنهم هم الذين صيروني هذا اللص ... فليلعنهم الله جميعاً . (يفرغ بقية زجاجة الخمر فى جوفه ثم يرميها فى الدفأة حيث تتهشم)

الأسقف — لقد قاسيت كثيراً يا بنى ولكن لا تيأس من الأمل

المجرم — الأمل ! الأمل ! ها ها ها ! (يضحك بقسوة)

الأسقف — لقد مشيت كثيراً وأظنك تعباً فلتسترح قليلا على هذه الأريكة . اضطجع عليها وسآتيك ببعض الأغطية

المجرم — وإذا ما حضر إلى هنا أى فرد

الأسقف — لن يحضر أحد .. وحتى لو حضر أى شخص كان ، أفلست صديق ؟

المجرم — (مرتبكا) صديقك ؟

الأسقف — لايمكن لأى أحد أن يزعج صديق الأسقف .

المجرم — صديق الأسقف ! (يهز رأسه بارتباك)

الأسقف — سأحضر الأغطية (يخرج من باب اليسار)

المجرم — (ينظر حواليه ثم يهز رأسه بارتباك) صديق الأسقف ! (يذهب إلى الدفأة ليتدفأ وليلقي نظرة على الشمعدانات. ينظر فى كل مكان ليتأكد من انفراده فى الحجرة ثم يزن الشمعدانات بيديه) فضة يا إلهى، وثقيلة . ما أحسنها جائزة ! (وعند ما يسمع صوت قدمى الأسقف قادما يسرع بوضع الشمعدانات فى مكانها إلا أنه لسرعته يسقط أحدها على المائدة)

الأسقف — (يدخل فيرى ماحدث ولكنه يذهب إلى المقعد مباشرة ومعه الأغطية) آه ! لقد أعجبتك شمعداناتى . إنى فخور بها فإنها هدية من أمى . لعلها أجمل من أن توضع فى كوخ حقير ككوخى هذا ، ولكنها الشيء الوحيد الذى يذكرنى بأمى . لقد أعددت لك الفراش . ألا تنام الآن ؟

المجرم — نعم ، نعم ، سأنام (مرتبكا) ، والآن بحق الشيطان لم أنت شـ ... شفوق علىّ ؟

الأسقف — إنى لأود لك نوماً هنيئاً يا صديقى

المجرم — إنى أعلم أنك تود أن تبشرنى ، أن تنقذ روحى كما تقولون ، حسن ... إني لاأريد ذلك أترى ، إني لاأريد أية ديانة ملعونة ، أما عن الكنيسة، باه ! إنى أمقت الكنيسة

الأسقف — إنى لأشفق عليك يا بنى ، فإن الكنيسة لا تكرهك

المجرم — إنك تحاول تبشيري . أوه ! هاهاها ! يا لها من فكرة حسنة ، ها ها ها ! لا ! لا يا نيافة الأسقف إننى لا أريد أى عهد أو أمل أو إحسان أرأيت ؟ إن أى شيء تفعله لأجلى كأنك تفعله لأجل الشيطان، أفهمت ؟ (بعناد)

الأسقف — إن الانسان ليعمل الكثير فى سبيل الشيطان ليعمل القليل فى سبيل الله

المجرم — (بغضب) لقد أخبرتك أننى لا أريد أية ديانة ملعونة

الأسقف — ألا تنام الآن ... إن الوقت متأخر

المجرم — حسن ... ولكنني لا أريد تلك النصائح الدينية ... أنا ... أنا ... (ممدداً على الاريكة) أواثق أنت من أن لا أحد يستطيع الدخول ؟

الأسقف — لا أظن أن أحداً يفعل ذلك ، ولو فعلوا ... ألست أنت الذى أغلق الباب ؟

المجرم — هيه ! إنى لأعجب إن كنت فى مأمن (يذهب إلى الباب ويفحصه ثم يرجع فيرى الأسقف واقفاً إلى جانب الاريكة ممسكا بيده الأغطية فيخاطبه بغضب) ألا تذهب إلى فراشك ... سأغطى نفسي (الأسقف يتردد) لقد قلت لك أن تذهب إلى فراشك

الأسقف — مساء الخير يا ولدى (يخرج من باب اليسار)

المجرم — (حالما يرى نفسه وحيداً يذهب إلى الباب فيفحصه جيداً) ليس بالباب قفل عليه اللعنة (ينظر حواليه فيرى الشمعدانات) هيه ! سألقى عليها نظرة أخرى (يمسك الشمعدانات ويزنها بيديه) إذا صدق حدسى فإنها تساوى مئات . لو كان معى قيمتها ذهباً ، إذن لاستطعت أن أبدأ حياتى من جديد . هيه ! ذلك العجوز معجب وفخور بها لأن أمه أعطته إياها . نعم أمه ، ولكنهم لم يفكروا فى أمى أنا عند ما أرسلوني إلى الجحيم . لقد كان طيباً نحوى ولكن تلك هى صناعة القسس ... الطيبة ... هيه ... أيها القلب ... لقد أصبحت ليناً ... يا إلهى ... ألا يضحك ترددى هذا إخوانى في السجن ؟ ألا يضحكهم أن يروا رقم ١٥٧٢٩ يتردد فى سرقة شئ بمجرد أنه أصبح يشعر بالطيبة ؟ الطيبة ! ها ها ! أوه يا إلهى ! الطيبة ! ها ها ! رقم ١٥٧٢٩ أصبح ليناً ... هذه مزحة حسنة . ها ها ! كلا سآخذ هذه الشمعدانات وأذهب بها فإني لو بقيت حتى الصباح سيعظنى ويزيدني ليناً ... عليه اللعنة هو وعظاته ... والآن فلأذهب ! (يأخذ الشمعدانات ويضعها داخل ثوبه ثم يخرج باحتراس من باب الركن الأيسر وبينما هو يخرج يقفل الباب بشدة)

برسوميه — (من الخارج) من هناك ؟ قلت من هناك ؟ ألا أستطيع النوم مطلقاً ؟ قلت من هناك ؟ (تدخل برسوميه من باب اليسار) إنى لواثقة من أن الباب أغلق (تنظر حواليها) لا أحد هنا (تطرق باب الأسقف حينما لا ترى الشمعدانات) الشمعدانات ... الشمعدانات ... لقد ضاعت ... أخى ... أخى ... تعال ... النار ... القتلة ... اللصوص ...

الأسقف — (يدخل من باب اليسار) ما هذا يا عزيزتى ، ما هذا ... ما ذا حدث ؟

برسوميه — لقد ذهب ... ذهب الرجل ذو الأعين الشرهة وأخذ معه الشمعدانات

الأسقف — ليست شمعداناتى يا أختى ... ليست هى (ينظر إلى مكانها ويتنهد) آه ... هذا لا يطاق ... لا يطاق ... إنى ... إنى ... كان من الواجب أن يتركها لى ... لقد كانت كل ما أملك (يكاد يبكى)

برسوميه — هذا حسن ، ولكن من الواجب أن نخطر البوليس فانه لم يتمكن بعد من الذهاب بعيداً وسرعان ما يقبضون عليه ويردون لك شمعداناتك إنك لا تستحق هذه الشمعدانات لأنك تركتها أمام عينى مثل هذا الرجل

الأسقف — إنك على حق يا برسوميه ... إنها غلطتى أن أترك الرجل تحت تأثير الرغبة فيها

برسوميه — خزعبلات ... إنك لم تترك الرجل تحت تأثير الرغبة وإنما هى اللصوصية المتأصلة فيه هى التى دفعته إلى ذلك فان الرجل لص وقد لحظت ذلك فى اللحظة الأولى التى رأيته فيها ...

إذهب وأخطر الشرطة بالأمر وإلا فسأفعل أنا
(تهم بالذهاب ولكنه يوقفها)

الأسقف — وبذلك نرسله ثانياً إلى السجن
(بصوت حنون) نعيده إلى الجحيم... كلا يا برسوميه! إنه عقاب عادل لى فقد كان من الخطأ أن أبقى مثل هذه الثروة فى حيازتى ... إنها خطيئة ... وكان عقابى عادلا ... ولكن ... آه يا إلهى ... إن هذا لا يحتمل ... إنه فوق طاقتى (يدفن رأسه بين يديه)

برسوميه — كلا يا أخى إنك مخطىء . إن لم تخطر الشرطة فسأخبرهم أنا . فلا أستطيع أن أقف مكتوفة اليدين بينما أراك تسرق . إني أعلم أنك أخى وأسقفى وأحسن رجل في فرنسا ولكنك رغم ذلك مغفل ... طفل ... ولن أستطيع رؤية طيبتك تستعمل لسرقتك ... سأذهب وأخطر الشرطة
(تتجه صوب الباب)

الأسقف — قفى يا برسوميه .. إن الشمعدانات كانت تخصنى أنا وهى تخصه هو الآن . وهذا حسن لأنه فى حاجة إليها أكثر من حاجتى إليها ولو كانت أمى بيننا الآن لفضلت إعطاءها له

برسوميه — لكن ... (طرق عال على الباب)

ضابط — (من الخارج) يا صاحب النيافة ... يا صاحب النيافة ... عندنا أمر هام بك فهل ندخل ؟

الأسقف — أدخل يا بنى (يدخل الضابط وثلاثة رجال من رجال الشرطة والمجرم وهو مقيد ، الضابط يحمل الشمعدانات)

برسوميه — آه ... لقد قبضوا عليك أيها الشرير !

الضابط — نعم يا سيدتى ... لقد وجدنا هذا المجرم يسترق الخطى فى الطريق ولما لم يستطع إثبات شخصيته فقد قبضنا عليه لتشككنا فيه ... يا للعذراء المقدسة ... ورغم أنه قوى فإنه لم يقاومنا مطلقاً ، وبينما نحن نقوده سقطت هذه الشمعدانات من جيبه

برسوميه — (تأخذها بقوة وتذهب بها إلى المائدة حيث تمسحها بفوطتها بحب وإعجاب)

الضابط — لقد تذكرت أن هذه الشمعدانات تخص نيافة الأسقف ولذا فقد حضرنا إلى هنا لتتعرفوا عليها وبعد ذلك نذهب به إلى حيث يسجن
(كل من القس والمجرم كان فى هذه الأثناء ينظر إلى الآخر)

الأسقف — ولكنى ... ولكنى لا أفهم شيئاً ... هذا الشخص هو صديق الصدوق

الضابط — صديقك يا صاحب النيافة ... يا للعذراء المقدسة ! حسن

الأسقف — نعم يا صديق ... لقد أولانى عطفاً كبيراً حين قبل أن يتناول العشاء معى الليلة ثم أ ... أعطيته هذه الشمعدانات

الضابط — (غير مصدق) أنت أعطيته ... أعطيته هو هذه الشمعدانات ... يا للعذراء المقدسة

الأسقف — (بشدة) تذكر يا بنى أنها مقدسة

الضابط — (محيياً بيده) عفواً يا صاحب النيافة

الأسقف — والآن ... أظن أنك ستترك سجينك وشأنه

الضابط — ولكنه لم يرنى أوراق تحقيق الشخصية الخاصة به ولم أعرف بعد من هو

الأسقف — قلت لك إنه صديق

الضابط — هذا حسن ... ولكن ...

الأسقف — إنه صديق أسقفك وأظن أن فى هذا الكفاية

الضابط — حسن ... ولكن ...

الأسقف — بالتأكيد (فترة صمت) (كل من الأسقف والضابط ينظر إلى الآخر)

الضابط — أنا ... أنا ... هيه ! (لرجاله) أطلقوا سراح السجين (يتركونه) إلى الخلف دُر.. إلى الأمام ... بسرعة سر ! (يخرج الضابط ورجاله) (فترة صمت طويلة)

المجرم — (ببطء وكأنه فى حلم) لقد أخبرتهم أنك أعطيتنى هذه الشمعدانات ... أنت أعطيتنى إياها ... يا إلهى

برسوميه — (تهز يدها فى وجهه ، ثم تجذب الشمعدانات إلى صدرها وتمسكها بقوة) أوه ... أيها المجرم ... لقد حضرت هنا حيث وجدت المأكل والطعام ثم بعد ذلك تسرق ... تسرق الذين أحسنوا إليك ... أوه أيها الشرير

الأسقف — برسوميه ... إنك عصبية قليلا فاذهبي إلى حجرتك

برسوميه — ماذا ... وأتركك معه وحدك لكن يغشك مرة ثانية وربما يقتلك ... لا ... لن أذهب

الأسقف — (بشدة خفيفة) برسوميه ... اتركينا ... إنى أرغب فى ذلك

برسوميه — (تنظر إليه بشدة ثم تتجه إلى حجرتها) حسن ... إذا كان من الضرورى أن أخرج فلا أقل من أن آخذ الشمعدانات معى

الأسقف — (بشدة أكثر) برسوميه ! ضعى الشمعدانات على هذه المائدة واتركينا وحدنا

برسوميه — (باصرار) لن أتركها

الأسقف — (بصوت مرتفع شديد جداً) إنى أسقفك آمرك بذلك

برسوميه — (تفعل ذلك بالرغم منها ثم تخرج من الباب الأيمن)

المجرم — (بخجل) يا صاحب النيافة ... إننى لمسرور لأنى لم أذهب بها ... علىّ اللعنة ... إنى ... إنى مسرور

الأسقف — والآن ألا تنام هنا ؟ .. أنظر .. إن الفراش معد لك

المجرم — كلا (ينظر إلى الشمعدانات) كلا ... كلا ... إنى لا أجسر ... لا أجسر ... يجب أن أذهب الآن كى أصل إلى باريس سريعاً ... إنها كبيرة حيث ... حيث لا يستطيع أن يعرفنى أحد ... لن يجدنى أحد هناك ... ويجب أن أسافر ليلاً ... ألا تفهم ؟

الأسقف — نعم ... لقد علمت لِمَ يجب أن تسافر ليلا ؟

المجرم — لم ... لم أكن أظن أنه توجد طيبة على سطح الأرض ... والإنسان لا يمكن أن يظن ذلك إذا ما عاش فى الجحيم ... وعلى كل حال فقد... قد عرفت طيبتك ... و... ولعله يكون شيئاً عجيباً إذا ما طلبت ... ولكن ... ولكن ألا يمكنك أن تعفو عنى قبل أن أرحل ؟ إني أعتقد أن ذلك سيساعدنى ... أنا ... (يترك رأسه يسقط من الخجل)

الأسقف — (يرسم علامة الصليب ويتمتم ببعض الأدعية)

المجرم — (يحاول الكلام ، ولكنه يغص دائماً بالبكاء) مساء الخير (يسرع جهة الباب)

الأسقف — انتظر يا ولدى ... لقد نسيت بعض ممتلكاتك (يعطيه الشمعدانات)

المجرم — أتقصد أنى ... أريد إعطائى الشمعدانات ؟

الأسقف — أرجوك ... إنها ستساعدك

المجرم — (يأخذ الشمعدانات وهو لا يصدق من التعجب)

الأسقف — وهناك يا ولدى طريق يمر من الغابة تجده خلف كوخى هذا وهو يصل إلى باريس.. إنه طريق موحش لا يمر به إنسان . ولقد لاحظت أن أصدقائى الجند لا يحبون الطرق المقفرة خصوصاً فى الليل ... إن هذا عجيب

المجرم — آه شكراً ... شكراً لك يا صاحب النيافة ... إنى ... إنى ... (تضطرب الكلمات فى حلقه) أوه ... إنى مغفل ... طفل يبكى ، ولكن على كل حال لقد جعلتنى أشعر وكأن ... وكأن شيئاً حل بى ... وكأننى أصبحت رجلاً مرة أخرى ولست حيواناً ضارياً (يفتح الباب الخلفى ويقف عند مدخله)

الأسقف — (يضع يده على كتفه) تذكر دائماً يا بنى أن هذا الجسد الضعيف هو معبد الله الحى

المجرم — (بحزن عظيم) معبد الله الحي ... سأتذكر ذلك (يخرج من باب الركن الأيسر)

الأسقف — (يغلق الباب ثم يذهب بهدوء إلى المذبح الموضوع عند النافذة اليمنى حيث يجلس على ركبتيه ويخفض رأسه ويبدأ في الصلاة)

(ستار بطئ)

« انتهت » الناقص

شركة مصر لنسج الحرير

تزود بمنسوجاتها الجميلة

والوانها المفرحة البهيجة

وأثمانها المعتدلة الرخيصة

الوجيه الكبير . والموظف البسيط . والعامل الصغير

وهى فى متناول الجميع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧)